

میشال زینفاکو

جس الفسٹریک

www.liilas.com/vb3
^ RAYAHEEN ^

دار الروائع

عيد الغرام

*

فينيسيا بمجد ايطاليا وعروس الأدرياتيك وجنة الشعراء
والرسامين والنساء الساحرات ، وصاحبة التاريخ الثائر الغني في
العصور المتوسطة ، كانت قد استيقظت تلك الليلة وتبرجت
كأجل ما تكون المرأة الحسنة التي تلقي ساقها وذراعها في
الموج الهادي لتشارك أهلها جميعاً في هيامهم بهذين الاسمين ،
رولاند وليونور ، في الليلة الخامسة من شهر حزيران سنة ١٥٠٩ ،
إذ سهروا حتى مطلع الفجر يكرمونها ويعتقدون أنها رمز
الحرية وطلمس الحب وسحر الهوى والغرام وكل ما في بلادهم من
شهيّ جميل !

وما كان أجمل فينيسيا في تلك الليلة وقد كشفت عن مفاتها
الساحرة وبرزت تحتال تهباً فوق عرشها المسائي المتموج والبدر
في كبد السماء ينظر إليها وقد اصفرّ وجهه حسداً وغيره فسبح
في بحره الزمردي وهام في عالم اللانهاية . كانت المدينة المائية

العائقة على الأمواج المتدفقة إليها من البحر ، أشبه بكتلة من نور
وقد جعلت الألوف من الزوارق المشهورة باسم الغندول تسير في
ترعتها الكبرى ، فامتزج الرجال بالنساء في تلك الزوارق
وتلألأت أنوار مصابيحها فوق سطح الماء . فكأنما النجوم قد
هبطت إلى البحيرات بل كأنما البحيرات قد استحالت إلى سماء .

وقد اجتمع في ساحة سانت مارك تحت تلك الصواري التي
رفعت عليها علائم الجمهورية ، حسان الفتيات وقتيان البحارة
وفريق عظيم من الشعب على اختلاف طبقاتهم من كل من ينوح
ويترنم ويبش ويتجمه ويجب ويتالم . والأجرام تدق وقد
سكرت فينيسيا بخمرة الحب وامتزاج غناه الغرام بأناشيد الصلاة
فلا تجد بين ذلك الشعب غير الجماهر بالدعاء ، الداعي بالهناء ،
الذاكر اسمي رولاند وليونور بالحمد والشناء .

وكان هناك رجلان واقفان في شرفة القصر القديم ينظران
إلى فرح الشعب في حقد كمين ، فيرسلان نظرات ثارية متأججة
تشفّ عما يضطرم في قلبيهما من الضغينة والكراهية ، بينما كان
الناس يبتهجون ويدعون بطول عمر الخطيبين ويذكرون من
حين إلى حين اسمي رولاند وليونور !

ذلك أن مدينة فينيسيا تعيد نفسها بأنها مستحفل غداً بمخطفة
العاشقين في سراي الدوج ، والدوج لقب رئيس جمهورية فينيسيا
في ذلك العصر . وسيحلف رولاند وليونور بين الوفاء أمام الجمع
العظيم من أهل المدينة بعد أن حلفاها همساً منذ عامين دون أن

يستشهداً غير قلبيهما وغير بدر السماء وأمواج البحر .

كان رولاند ابن الدوج كانديانو نصير المظلوم وغوث المضطهد
وحامي الضعيف . ولقد طالما أنقذ المظلومين من برائن مجلس
العشرة ، أو المجلس السري الغاشم الخطر الذي كان يعقد في
فينيسيا مؤلفاً من عشرة أشخاص والذي اشتهر بشدة أحكامه
وقسوة أعماله حتى جرت فظائمه ومظالمه مجرى الأمثال .
وطالما هز أركان هذا المجلس الهائل الرهيب .

وكانت ليونور فخر فينيسيا يجالها وهي من أسرة رندولو
الشهيرة بتاريخ الايطالين . وكانت آية في الرفق الإنساني وحب
الفقر حتى كانوا يلقبونها بعذراء العذارى وحببية الأطفال
وشقيقة المظلومين والمحرومين . وكانت تحب رولاند حباً مفرطاً
حتى لقد روي عنها أنه جاءها يوماً مصور شهير والتمس منها
أن تأذن له بتصويرها تخليداً لجمالها وفتنتها ، وكان هذا المصور
لا يرسم في ذلك العهد غير أبداع الصور فينال صاحب الصورة
أبعد شهرة ، فأبت ليونور أن تأذن له بتصويرها وأجابته أن
صورتها كقلبها لا يناها غير خطيبها .

وإنما كان سرور أهل فينيسيا بهذا الزواج لأنهم كانوا يعانون
من مجلس العشرة واستبداده سالم يعان بعضه في أيام السلطان
الأحمر عبد الحميد ، فكانوا يرجون أن تصبح الاسرتان بعد
اتصالها بقرى الزواج خير عون للناس على ذلك المجلس ، فإن
أفراد هاتين الاسرتين قد اشتهروا بمقاومة الظلم والإستبداد .

وبينا كان الناس يهتفون للخطيبين خفتت أصواتهم فجأة
وانقبضت نفوسهم بعد ارتياحها وظهرت عليهم علامات القلق ،
ذلك أنهم رأوا جاسوساً دنا من المكان المعدّ لرسائل الوشائيات
فألقي فيه رسالة ثم توارى يخفيه الظلام . فهلمت قلوب الناس
إشفاقاً على ذلك المتكود الموشى به لما يعلمونه من جور مجلس
العشرة . ولكنهم نسوا ذلك بعد هنية وعادوا إلى الهاتف عند
أبواب قصر الدوج حيث كان الدوج نفسه وإمرأته سيلفا
يضطربان خوفاً على ولدهما لما رأياه من تظاهر الشعب بالميل إليه
فجعلاً يبتهلان إلى الله كي يصونه من كيد الحاسدين .

وقد سبق لنا أن قلنا إنه كان في شرفة القصر رجلان ينظران
إلى هذه المظاهرات نظرات البغض والحقد . وكان أحدهما طويل
القامة تدل ملامحه على الكبرياء وقد ضم يده كأنه يتهدد أولئك
المتظاهرين ، وقال بصوت أجش : افرح أيها الشعب المستبد
فستدرف غداً الدم بدل الدمع . ألا تسمع يا ببو ماذا يقولون ؟
إنهم يهتفون لروланд العين ! إسمع .

قال : إني سامع أيها السيد ألتباري وأعترف أن اممي
روланд وليونور خلقا للانضمام كما خلق صاحبها للاتحاد بالزواج !

— أسكت !

— كيف ذلك ؟ أما تقرررت خطبتها غداً وتقرر زواجها
بعد اسبوع ؟

— يا للهول ! إني أؤثر أن أمزق صدرها بخنجر من أن يتم
هذا الزواج !

— إذن أنت تكره صديقك الحميم رولاند !

— إني أكرهه لأنني أحبها وقد ضيقت هذا الحب أخلاقي !
ليونور ، لماذا رأيتك ؟ ليونور ، لماذا عرفتك ؟ ليونور ، لماذا
أحببتك ؟ ألا لعن الله تلك الأحشاء التي حملتني فحملت معي
الشقاء الذي امتزج بدمي منذ خلقت !

وقد جعل هذا الرجل الهائل ، وهو أحد رجال مجلس
العشرة ، يبكي بكاء الأطفال وهو إذا سار في الأسواق فرّ الناس
منه رعباً لاشتهاره بالعنف والقسوة والصلابة . فابتسم ببو
ابتسامة تدل على الاحتقار والخوف ثم نظر إليه وقال : أصغ .

وكانت في تلك الحين فرقة من النساء الجميلات ينشدن نشيد
غرام تردد فيه اسم ليونور بأشجى الأصوات ، فأصغى ألتباري
لهذا للنشيد حتى إذا سكت النساء عن الغناء هاج هياج المجانين
واندفع في سلم الشرفة ! فأسرع إليه ببو وقال له : سيدي ،
ماذا تصنع ؟ فلم يجبه ألتباري بشيء ولكنه أراه خنجراً مجرداً .
فحال ببو بينه وبين الطريق وقال له : ماذا عزمتم أن تفعل يا
سيدي ؟ أملك مازح ! ألا تعلم أنك تدعى ألتباري وأنتك تقود
عشرين ألف جندي وأنتك قادر على خلع الدوج ولبس تاجه ،
وأن موت الناس وحياتهم بين شفتيك ، وأنتك قابض على زمام

مجلس العشرة الهائل؟ ومن كانت بيده هذه السلطة يا سيدي
أبتدأني إلى الإقتداء باللصوص . كلا يا سيدي ، إن رولاند
خطيب ليونور لا يجب أن يموت بالخنجر .

فوقف ألتباري مبهوتاً وقال له : ماذا تعني بما تقول؟ فأخذ
بمبو بيده وذهب به إلى آخر الغرفة وهناك مدّ يده وقال له :
أنظر !

فنظر ألتباري إلى حيث أشار بمبو فرأى ترعة ضيقة مظلمة
لا زوارق فيها وقد شيدت على إحدى ضفتيها سراي الحاكم ،
وعلى الضفة الأخرى سجون فينيسيا الهائلة التي يملأ منظرها
القلوب ذعراً .

وبين هاتين البنائتين صلة متصلة بالأعماق تشبه الناوس
فتصل بين مكان الظلم ومكان التعذيب والتنكيل . وقد وقعت
أنظار ألتباري على هذا الموصل الرهيب فتراجع خائفاً مذعوراً
وقال :

— جسر التنهدات !

قال : بل جسر الموت ، فإن من يمر به لا بد أن يودع الحب
والحياة والرجاء .

فتندت جبين ألتباري بالعرق وقد أدرك قوة هذا الانتقام
ثم ظهر عليه كأنما ضميره قد رزح تحت ثقل هذه القضاة التي
تمثلت له . ولكنه ما لبث أن انتفض كأنه قد تغلب على هذا

الضمير فقال : بأية حجة نقبض عليه ؟ فقال له بمبو : إذا كنت
تريد الحجة فاتبعني . قال : إلى أين تسير بي أيها الشيطان ؟ فلم
يحيه بمبو ولكنه سار به إلى الطرف الآخر من الشرفة الواسعة
وقال له : انظر .

وقد أشار إلى قصر جميل بُني مقدّمه من رخام «كارارا»
التمين وتلوت أعمده وهي من الشب فكانت خيالاتها تظهر
فوق ماء الترعة جميلة فاتنة فلما نظر ألتباري إلى حيث أشار
بمبو انذهل وقال : أتشير إلى قصر المحظية أمباريا ؟

قال : نعم . فإذا كنت تريد سبباً للقبض على رولاند ففي
هذا القصر وعند هذه المحظية نجد السبب فلا يسلمك رولاند
غير أمباريا .

— كيف ذلك ؟ هل هي تكرهه إلى هذا الحد ؟ قال : بل
إنها تحبه حباً أشدّ خطراً عليه من الكره ، وهي تتعذب في هذه
الليلة عذاباً لم يلقى بعضه الشهداء ، فإنها تحبه حب عبادة كما تحب
أنت ليونور . وقد بلغت منها الغيرة أشد ما بلغت منك وهي
تراقب هذه الحلقة كما تراقبها أنت وتحاول من الانتقام نفس ما
تحاوله أنت ، فهل يا سيدي إذا أردت أن تحول دون زواج
رولاند .

*

عشاق فينيسيا

*

هدأ الضجيج الهائل الذي أحدثته الأعياد الشعبية وانقضت مظاهرات تلك الليلة وسادت السكينة ، وثام أهل فينيسيا وأغلقت المدينة أبوابها فلم يُسمع فيها غير صوت المياه المتعوجة في ترعها التي كان النسيم يعث بها ويداعبها فتتلون كشعر إلهة البحر في أساطير الأولين ، وقد سطع القمر في كبد السماء منيراً بيتاً وعكس أشعته فوق تلك الأمواج فتراقصت بها على هينات النسيم .

أقفلت أبواب المنازل كلها في المدينة الساكنة ما خلا شدة الأسد العظيم الخاص بالوشايات ، وهو تمثال ضخم لأسد فاغر الشدقين نصب هناك ، فكان من أراد أن ينتقم من عدوه أو خصمه يكتب وشايته ويلقيها في الفم المفتوح فيطلع عليها مجلس العشرة الظالم فينكتل بمن تحمل الوشاية اسمه تنكيلاً فظيماً .

وبرزت جزيرة أوليفو من وراء كنيسة سانت مارك ، تلك الجزيرة المكرمة للعب وأهله إذ كانوا يحتفلون فيها كل عام بزواج اثنتي عشرة عذراء على نفقة الجمهورية . وفي تلك الجزيرة حديقة

واسعة وقف بلبل على رأس أرزة من أرزاتها وجعل يغني ويعبد غناه بألحان شجية ، فتجيبه عليها بومة وقفت فوق غصن على مقربة منه ، فكان الليل يصغي بلء نفسه المنتشرة في الفضاء إلى هذين الصوتين اللذين كانا يتزجان بصوت الأمواج فتؤلف نشيداً ساحراً حنوناً .

وتحت هذه الأرزة الفخيمة ، بين أزاهر الورود والرياحين وكل ما وهبته الطبيعة من الجمال ، كانت ذلك الليل يسمع أيضاً حديثاً أشجى من نغمت البلابل وأرق من هينة النسيم وأطرب من صوت الأمواج ، ذلك أنه كان يسمع مناجاة العاشقين ومناعة الخطيبين رولاند وليونور .

كان العاشقان يتحادثان تحت هذه الشجرة وهما لا يتكلمان بأحاديث الغرام فإنه كان مائلاً في عينها ونبراتهما ، بل كانا يتكلمان بأمر مختلف ، ولكن يديهما كانتا تلتفتان من حين إلى حين فيضغط كل منهما على يد الآخر ضغطاً لطيفاً يتكهرب له الجسدان . وظلا كذلك حتى انتصف الليل فارتعش الاثنان إذ كان هذا الموعد موعد فراقهما كل ليلة ، منذ أذن والد ليونور لروланд بزيارة منزله .

فنهض رولاند يحاول الذهاب فقالت له ليونور : بضع دقائق أيضاً يا رولاند ! قال : كلا أيتها الحبيبة ، فلقد اتفقت مع أبيك النبيل على أن أجعل حد زيارتي انتصاف الليل في كل ليلة إلى أن يأتي ذلك اليوم الذي لا يكون فيه لاجتماعنا موعد ولا حد !

فتنهت ليونور وقالت : إذن إلى اللقاء غداً أيها الحبيب ! وهل يأتي هذا الغد ؟

- إنه يأتي يا ليونور ، وغداً نلبس خاتم الخطبة في منزل أبيك أمام نبلاء فينيسيا . وبعد أسبوع نربط بتلك الصلة التي تجمع بيننا إلى الأبد . فاذهي أيتها الحبيبة ونامي بسلام فإن حي يوعاك كما ترعى هذا الكوكب نجوم السماء .

- تكلم أيضاً يا رولاند !

- نامي حالاً أيتها العزيزة وسأقتدي بك فنلتقي بالأحلام !

- ما أجمل هذا الصوت وما أشد وقوعه في قلبي يا خطيبي العزيز . إنني أشعر كل ليلة بانقباض في مثل هذه الساعة ، ساعة الفراق ! ولكنني أشعر هذه الليلة بانقباض شديد وقد كثرت في نفسي الهواجس حتى لقد خيل لي أن السماء تحسد الأرض علينا وأن الشقاء يخيم على حينا . فابتسم رولاند وقال : لا تخشي يا ليونور واعتمدي على زوجك فتزول هذه الهواجس .

- لله ما أعذب هذه الكلمة يا رولاند ، فهذه أول مرة سمعتك تقولها فأسكرتني !

وكنا يتكلمان وهما يسيران حتى وصلا إلى باب الحديقة فوقفا وجعل كل منهما ينظر إلى الآخر وهما لا يعلمان ماذا يقولان ، إلى أن مدّت يدهما المرتجفة واجتمعت الشفاه وتبادلا تلك القبلة الأولى التي أسكر وصفها الشعراء .

وأفلتت ليونور من يد رولاند وعلى شفيتها المرتعشتين آثار القبلة الشبية التي يعرف طعمها أهل فينيسيا وكلهم شعراء ورسامون مرهفو الحس والذوق .

وعند ذلك انقطع البلبل عن التعرید فوق الأرزة الكبرى فيما ظلت ليونور تجري إلى بيتها مسرعة وعلى شفيتها تأثير القبلة التي حرمتها الرقاد في تلك الليلة . أما رولاند فإنه أقفل باب الحديقة وانصرف يسير ببطء إلى القارب الذي كان ينتظره . وبينما هو يسير سمع صوت استغاثة يترق حجاب السكون ويقول :

- إلى... إلىهم يقتلونني... إلى ! إلى !

ملكة المحظيات

*

كان رولاند يسير وقد أصابه من تلك القبلة الأولى نفس ما أصاب خطيبته فخيّل له أنه في عالم غير هذا العالم . فلما سمع صوت الاستغاثة اهتز وانتبه انتباه من يوقظ من رقاد فالتفت إلى جهة الصوت فرأى قوماً يتخاصمون ويتنازعون ، فجرد سيفه الطويل وصاح بذلك المستغيث قائلًا : تشجع فقد أتيت

لمجدتك . ولم يكن غير هنيهة حتى وصل اليهم فرأى امرأة
جائبة على ركبتيها وسبعة أو ثمانية رجال ينهبون حليها وهي
لا تزال تصيح وتستغيث ، حتى إذا رأت ذلك الرجل قادماً
لنجدتها سقطت منسياً عليها كأنها بذلت كل ما تطيقه من الجهد .

أما رولاند فإنه صاح بهم قائلاً : إلى الوراها أيها اللصوص !
فالتفت أولئك اللصوص إليه والحناجر مجردة بأيديهم وجعلوا
يزأرون ويزمجرون كأنهم ينتظرون أوامر زعيمهم للفتك به وقد
أحاطوا به من كل جانب . وكان ذلك الزعيم هائل الجثة قوي
العصل ، فتوهجت عيناه وصاح بصوت يتهدج من الغضب :

- إرجع أنت أو لا يكون نصيبك غير الموت .

وعند ذلك برز القمر من وراء غيمة وتبينت الوجوه فصاح
جميع أولئك اللصوص بصوت جمع بين الذعر والاضطراب ،
قائلين : إنه رولاند كاندريانو ... إنه رولاند ابن الدوج .
أسرعوا إلى الفرار .

وتسابق الجميع إلى الهرب ما خلا زعيمهم فإنه دنا من
رولاند وقال له : أنت الذي يدعونه رولاند ؟ حسناً ، فأنا
أدعى سكالابرينو .

كان سكالابرينو هذا من أشد زعماء اللصوص شهرة وقد
أدهش أهل فينيسيا بجرأته في حادثة جرت له عام ١٥٠٤ أي
منذ بضعة أعوام . وذلك أنه في منتصف شهر آب من ذلك العام

كانت فينيسيا تحتفل بتزويج اثني عشرة عذراء على نفقة
الجمهورية حسب العادة في كل عام . وكان من تقاليدهم أنهم
يلبسون كل عذراء عقداً من اللؤلؤ وغيره من الجواهر الثمينة
التي تحفظ في خزينة الجمهورية فلا يخرجونها إلا مرة كل عام في
مثل تلك الحفلة . فأتى سكالابرينو بخمسين رجلاً من عصابته
إلى ساحة سان مارك التي تجري فيها الحفلة ، فلما خرج العذارى
من الكنيسة وعليهن تلك الحلى هجم برجاله عليهن فدافع الناس
عنهن دفاعاً حسناً ، غير أن سكالابرينو ورجاله تمكنوا من
حل العذارى إلى القوارب وساروا بهن إلى عرض البحر فتواروا
عن الأنظار قبل أن يستطيع رجال الشرطة اقتفاهن أوهم .

وبعد ثمانية أيام أُرجم سكالابرينو العذارى إلى فينيسيا
دون أن يمسن أحد بسوء ، ولكنه سلبهن عقود اللؤلؤ وما كان
عليهن من الحلى .

فلما سمع رولاند اسم «سكالابرينو» أعمد حسامه باستهزاء
كأنه يريد بذلك أن يخبره بأن الحسام لا يجرّد بوجه اللصوص !
وعند ذلك انقضّ سكالابرينو عليه وخنجره بيده . ولكنه
لم يكده هجم عليه حتى سقط إلى الأرض طائشاً ، وذلك أن
رولاند لطمه لكمة هائلة على وجهه أضاعت رشده وسقط الخنجر
من يده .

غير أنه أسرع إلى النهوض وانقضّ ثانية على رولاند فجرت
بينهما معركة شديدة دامت أكثر من دقيقة إلى أن تغلب رولاند

عليه وألقاه الى الأرض ور كع فوق صدره وجرد خنجره يحاول قتله حسب عادات ذلك الزمان ، فقد كانت حياة المغلوب ملك الغالب .

أما سكالابرينو فلم يظهر عليه شيء من علامات الخوف ، بل إنه رفع يديه وقال له : إنك أقوى مني فاقتلني . فنهض رولاند عنه لفقوره وأغمد خنجره ثم قال له : إني أعفو عنك لأنك لم تخف .

فوقف سكالابرينو وقد أثر عليه هذا العفو خير تأثير ، فانحنى أمام رولاند وقال : مولاي ، إني سأخبرك بالحقيقة . قال : اذهب فقد عفوت عنك .

— مولاي ...

— قلت لك اذهب .

فنظر سكالابرينو الى رولاند نظرة حنو وإشفاق ثم انصرف مسرعاً وتوارى عن الأنظار .

عند ذلك أقبل رولاند الى تلك المرأة وصورة ليونور لا تزال تملأ خياله وقلبه ، ولكنه كان من أهل فينيسيا الذين يقدرون الجمل على إطلاقه ، فتمتمن في وجهها طويلاً وأعجب بحماتها الفان وطلعتها الساحرة . وعند ذاك فتحت تلك المرأة عينها ورأت أمامها رولاند ، فارتجفت واحمر وجهها بعد الاصفرار . فأنهضها وتوكلت عليه وهي تنظر الى ما سألها نظرة الحائف كأنها تخشى عودة اللصوص . فقال لها رولاند :

— إطمئني يا سيدتي ، فإن أولئك اللصوص لا يحسرون أن يهاجموك بعد الآن .

فنظرت اليه نظرة مملؤها الإعجاب وقالت له بصوت حنون :

— أهذا أنت ؟ إني أعتبر نفسي نجوت مرتين إذا كنت أنت منقذي .

ثم أخذت بيده وطوقت عنقه وهي تقول :

— إني خائفة ... أتوسل اليك أن توصلني الى منزلي وإنك لا ترفض دون شك .

قال : سيدتي ، إني ادعى رولاند كانديانو . فإذا أبيت حمايتك كنت غير جدير بأن أسمى بهذا الاسم ، ومثل هذه الحماية لا يأبأها فينيسي شريف . قالت : أشكرك ألف شكر .

وجذبتة وسارت به إلى شاطئ الترعة وهناك قارب جميل كان ينتظره ، فركبت وإياه . وسار بها القارب وكلاهما ساكت . أما رولاند فكان يفكر بل يحلم بذلك اليوم الذي ينتظره وهو يوم الغد حيث تقدم له ليونور أمام نبلاء فينيسيا خاتم الخطبة . وأما هي ، أي المحظية أمباريا ، فإنها لم تكن تفتكر إلا بتلك الساعة التي تخلو فيها برولاند ، فإن ذلك أقصى ما كانت تتمناه في هذا الوجود .

وكانت أمباريا هذه أشهر محظية رومانية جاء بها الى فينيسيا
أشهر رجالها ثروة وأشدتم نفوذاً في مجلس العشرة وهو دافيليا .
وقد كانت على جمال نادر تفوق به على جمال لوكريس بورجيا كما
يقول الشعراء .

وكان أهل روما يفاخرون الشعوب بمجالها الفتان حتى أنها
عند سفرها من روما تصبوا لها تمثالاً^{١١} في إحدى المحلات
العمومية كما كانوا ينصبون التماثيل للآلهة .

هذا ما كانت عليه أمباريا من الشهرة والجمال . ولم يكن
رولاند يعرفها إلا باسمها لفرط اشتهاره . غير أنه حين وقف
القارب أمام قصرها الفخم وحين رأى عشرين خادماً يتسارعون
إلى استقبالها ، وحين رأى أعمدة ذلك القصر وتماثيله البديعة ،
علم أنه لم ينقذ غير تلك المحظية وأنه واقف الآن عند قصرها
الشهير .

وعند ذلك حاول أن يتراجع ، ولكن أمباريا أمسكت
بيده وقالت له بلهجة المتوسل : أبلغ بكرمك يا سيدي حد
النهاية وشرف منزلي بحضورك ، أو أعتقد أنك ما أنقذتني إلا
لتهينني !

فلم يجهد رولاند بدأ من الدخول . ودخلت به أمباريا

١ - بقي هذا التمثال منصوباً الى نهاية القرن الثامن عشر ، وقد كتبوا
عليه : « هذا تمثال أمباريا المحظية الرومانية التي لم تقع العيون على أجمل منها » .

فاجتازت فسحة رحبية من الرخام ثم صعدت به سلماً ووضعت على
كل درجة من درجاته آنية بديعة للأزهار النادرة . حتى إذا
انتهت من ذلك السلم مرت بضع قاعات تدهش الأنظار بمجال
فرشها ، فرأى رولاند أن كل ما في هذا القصر يدل على التناهي
بسلامة الذوق .

ودخلت به أمباريا إلى قاعة انتشرت فيها الأزهار وعبقت
روائحها وقرشت أرضها بالبسط الهندية وعلقت في جدرانها
رسوم من صنع مشاهير المصورين لا يوجد مثلها في بيوت الملوك .
أما إطارات مرآتها فقد كانت من الذهب الخالص . وعلى الجملة
فإن دافيليا عاشق هذه المحظية قد أنفق على هذا القصر نصف
ثروته .

أما رولاند فإنه لبث واقفاً وقد شعرت أمباريا بأنه يحاول
الإنصراف ، فأطلقت سراح خادماتها بإشارة وقالت له بصوت
بضطرب : ألا تفضل بالجلوس يا سيدي ؟ قال : إنك أصبحت
الآن آمنة في منزلك ، فإذا لبثت بحضرتك طويلاً ذهبت فائدة
تلك الخدمة التي قمت بها ، وأكون قد خدمت نفسي . قالت :
كيف تقول ذلك يا سيدي ؟ أعلئك تريد أن تقرأ في عيني ما
يحول في قلبي الضعيف !

فأدرك رولاند أنها ستقول أقوالاً لا سبيل الى انتقامها ،
وقال : إنني إذا التمسيت أن تأذني لي بالانصراف يا سيدي فإني
ألتبس أيضاً أن تعتقدي بأن هذا اللقاء كان داعياً الى إعجابي بما

لقيته من شجاعتك في مواقف الخطر وإلى امتناني لما لقيته عندك
من حسن الضيافة .

فتصدت أمباريا في سبيله وهي ترتعش وقالت له بصوت
مخنق ونبرات دلت على ما يجول في نفسها المضطربة : رولاند
الأتري إذن أنني احبك ؟ ألا ترى أنني أعرض عليك كل ما
حواه قلبي من الخنو ؟ ألم ترني منذ ثلاثة أشهر أفتني أنك
وأمشي معك كما يمشي ظلك ؟
- سيدتي ... هدئي روعك .

- ألم تعلم لماذا برحت روما وتركت فيها قصوري الثلاثة ،
وشعرائي ، وجميع ذلك الشعب الذي كان يعبدني ؟ أتعلم لماذا
غادرت ذلك النعم وأتيت إلى فينيسيا مع جان دافيليا ؟ ذلك
أنني رأيتك في العام الماضي حين بعثتك فينيسيا سفيراً إلى البابا .
ثم أتعلم لماذا بنيت هذا القصر على شاطئ القاعة الكبرى ؟ ذلك
لأنني أستطيع من شرفاته أن أرى القارب الذي يمر بك كل يوم .
ثم أتعلم لماذا أنفقت الملايين على ريش هذا القصر وتزيينه ؟ ذلك
لأجعله هيكل غرامنا . رولاند ... رولاند ... ما هذا
الاستقرار الذي يبدر من نظراتك ؟ إنك تكاد تقتلني بها .
فأجابها رولاند برفق قائلًا : إنني لا أحترقك ، ولكنني أشفق
عليك . فهاج تأزرها وقالت :

- أشفق عليّ ؟ كلا ، إنني أؤثر احتقارك . ولكن لا ...
أشفق عليّ فإنني أحمل على الإشفاق إذ لم يُصبَّ بشر بمثل ما

أصبحت به من هذا الحب القاتل . نعم أشفق عليّ فإن الحب
يعذبني والغيرة تقطع قلبي ولا سباً حيناً أفكر بهذه الفتاة
ليونور التي ...

فصاح بها رولاند قائلاً : أيتها الشقية ...

وقد اصفر وجهه ورفع يده كأنه يريد أن يسحق بها ذلك القم
الذي تجاسر على التجديف بعموده . غير أن يده قد سقطت إذ
عاد إليه رشده لفوره وعلم أنه لا يجدر به ضرب امرأة . وخرج
فجأة بعد أن ودعها بصوت مخنق ، فكادت أمباريا تجنُّ
ليأسها بعد ما لقيته من احتقار رولاند ، فانطرحت على مقعد
وجملت تعضُّ مخدة كانت عليه كي تمنع صدرها من الانفجار .

وفيا هي على ذلك نظرت عرضاً قرأت أمامها رجلاً مكتف
اليدين وقد وقف بين مصراعي الباب ينظر إليها . كان هذا
الرجل بناهز الأربعين من العمر وهو جميل الوجه طويل القامة
وقد تقلد حساماً رصمت قبضته بالحجارة الكريمة . فوثبت
أمباريا من موقفها وقالت : جان دافيليا !

ثم مشت إليه وقالت له بصوت يرتجف :

- أرايت ؟

- نعم .

- أسمعته ؟

- كل شيء .

فضحكت ضحكاً كثيراً ولم تجب بشيء . أما دافيليا فإنه قال لها بلهجة خطيرة :

- إنك ستموتين فتأهبي الموت . ألم تقولي إنك لم تصحي جان دافيليا إلى فينيسيا إلا لكي تجدي رولاند كانديانو فيها ؟ وبع لي ولهذا القدر الذي عبث بي ! أسفك أجدادي دعاهم في سبيل أوطانهم ويقتحمون الموت ويحضرون مائة معركة فيكتب اسمهم بحروف من الذهب في سجل الجمهورية ، ثم يكون آخر أبنائهم لعبة لعبت بها محظية غانية وتجمعه هزءاً لدى أهل بلاده ؟ أأكون أنا آخر أبناء أولئك الأبطال ولا هم لي إلا أن أزع عنك لباس المسار وألبسك ثوب مجدنا القديم وأجعلك من النبيلات بين قومي ، فتجازيني بما فعلت كي تقضي مرام نفسك السافرة ؟ ثم أنفق عليك أموالي الذي جمعها أجدادي كي تبني قصرأ تجعلينه هيكلأ لمن تحبين ؟

كانت أمباريا تسمع كلامه وهي غير مكترثة لما يقول حتى إذا انتهى إلى كلمة الهيكل قاطعته قائلة :

- أتحسب أن هذا الهيكل مجازي ؟ تعال وانظر . ثم خرجت من تلك القاعة مسرعة وقد تبعها دافيليا ، ففتحت باباً سرياً ودخلت منه إلى غرفة صغيرة لم يكن فيها شيء من الأثاث سوى هيكل من الرخام وُشي بالذهب وعليه الشموع الموقدة . وفوق هذا الهيكل إطار كبير من الذهب المرصع باليواقيت ،

وفي وسط هذا الإطار صورة رولاند كانديانو من صنع أحد أولئك المصورين الذين أدهشوا العالم بهذا الفن الجميل .

فلما وصلت أمباريا إلى هذا الهيكل ركعت عند درجاته كما يركع المتعبدون عند هيكل الله . أما دافيليا فقد طاش رأسه لما رآه ، فجرد خنجره وهجم عليها وهو يقول : اهبطي إلى جهنم أيتها الأفعى فهناك تلقين معبودك ، وسأدفع جثتك إلى الجلال فيشوتها قبل أن أجعلها طعاماً للأسماك .

وعند ذلك رفع يده ولكنها انقضت عليه بسرعة الصاعقة فقبضت على يده وعضتها بقوة ضاعفها اليأس فسقط الخنجر من يده فأسرعت إلى النقاطة وأخذته في صدر ذلك المنكود فسقط صريعاً تحت ذلك الهيكل دون أن يتفوه بحرف . أما أمباريا فإنها بعد أن طعنته تلك الطعنة النجلاء وقفت تتمعن بذلك الجسم الصريع ثم تراجعت إلى الباب .

وعند ذلك شعرت بيد قد وضعت على كتفها فالتفت منذرة وهي متأهبة لارتكاب جريمة ثانية ، فرأت رجلاً يتسم لها ابتسام الأبالسة .

*

وامه وقال : إني أتيتكم بقصيدة في الخطيبين لم يذبح الشعراء على منوالها بعد .

وكان جميع الذين حضروا الحفلة جاؤوا إليها بالملابس الرسمية ولكن من غريب أمرهم أنهم كانوا يتقلدون سيوفهم وقد تسربلوا بدروع أخفوها تحت ملابسهم حتى أن النساء على ابتسامهن الدائم كانت تبدو عليهن علائم الرعب ، ذلك أنها انتشرت إشاعة مألها أن الشعب سيثور خلال هذه الحفلة ولم يعلم أحد مصدر هذه الإشاعة .

أما ليونور ورولان فقد كانا جالسين في القاعة الكبرى وقد أشرق وجهاهما بنور البشر فكانا يتسلمان للمهنيين وقد شغلا بقرامها عن الانتباه إلى اضطراب الناس .

وكان دندولو ، والد ليونور ، هو أول من كتب تاريخ فينيسيا من النبلاء ، واقفاً بقرب بنته وقد بدا اضطراب نفسه في عيونه بأشد ما بدا في عيون الناس .

وعند ذلك قدم ألتباري الذي تقدم لنا وصفه في الفصل السابق فصاح رولاند وقال له بلهجة تكلف فيها الإخلاص

= وشويعراً أر نصف شاعر ، كما يقول الأفرنج ، ثم ارتقى بدهائه وثقافته إلى أن صار كروبناناً . وقد عرفوا بعد وفاته على كثير من الرسائل الغرامية أشهرها عشر رسائل كتبها إلى لوكريسيا بوجيا وبعض قصائد تعد من سقط الناع .

الخطبة

*

في الساعة التاسعة من مساء اليوم التالي كانت سراي الدوج ، والد رولاند ، مزينة أعظم زينة احتفالاً بمقد خطبة رولاند على ليونور . وكان أهل فينيسيا قد خرجوا في تلك الليلة أيضاً من منازلهم كما فعلوا في الليلة السابقة ولكنهم لم يكونوا فرحين كما كانوا في تلك الليلة بل إنهم كانوا يتكلمون همساً وقد بدت عليهم علائم الإضطراب . ثم تماوجوا فجأة كما يتماوج الأوقيانوس ساعة العاصفة دون أن تعرف حقيقة أسباب هذا الهياج .

وكان الدوج نفسه واقفاً في سلم قاعات الاستقبال الكبرى يستقبل وفود الناس وهو بملابسه الحربية العسكرية ويتلقاهم بها فطر عليه من الأنس والبشاشة ، وبقربه زوجته الدوجة سيلفا وهي تبسم للقادمين ولكنها تتمعن في وجه كل قادم منهم كأنها تريد أن تقرأ في نفوسهم ما يحول فيها من الأفكار بشأن هناء ولدها أو شقائه .

وقد كان أول القادمين إلى هذه الحفلة ببو^(١) فهناً والد رولاند

١ - كان ببو في أول حوادث هذه الرواية كاتباً بسيطاً وراهباً عادياً =

الشديد : أهنتك يا رولاند وأرجو لك أرغد عيش . فأجابه رولاند قائلاً : أشكرك أيها الصديق وأتفاءل بدعائك خير قال فإن دعاء المخلصين مستجاب .

وجاء في أثره بمبو فقال له رولاند : أهذا أنت أيضاً أيها الصديق ؟ إني أشكرك وأنتي على شرك . فالتفت بمبو وشكره لثنائه ثم تظاهر بالإندھال وقال : كيف جلست يا سيدي في هذا الوضع في مثل هذه الحفلة المباركة؟ ألم ترّ ما وراء الكرسي؟ فالتفت رولاند إلى الجدار وراء كرسيه والتفتت ليونور منذرة ، وكان قد علق على هذا الجدار رسوم حكام فينيسيا فاتفق جلوس الخطيبين وراء صورة الدوج مارينو فلورينا وقد كتب تحتها :

« هذا رسم الدوج مارينو الذي قطع رأسه لأقامه » .

وقبل أن يقرأ الخطيبان هذه الكتابة كان بمبو قد توارى بين الجماهير فاصفرّ وجه ليونور وقالت بصوت يضطرب : ربه ، ما هذا الاتفاق فلقد تشاءمت منه ! قال : لا تجزعي أيتها الحبيبة فإن بمبو لا يريد غير المزاح وتأمي للساعة المباركة فهوذا أبي وامي يدنوان منا لعقد الخطبة .

*

وفي تلك الساعة أقبل عدد عظيم من الحراس ووقفوا وهم

مسلحون عند جميع الأبواب فساد السكون في تلك القاعة الكبرى ثم تقدم رجل يتبعه جنديان فدنا من رولاند وقال :

— أنا فوسكاري رئيس المفتشين في مجلس العشرة أصرح بأنه يوجد هنا خائن متمرد متأمر أتيت كي أقبض عليه لسلامة الجمهورية .

فاضطرب الناس هذه الشكوى وغضب والد رولاند غضباً شديداً فالتفت إلى فوسكاري وقال :

— أتحمد مثل هذه الفضيحة في مثل هذه الحفلة وفي سراي الدوج ؟ إن هذا لعظيم يا فوسكاري ، ومها يكن من أمر هذا المتهم فهو ضيفي . وقسماً بمسامير الصليب الدامية إني لا أدع الناس يقولون بأن كانديانو أخلاً بشروط الضيافة .

فأجال فوسكاري نظراً هادئاً بين الدوج وسائر الحاضرين وقال :

— يا سيدي الدوج وبا جميع الحاضرين ، إعلموا أنه منذ ستة أعوام ومشي إنيّ بالأسقف بيزاني في ساعة أشد خطورة من هذه الساعة وكان البحارة على وشك الثورة فلو ترددت ساعة لثار قائمهم . وكان ذلك اليوم يوم عيد عظيم والساعة ساعة الصلاة الكبرى ، فذهبت إلى كنيسة سانت مارك ومشيت إلى الهيكل حين كان الأسقف يبارك الشعب فانتزعت من الهيكل وهو ساعته في ضيافة الله وقبضت عليه كما تعلمون .

فاضطرب جميع الحاضرين حتى ألتباري فقد اصفرّ وجهه ما
خلا بعبو فقد كان يراقب هذه الحادثة بملء السكينة وقد دنا
من ألتباري وهمس في أذنه بعض كلمات . وعاد فوسكاري إلى
الحديث فقال : إذن فاعلم يا سيدي الدوج أن ما فعلته في بيت
الله يجوز أن أفعله في بيتك لاسيما وان منصبك يقضي عليك
بالمحافظة على تأييد النظام .

فنظر الدوج إلى ما حو اليه فرأى نحو ألفين من الدعوين إلى
هذه الحفلة وقد أطرقوا برؤوسهم وكلهم يتوقعون قرب انقضاء
الصاعقة . وسمع قعقة السلاح من الخارج فشعر بعجزه عن
المقاومة وسأل فوسكاري بصوت محتق قائلاً : من هو هذا
المتهم ؟

فأجابه فوسكاري قائلاً : رولاند كانديانو !

فصاحت ام رولاند وخطيبته صيحتين منكرتين وأسرعتا
إلى الوقوف بين فوسكاري وبين رولاند ولسان حالهما يقول :
تعالوا انتزعوه منا إذا كنتم تجسرون .

وكذلك الدوج فإنه صاح صيحة تشبه الأنين وقال : ولدي .
تقول إن ولدي يؤامر ويجنون ؟

- إن الوشاية صريحة يا سيدي الدوج .

- ولكنها كذب ونفاق .

ثم انتزع التاج عن رأسه فألقاه إلى الأرض وقال : لا أدعكم
تذهبون بولدي إلا متى استحال ذهب هذا التاج إلى أغلال من
الحديد . وهاج الحضور هياجاً عظيماً ، وجرّد الدوج حسامه
الطويل ، فدنا ألتباري من رولاند وقال له :

- إعلم أيها الصديق أن أعداء أبيك قد فعلوا هذه الفعلة
المنكرة كي يحملوه على اليأس وإتيان أمر يعود عليه بالسقوط
فسلمت نفسك يا رولاند وأنا أضمن لك السلامة وإنهاء هذه
المشكلة بعد ساعة على خير .

فأقر كلامه على رولاند وعلى امه وخطيبته لما يعلمونه من
نفوذ ألتباري في مجلس العشرة ولصداقته مع رولاند . فصافحه
رولاند شاكراً وقال له : إن تنبّهك وبعد نظرك قد أنقذا أبي
فلا أنسى جميلك وسيكون بيني وبينك عهد إخوان أبدي .

ثم تركه وسار مسرعاً إلى أبيه وهو قد امتشق حسامه
ليدافع به عن ولده ويدعو الناس إلى نصرته . فلما رآه أبوه
قادماً إليه استحال غضبه إلى يأس ففتح ذراعيه وضمه إلى صدره
بينما كان فوسكاري ينظر إلى رولاند بملء السكينة وبينما كان
اولئك المدعوون مطرقي الرؤوس خجلاً لإحجامهم عن مساعدة
الدوج . وجعل رولاند يكلم أباه همساً فلم يعلم أحد ما كان
يقول ، حتى إذا فرغ من حديثه التفت الدوج إلى فوسكاري
وقال له :

- إن ولدي بريء وهو يريد أن تظهر برأته أمام المجلس ،
فقم بواجبك كما تقوم نحن بواجباتنا وليتئم المجلس في الحال .
قال فوسكاري : إن المجلس ينتظر . فارتعش الدوج وقد
علم أن كل شيء قد تهيأ من قبل لهامكة ولده ، فمن الذي أراد أن
يضربه هذه الضربة القاضية ؟

وعند ذلك نظر إلى المحيطين به نظرة هائلة دلت على مبلغ
يأسه وقال : الويل لذلك الواشي السافل فسأجث عنه وسأظفر به
ولا ينجو من انتقامي . ثم التفت إلى ولده وقال له بصوت
مرتفع :

- سر يا بني فقد طلبت إليّ أن أنتظر ساعة وسأنتظر
ساعة كما سألت .
فقال رولاند لفوسكاري :

- هوذا حسامي يا فوسكاري أودعك إياه وأنا مستعد للمشول
أمام المحكمة . فأشار رئيس المفتشين فأقبل أننا عشر جندياً ودنا
قائدهم منه وحاول أن يقبض على رولاند ، ولكنه لم يمد إليه يده
للقبض عليه حتى صغفه صغفة ألقته على الأرض .

فاضطرب جميع الحاضرين ونهض القائدهم دون أن يفوه
بكلمة ، فالتفت رولاند إلى فوسكاري وقال له :

لنتفق يا حضرة المفتش كي لا يكون بيننا سوء تفاهم ، فإني

غير ذاهب إلى المجلس الأعلى إلا بمحض إرادتي ، فأصدر أمرك
إلى جنودك بالابتعاد عني وعجل بإصدار هذا الأمر .

فنظر فوسكاري إلى رولاند نظرة الفاسح فرآه جديراً
بمقاومة فرقة وأنه قد يثير المدينة بأسرها فلم يجد بداً من التساهل
وقال له : حسناً ، ولكن ما تريد فتفضل واتبعني ، قال : بل
إني أتقدمك .

ونادته خطيبته قائلة : رولاند ... فالتفت رولاند فرأى
خطيبته صفراء الوجه وهي متوكئة على كتف أمه كي لا تسقط ،
ورأى الحب الصادق يتألق في عينيها . ثم رأى أمه وقد تجهم
وجهاً باليأس وأنه لم يبق لها من دلائل الحياة غير اضطراب
شفتيها . ورأى أباه يحيط به النبلاء وهم سكوت وجوم .

وعند ذلك نادته ليونور أيضاً قائلة : رولاند ! فبذل جهداً
عنيفاً كي لا يثنى عن عزمه وذكر ما قاله ألتباري فخشي على
أبيه وأجاب خطيبته قائلاً :

- ساعة واحدة يا ليونور ... ساعة واحدة يا أبي ويا أمي .
ثم سار إلى جهة الباب أمام الجنود يتبعه فوسكاري في
مقدمة جنده !

مجلس العشرة

*

كانت قاعة مجلس العشرة ملاصقة لقاعة المفتشين . وكان

رجال هاتين القاعتين يتهددون الحكام والحكام يتهددونهم بحيث كانت هذه المجالس تشبه الكلايب ، فإذا كانت القوة في جانب الحاكم قبض بهذه الكلايب على رقاب المجلس ، وإذا فاز المجلس عليه قبض بها على رقاب الحاكم وأمثاله من التبله .

فلما دخل فوسكارى إلى قاعة مجلس العشرة جلس على كرسي بإزاء عشرة كراسي كان أعضاؤها جالسين عليها ما خلا كرسيًا كان خاليًا وهو كرسي دافيليا الذي طعنته أمباريا بخنجرها كما تقدم في الفصل السابق .

وقد دخل فوسكارى وحده دون أن يكون معه رولاند وهو سر من أسرار التفتيش الهائلة في ذلك العهد التي لا بد لنا من كشفها قريباً لنقفو أثر خطيب ليونور .

أما الأعضاء التسعة الباقون الذين يتألف منهم هذا المجلس السرى فقد كانوا في مجالسهم وقد جلسوا على كراسيهم وعلائم العسف بادية على وجوههم ولكنهم لا يأتون بأية حركة كأنهم تماثيل .

فوقف فوسكارى وقال لهم : إنكم تعرفون أيها السادة منذ عهد بعيد تلك الدهاليز التي يجب أن نقود إليها رولاند كانديانو .

فأشار أكثر الأعضاء برؤوسهم إشارة مصادقة فقال : لقد ظهرت اليوم خيانة رولاند ظهور الشمس بما كان يظهره الشعب حوالى قصره من الاعتراض علينا والتشيع له ، أليس كذلك ؟ فصادق بعض الأعضاء هذه المرة دون بعض فقال فوسكارى :

إن رولاند كانديانو أيها السادة قد أثار البحارة وأهاج الشعب ، فإذا لم نسرع في تنفيذ مقاصدنا بلغ منا ما يريد .
فقال أحد رجال المجلس : لنقترع . فأجابه أحدهم : ولكننا لا نستطيع الاقتراع ، فإن واحداً من الأعضاء لم يحضر وهو دافيليا .

فابتسم فوسكارى وقال : إنكم ستعلمون السبب في غياب هذا العضو . ولكن قبل أن أخبركم عن السبب في غياب دافيليا ... فقاطعه أحدهم قائلاً :

- أظن أن السبب في غيابه كونه من أصدقاء رولاند .

قال : قبل أن نبحث في شأن دافيليا يجب أن ننتهي من تقرير المعاملات الرسمية التي يجب أن نعامل بها رولاند .

وعند ذلك نهض عن كرسيه وذهب إلى باب يقابل الباب الذي دخل منه ففتحه فأنكشف عن قاعة الشهود . على أنه لم يكن ثمة شهود ولكن النظام كان يقضي بإعداد هذه القاعة . وقد وقف في بابها عندما فتحها وصاح بأعلى صوته قائلاً :

- ليدخل إلى هنا الذي وشى برولاند كانديانو ويبسط أقواله لدى المجلس حسب ما يوحى إليه الضمير والذمة .

قال هذا القول وصبر هنيهة ثم عاد إلى مجلسه . فلما جلس على كرسيه رأى ملامح الذهول قد ارتسمت على وجوه القضاة وأنهم ينظرون إلى باب الشهود ، فالتفت ودهش نفس دهشتهم ... ذلك أنه رأى امرأة واقفة بين مصراعي ذلك الباب ، وأن تلك المرأة كانت المحظية أمباريا .

أما أمباريا فإنها دخلت وهي خافقة الصدر مضطربة الأعضاء
لتنازع العوامل في فؤادها، فاصفر وجه ألتباري ودهش القضاة
لهذه الزيارة التي لم يكونوا يتوقعونها . وعند ذلك قال لها
فوسكارى :

— أهو أنت التي وشيت برولاند كانديانو؟ قالت : نعم .
قال : إذن تكلمي وقولي ما رأته عينك وسمعته أذناك
دون خوف .

وقال أحد الأعضاء وهو الذي أشار إلى صداقة رولاند
ودافيليا: تكلمي بحرية يا سيدتي ولكن تعني فيما ستقولينه قبل
أن تقوليه واعلمي أن كلمة منك قد تؤدي إلى قتل رولاند .
فوافق أكثر الأعضاء على قوله وارتعشت أمباريا وزاد
اصفرار وجهها فوضعت يدها على صدرها كأنها تريد تسكين
خفقانه فقد كانت تلك العاصفة الثائرة في قلبها هائلة وذلك أنها
قضت ليلها ونهارها على أحر من جمر الغضا وعلمت كل ما جرى
في قصر الدوج ساعة الاحتفال بعقد الخطبة فخرجت من منزلها
وهي شبه مجنونة لا تعلم ماذا تفعل . وهي لا تعلم كذلك إذا كان
يجبها إلى مجلس التفتيش بسبب حبها الشديد لرولاند أو بسبب
غيرتها العمياء عليه .

ورنست في أذنها كلمات ذلك القاضي حين قال لها : « إن
كلمة منك قد تؤدي إلى قتل رولاند » . فارتجفت أعصابها
وقالت في نفسها :

— ويل لي مما صنعت ! أيسقط مثل هذا الرأس الجميل تحت

سيف الجلال وأكون أنا الساعية في قتل رجل يحييني بابتسامة ؟!
وهاج تأوها في تلك اللحظة على أولئك القضاة حين خطر
لها أنهم سيحكمون عليه بالإعدام فقالت في نفسها : كلا إن ذلك
هائل مخيف ، ويجب أن أشي بنفسي وأروي لأولئك القضاة
حقيقة ما جرى بيني وبين بيو وألتباري ، ذنبك الشقيين الذين
اغتنموا فرصة هياج غيرتي فحملاني على الوشاية برولاند ... نعم ،
لا بد لي من إنقاذه ولو أودى ذلك بحياتي .

أما فوسكارى فقد عيل صبره لسكوته فقال لها : ولكن
تكلمي يا سيدتي فإننا ننتظر . وكاد ألتباري يمين من رعبه فقد
كان يراقب أمباريا وقد قرأ في عينها ما ينبغي بعزمها على
إنقاذ رولاند .

وأما أمباريا فإنها رفعت رأسها وارتجفت شفتاها وضبطت
عنان نفسها فقالت :

— إني سأخبركم بالحقيقة . نعم سأقول لكم الحقيقة يجملتها
مها كانت هائلة !

فسقط ألتباري على كرسيه واهي القوى كأنه أصيب بضربة
شديدة على رأسه . واندفعت أمباريا في الحديث فقالت : نعم
إنكم ستقفون على الحقيقة يجملتها فاسمعوا ...

وعند ذلك فتح باب القاعة فجأة وظهرت منه ليونور فوقف
الكلام بين شفتي أمباريا ونظرت إلى ليونور نظرات غريبة
تشف عن كره لا تصفه الأقلام . أما فوسكارى فإنه استاء
لدخول الفتاة دون استئذان فقال :

— من يحسر على الدخول ؟

فأسرعت ليونور حتى وصلت إلى وسط القاعة وقالت للقضاة بصوت يضطرب :

— أسألكم العفو أيها السادة فإنني قادمة للدفاع عنه وحاشاه أن يكون من المجرمين . وكانت الدموع تجول في عينيها فتزيد وجهها الجميل جمالا ، ويزيد هذا الجمال أمباريا غيرة وحقدآ ، فأثرت على القضاة خيرا تأثير . وتناولت رؤوسهم كي يسمعوها ما خلا ألتباري فإنه بقي في محله وقد طاش رأسه من الرعب والغيرة حتى خطر له أن ينتحر لفوره .

أما ليونور فإنها اندفعت في حديثها فقالت : بماذا تتهمونه وماذا صنع ؟ إنه كان يرجو أن يعود بعد ساعة وقد مضت الساعة دون أن يعود . أيها السادة ، إنني أرى بينكم من كان أصدق صديق له . وأنت يا سيدي ألتباري ، وأنت يا سيدي موسنجي ، إنه كان يحبكما أصدق حب وقد قاتل في سبيلكما ، وأنت يا سيدي كريمانني ، ألم تصعبه مرارا إلى منزل أبي ؟ وأنت يا سيدي موساني ، ألم ينقذ ولدك ؟ إنكم جميعكم من أصحابه كما أرى ، فكيف تصدقون التهمة فيه وأنتم تعرفونه حق العرفان ؟ بل كيف تراح نفوسكم إلى الحكم عليه ؟ وإنما أقول الحكم عليه لأنني أعلم يقينآ أنه لم يمثل أحد في مجلسكم وخرج حيا .

فقال لها فوسكاري : هدئي روعك يا سيدتي . قالت : دعني أقول ما أشاء فإنني ما أتيت إلا للدفاع عنه . وأنت أيها

السادة ، إذا أردتم أن تحكوا عليه وتنتزعه مني فانتزعوا قبل ذلك روحي من صدري لأنه روحي التي أحيأ بها . وإنكم تعجبون كأننا يجول في خواطر كم أن ابنة دندولو لا تعرف واجباتها ، فلا تعجبوا أيها السادة ، فإن أحد جدودي أنقذ الجمهورية وأنا أحاول إنقاذ زوجي ، فلا عجب من قدومي اليكم بل إن ذلك من حقي وإني أريد أن أعلم بماذا تتهمونه ومن هذا الذي يتهمه ؟

فقالت أمباريا : أنا . فنظرت ليونور إلى تلك المحظية وقد ذعرت لما سمعته منها فقالت لها : أنت يا سيدتي تتهمينه ومن أنت ؟

فلم تجبها أمباريا بل تقدمت من مجلس القضاة وقالت : أيها السادة ، إنهم يسألون من أنا . فاعلموا أنني أدعى أمباريا وأنني أمتن في فينيسيا نفس المهنة التي كنت أمتننها في روما وهي تجارة الجمال ، أي أنني محظية !

فهزت ليونور رأسها ولم يؤثر عليها أن تكون واقفة في مجلس واحد مع مثل هذه المرأة ولم تقهم من كل ما سمعته منها سوى أنها هي التي وشت بروناند .

وعادت أمباريا إلى الحديث فقالت : نعم أنا هي الواشية بروناند كلنديايو . وهنا ابتسمت ابتساما كادت تجن له ليونور وقالت لها : أهذا أنت ؟ أنت الواشية بروناند ؟ قالت : نعم يا سيدتي ، إنني أشكو رولاند بأنه يحاول قلب الحكومة الحاضرة بقتل رجال مجلس العشرة الواحد تلو الآخر .

وكانت التهمة شديدة هائلة وَاَجْتَمَعَتْ لها قلوب الأعضاء .
فاضطربت ليونور ومسحت العرق عن جبينها ثم قالت :
- لا تكفي الأقوال في مثل هذه التهم دون البراهين ، فهاتي
برهانك إن كنت صادقة . ثم التفتت الى القضاة وقالت :
- إنكم لا تصدقون هذه الأقوال دون شك ، فإنكم تعرفون
رولاند . فقالت أمباريا : أي برهان تريدون وأنا قد فاجأت
المؤامرة فرأيت بعيني وسمعت بأذني !
- سمعت ورأيت ؟ وأين كان ذلك ؟
- عندي ، في منزلي !

فهاج اليأس في صدر ليونور فوثبت الى أمباريا وقبضت على
يديها وقالت :

- أتقولين عندك ؟ أعمل رولاند أتى اليك ؟

- ولماذا تعجبين من ذلك يا سيدتي ؟ فإنه كان يأتي إلي كل
ليلة بعد انتصاف الليل .

فشعرت تلك الفتاة أن الدم قد جمد في عروقها وأن سحابة
كثيفة قد حجبت النور عن عينيها وأن قلبها يخرج من صدرها
فقالت لأمباريا بلهجة يرق لها قلب النمر المفترس : بربك يا
سيدتي لا تعبثي بيأسي وقولي الحقيقة . . قولي يا سيدتي إن
رولاند لم يكن يأتي الي عندك .

فأجابتها أمباريا ببرودة قائلة : لقد جرى كل ذلك عندي في
منزلي . ثم قالت للقضاة : نعم . لقد بدأ رولاند كانديانو بتنفيذ
مشروعه الهائل عندي ليلة أمس وذلك بقتله أحد أعضاء

مجلسكم .

فاضطرب الأعضاء اضطراباً عظيماً والتفتوا جميعهم الى
كرمي دافيليا الحالي . وقال فوسكاري بصوت أجش :
- أقتل دافيليا ؟

فتراجعت ليونور منذرة ويداها على صدغيها وعيناها
تنظران إلى المحظية وقد شعرت بأنها أصيبت بعة لا دواء لها
ونكبت نكبة لم يبق سبيل لانتقامها . أما أمباريا فإنها استطردت
في حديثها فقالت :

- بقي علي أنها السادة أن أخبركم عن السبب الذي حمل
رولاند على قتل دافيليا . إن ذلك المنكود مصاب بجرح بالغ
وهو يختصر عندي الآن وسيموت غداً دون شك وها أنا أخبركم
بما اتفق . إن رولاند فاجأه دافيليا عندي فجرد خنجره لفوره
وطعنه به وجميعكم تعلمون أن بين عشاق الكثيرين لم يكن أشد
غيرة من رولاند .

فأنتت ليونور أنيناً مؤثراً أشفق له القضاة ما خلا أمباريا
فإنها ابتسمت ابتسام المنتقم وقد أصيبت بمثل ما أصيبت به
ليونور ولكن عزاءها في تضحية حبيبها أنها تشفت بالانتقام من
مزاحمتها فيه .

أما ليونور فإنها مشت إلى الباب وهي منسحقة النفس وقد
بلغ منها اليأس أنها عازمت على أن تهم وتسير إلى أقصى حدود
الأرض هناك حيث تموت دون أن يراها أحد وحيث يموت معها
الحب والرجاء .

وكان ألتباري ينظر إليها وهو يسكاد بفترسها بنظراته
وأمباريا تنظر إليها وهي تكاد تطير سروراً بشقاها ، حتى إذا
وصلت إلى الباب فتحتة ومته بالخروج منه ثم تراجعته كأنما
خطر لها رجاء جديد . ذلك أن أحد الحجاب دخل إلى القاعة
من أحد أبوابها وصاح قائلاً :

يا حضرة القضاة ، هوذا الثبيل السير جان دافيليا أقبل
ليجلس في مجلسه بينكم . ولقد كان دافيليا نفسه ، وإنما حضر إلى
المجلس وهو يحضر بغية الانتقام من أمباريا ولإنقاذ رولاند .

فحمل نفسه وأعانه خدمه على الوصول إلى المجلس وهو يعلم
يقيناً أنه قد يموت قبل أن يصل ولكن هي المروءة ثارت في
صدره الثبيل فبذل ما بذله من الجهد بغية إنقاذ البريء والانتقام
من الواشي حتى إذا مات بعد ذلك مات قرير النفس مطمئن
البال . وجلس في كرسيه واصفرار الموت باد في وجهه . فلما
انصرف الحجاب وخلا المجلس نظر دافيليا إلى أمباريا نظرة
قطعت أوصالها من الرعب .

وكان القضاة قد تسارعوا إلى رصيفهم لما رأوا عليه من
دلائل الموت ولوثوقهم بأنه لم يحضر إلا لأمر خطير ، ما خلا
ألتباري فإنه أيقن أن الساعة الرهيبة قد دنت فبقي في مجلسه
وقد وضع يده على قبضة خنجره وتأهب للدفاع عن نفسه حتى
الموت . أما ليونور فقد كان اضطرابها لا يوصف إذ لم تكن تعلم
ما يريد دافيليا وإذا كان يثبت مقال أمباريا أم ينقضه .
وعند ذلك أشار دافيليا إشارة إلى رصفائه كأنه لا يستطيع

الكلام فتباعدوا عنه . وساد السكون الرهيب في تلك القاعة
فلم يسمع فيها غير ترديد أنفاس الجريح ، إلى أن بدأ فوسكارى
الحديث فقال :

- يا جان دافيليا ، إن هذه المرأة تتهم رولاند كاندبانو بأنه
طعنك بخنجره ، فقل الآن ما أتيت تقوله لرصفائك .

فاقترب القضاة من دافيليا كي يستطيعوا سماع صوته الخافت
وأطبقت ليونور عينها وضمت يديها . وتأهبت أمباريا لانقضاء
تلك الساعة على رأسها . وأسند دافيليا يديه إلى الكرسي وبدأ
الحديث فقال : أعترف أن ...

وهنا انقطع عن الحديث وقد جحظت عيناه فقال له
فوسكارى : تكلم أيها القاضي فإنك ستلاقي القاضي الكبير ..
فبذل دافيليا كل ما يستطيع بذله من الجهد كي يستطيع الكلام ،
ولكن الموت عقد لسانه فسقط على كرسيه وبقيت عيناه
منفتحتين تتوعدان . فدنا منه فوسكارى وتفقدته ثم قال : أيها
السادة ، إن رصيفكم جان دافيليا قد مات .

فرفع القضاة قبعاتهم احتراماً لجلال الموت وأتم فوسكارى
حديثه فقال : نعم ، لقد مات بعد أن قضى واجباته وأثبت أن
هذه المرأة قالت لنا الحقيقة .

وعند ذلك خرجت ليونور وهي مطرقة الرأس ومشت
ببطء مشي الجانسين . وفي الوقت نفسه كانت ضوضاء الشعب
تقترب من الأسماع كهزيم الرعد البعيد ، فقال فوسكارى :

- سننظر أيها السادة غداً في العقاب الذي يجب أن نعاقب

به رولاند ، وأما اليوم فلتعمل على إخماد الفتنة وليقم كل منكم
بما عهد إليه .

وعند ذلك وثب ألتيارى وخرج في أثر ليونور ثم خرج
الجميع فلم يبقَ غير فوسكارى وهو ينظر نظرات منكرة إلى
جهة دافيليا ويتنسم . وفيها هو على ذلك دخل إليه رجل فأنحى
حتى كاد يبلغ الأرض وقال له : أترانى يا مولاي خدمت مجدك
وأغراضك كما ينبغي ؟ قال : نعم يا بيبو لقد أحسنت وستمعل
بدأ واحدة . قال : عندما تصير حاكم فينيسيا وسيدي ايطاليا
العليا .

وعند ذلك علت أصوات الهياج ودوي البنادق فأسرع
فوسكارى إلى الخروج من تلك القاعة .

العاصفة

*

عندما خرجت ليونور من قصر الدوج كانديانو لم ينتبه في
البدء أحد لخروجها حتى أن أبها نفسه لم ينتبه إليها لانشغاله
بهذه الحادثة وبجواده الخاصة فقد كان هذا الرجل من أعظم
نبلاء فينيسيا ولكنه قد خسر ماله ، وهو شديد المطامع فكان

يطمع أن يكون من كبار رجال الدولة وأن يكون له قصر على
شاطئ الترة الكبرى ويرجو نيل هذه الأمنية ولو بسفك
الدماء .

وكان جمهور المدعويين قد صبروا بملء السكينة إلى أن
استبطأوا عودة رولاند فكثرت القيل بينهم واشتد هياجهم
وعادت النساء إلى المنازل والتف هؤلاء النبلاء حول الدوج وهم
يتكلمون ممأ وقد ظهر صدق العزيمة على وجوههم .

أما والد رولاند فإنه لم يشترك معهم في حديث يسأل كان
شاخصاً إلى باب القاعة الأكبر ، فإن رولاند قد خرج من هذا
الباب وهو سيعود من هذا الباب .

ولبت على ذلك مدة طويلة إلى أن فتح الباب فصاح صيحة
فرح وفتح ذراعيه كي يستقبل ولده . ولكنه بدلاً من أن يرى
ولده رأى ليونور داخلة وهي شبه المجانين .

وفي تلك الساعة أشد هياج الشعب في ساحة سان مارك
وبلقت أصواتهم إلى قصر الدوج فأجابه النبلاء بمثل هذا النداء
واستل الدوج حسامه فاقتدى به نحو مائة من المدعويين . وكان
الشعب يصيح من الخارج : ليحيى كانديانو .. لتحيى الحرية !
فخرج بعض المدعويين إلى القاعة وجعلوا يقولون : ليمت
العصاة المتمردون . واشتد الهياج حوالي الدوج أما الدوج نفسه
فإنه أسرع إلى ليونور وقال لها :

- أين ولدي وماذا جرى له ؟

فلم تستطع ليونور أن تقول كلمة واحدة وسقطت مغمياً

عليها ولكنها لم تبلغ إلى الأرض فإن ألتباري تلقاها وحملها بين يديه فذهب بها إلى أبيها دندولو .

فاضطرب دندولو لأنه كان مسترسلاً إلى التفكير ولم يعلم شيئاً مما جرى وسأل ألتباري عما حدث لابنته وعمها أصاب رولاند، فأجابته ألتباري قائلاً : لا تسألني عما حدث وانظر إلى ما حولك تعلم ما جرى لرولاند . فالتفت دندولو فرأى كانديانو مشهوراً حسامه وفي أثره نحو مائة مدعو قد اقتدوا به وهو يهز حسامه ويقول : ولدي .. ماذا فعلتم بولدي ؟ وعند ذلك قدم فوسكاري تتبعه فرقة من الجنود فدنا منه وقال له :

- كانديانو ، إن ولدك قد خان وهو في سجن الجمهورية ا كانديانو ، إنك أيضاً من الخائنين ولم يعد لك لقب دوج ا كانديانو ، إني أقبض عليك باسم شراعتنا وبأمر مجلس العشرة . ثم دنا منه يحاول القبض عليه فصاح والد رولاند قائلاً :

- إني يا رجالي .. إني أيتها الأصدقاء .. وبع للجنيناه إنهم تخلوا عني يحملتهم وبت وحدي ، ولكني لا أموت موت الجبان ! وعند ذلك هجم بحسامه على فوسكاري ولكنه قبل أن يبلغ إليه كان الجنود قد أحاطوا به وأصابه واحد منهم بضربة على أعلى رأسه سقط على أثرها مغيباً عليه .

وكان دندولو لا يزال يسأل ألتباري عما حدث فقال له : إن الثورة ناشبة يا دندولو وإنك في عداد المتهمين وكفى المجلس برهاناً على اتهامك أنك وددت تزويج بنتك بشير هذه الفتنة . فلهج قلب دندولو من الخوف وقال : وبع لي ، إني لا بسد

أن أصاب بها أصيب به رولاند وأبوه . فالتصق ألتباري به وقال له ممساً : دندولو ، إني أريد بنتك !

ومما أشد هذا التصريح بل ما أفظع هذا القرام في تلك الساعة الهائلة والثورة ناشبة وليونور مغمي عليها بل إنها قد تكون في حالة خطرة وهو يحدث أباها بشأن زواجها ا فسلم دندولو الصمت ولكن عينيه كانتا تتكلمان عنه بلغة فهمها ألتباري فقال له :

حسناً ، فاذهب بابنتك إلى محل آمن وأنا أحمن لك السلامة من الأخطار بشرط أن تكون مسؤولاً لدي عن بنتك . فظهرت على دندولو علائم التردد ولكنه أجال نظره بين الحاضرين فلم ير غير خناجر تلمع ووجوه تتجهم فأطرق برأسه وقال : سأكون مسؤولاً عنها .

ثم نظر إلى الفتاة نظرة فوز وجرّد حسامه وخرج وهو يصيح قائلاً : هلم بنا أيتها الأسياد .. إتبعوني أيتها الجنود ا فخرج الجميع في أثره وهم يصيحون : ليبت العصاة .. ليبت المتمردين .

*

أما ليونور فإنها صحت في تلك الساعة ووجدت نفسها بين ذراعي أبيها فقالت له : سر بي يا أبي إلى المنزل فلا أطبق البقاء لحظة في هذا المكان . قال : لقد أصبت يا ابنتي فلنهرب من هذا البيت الذي لم نلق فيه غير الشقاء . قالت : نعم نعم فأبعدني عنه جهد ما تستطيع .

فتأبط أوهها ذراعها وسارت وإياه وأسنانها تصطك
فخرجت من ذلك المنزل الذي كانت تحسب نفسها فيه منذ بضع
ساعات أسعد امرأة في الوجود . ولكنها قبل أن تخرج من
الباب الكبير لقيت أم رولاند راكضة إليها وهي تقول بلهجة
الوالهة :

هلمي يا ابنتي فقد كنت خير كفو له .. هلمي ننتقم له
فإما ننتقم وإما نموت معاً . فنظرت إليها ليونور نظرات تأهة
تشف عما خامر قلبها من اليأس وقالت لها : أنا ، أنا .. ابنتك؟
فظهر على والدة رولاند كأنها لم تسمع أو كأنها لم تفهم فإن
هذه الأم المنكودة كانت تعتقد أن جميع الناس متوجعون
لنكبتها ولا سباً خطيبة ولدها فإنها كانت واثقة من أنها تموت
معه في سبيله . ولذلك لم تصدق ما سمعته منها فأمسكت بيدها
وقالت لها :

- تعالي يا ابنتي فإني وإياك نستطيع إثارة الشعب وهدم
السجن فلا تضي ساعتان حتى نخلص رولاند .. خطيبك رولاند .
فضحككت الفتاة وكانت دموعها تسيل في الوقت نفسه
وقالت : خطيبي ؟! أهو خطيبي ؟ إذهي يا سيدتي إلى المحظية
أمباريا وسليها تخبرك من التي يجها رولاند . ففهمت تلك الأم
المسكينة عند ذلك أن ليونور قد تحملت عن ولدها وقالت لها
بلهجة قنوط :

- أنت أيضاً ؟

ثم أفلتت من يدها وخرجت من الباب هائثة على وجهها

واختلطت بالثائرين ، فلما رأت ليونور ما كان من بأسها بسطت
يديها وصاحت تقول بصوت مختنق : صبراً يا أماء فقد كذبت .
قفي فإن قلبي لا يزال له مساحيت .. صبراً فإني قادمة إليك
لإنقاذه !

وعند ذلك همّت أن تندفع في أثرها ولكن أباهما حال دونها
فمادت إلى الإغماء . وهكذا أصيبت تلك العائلة في ساعة بأشد
نكبات البشر وكل ذلك لطمع رجل وغيره محظية .

النزول إلى جهنم

*

ولنعد الآن إلى رولاند ، فإنه حين ذهب مع فوسكاري سار
تواً إلى مجلس العشرة . وقبل أن يصل إليه فتح فوسكاري باباً
وقال لروولاند : ادخل إلى هنا وسندعوك بعد هنية . فتردد
روولاند لحظة ثم دخل وكانت هذه المرة الأولى التي تردد فيها
بجياته ، فلبث كل حياته نادماً يؤنّب نفسه لهذا التردد . ولما
دخل أقفل الباب في أثره برفق فانقطعت الأصوات فشمع رولاند
كأنه قد ابتعد مائة مرحلة عن الأرض المأهولة .

وقد نظر نظراً فاحصاً الى المكاتب الذي بات فيه فوجده

حق انه ذكر تفريد ذلك البلب الشجي فكانت هذه المناجاة تشغله عما هو فيه .

ولم ينتبه لنفسه إلا حيناً رأى أن ذلك المصباح المعلق بالسقف قد انطفأ فجأة وفتح الباب ، فرأى رولاند جسماً ضخماً يشبه حيواناً هائلاً بل خيّل له أنه يرى كثيراً من تلك الحيوانات الضارية ، ولم تكن تلك الحيوانات غير جنود مدرعة بالفولاذ وفي أيديها الحراب المسنونة .

فوقف رولاند في البدء منذهلاً في مكانه ثم هاج به الغضب فشم شتماً قبيحاً وهجم على اولئك الجنود ، ولكنه لم يكذب أن يهجم حتى صاح صيحة ارتدت عن الجنود وهو دامي اليدين .

وكان عدد هؤلاء الجنود عشرين رجلاً وكلهم قد لبسوا خوذ الحديد في رؤوسهم والدروع في صدورهم وأرجلهم ، فجمعوا يتقدمون الى رولاند ببطء دون أن يقولوا كلمة ، وقد انقسموا الى أربعة أقسام ويبد كل منهم حرية مسنونة من جانبيها كالخنجر ، فأحدقوا به وصوب كل منهم حريته اليه فكانوا يشبهون بمجموعهم ذلك الحيوان الهائل الذي مثله يوحنا اللاهوتي برؤياه وكانت حراهم تشبه السنة الأفاعي .

وسكت رولاند لسكوتهم إذ لم يجد كلاماً يقوله ولم يجد من يصغي اليه . ولكنه كان من حين الى حين يحاول القبض على الحراب الدائبة منه فيرتد عنها يجرح جديد ويتراجع منذراً وهو يزيد من الغيظ .

وما زال يتراجع حتى بلغ الى الجدار وهو يعتقد أنه سيموت

غرفة ضيقة ينفذ اليها نور ضعيف من مصباح معلق في السقف ، ولم يكن في هذه الغرفة شيء من الأثاث حتى أنها لم يكن فيها نافذة ينفذ منها النور ، فارتعش وقد شعر لفوره أنه وقع في الشرك المنسوب له . ولكنه تجلد ووقف ينتظر وهو شاخص الى ذلك الباب الذي دخل منه وفكره متجه الى الخارج أي الى الحياة ، وقد مرت به الدقائق مرور الأجيال ، ثم مرت به ساعة لم يحسد بحياته أطول منها دون أن يأتيه أحد ، فجزع وحاول أن يفتح ذلك الباب ولكنه كان محكم الإقفال لا سبيل الى فتحه .

فوقف عند ذلك الباب وجعل يقول في نفسه : صبراً فلا بد أن يكون حدث حادث شغل القضاة عني ، ولا بد أن أكون مبالغاً بطول ما مرّ في من الزمن .

وقد جعل عند ذلك يشغل نفسه بعد ما مرّ به من الدقائق وذلك بعد دقائق قلبه ، ولكنه كان يشعر أن قلبه ينبض بسرعة بحيث لم يتمكن من ضبط الحساب . فاشتد به الجزع في ذلك المكان الضيق الذي كان يشبه القبر بضيقه وذلك السكون الخفيف الذي كان نحيماً عليه ، فكشف يديه وعول على أن يبصر صبر الكرام .

ولكنه على ما عرف به من التجلد وقوة الجأش لم يتمكن من ضبط نفسه إلى أن جعل يذكر حبيبته قنسي موقفه واسترسل إلى مناجاتها ، وتمثلت له تلك الحديقة التي كانا يجلسان فيها فذكر آخر وقفة كانت لهما تحت الأرزة وكل ما دار بينهما من الحديث ،

هناك طعناً بتلك الحراب .

ولكنه حين استند الى ذلك الجدار شعر أنه انفتح وشعر أيضاً أن الحراب ما زالت تطارده وأنها قد بلغت الى عنقه ، فتراجع ودخل في رواق مظلم . ودخل اولئك الجنود في أثره الى ذلك الرواق وجعلوا يطاردونه بنفس الطريقة المتقدمة أي ببطء وسكينة دون أن يقولوا له كلمة أو يجيبوه على ما يقول . قشعر المنكود أنه سيصاب بالجنون . ولم يمنعه عن الهجوم عليهم غير المحافظة بالسليقة على الحياة ، فإنه كان يعلم يقيناً أنه إذا هجم عليهم لا يلقى غير الموت من تلك الحراب المسنونة الحديين .

وقد كان يسير الى الوراء وهو لا يعلم أين يسير ، وفي كل حين تعلق يده بجرية ويصاب بجرح حتى انتهى الى السلم فنزل منه فدفعته الحراب الى رواق آخر أشد ظلاماً وضيقاً من الرواق السابق ، الى أن انتهى الى قبة عالية مضاءة فعرف المكان الذي هو فيه وتنهّد تنهّد القناطين وقال :

— أواه ! إنني في جسر التنهدات !

ذلك أنه علم أخيراً الى أين يريدون الذهاب به وعرف الى أين تؤدي تلك الطريق الجهنمية .

وعند ذلك دفعه الجنود حتى أدخلوه الى القبة وبلغ الى جسر التنهدات . وللغور ظهر جنود آخرون من الرواق فوجد رولاند نفسه بين الجنود وفي وسط الجسر وقد أحذقت به الحراب ووضعت في صدره ، فدفعوه الى مكان ضيق مبني

بالحجارة ، وهناك وضعت القبود الثقيلة في يديه ورجليه وعنقه وصدره بحيث لم يستطع أن يأتي بحركة .

ولما أتمّ اولئك الجنود مهمتهم الهائلة انصرفوا ساكتين وتواروا عن الأنظار .

فوقف رولاند ينظر الى ما حواليه وقد كاد الذعر يضل صوابه ، فرأى ذلك الكرسي الحجري الذي يجلسون عليه من يحكون عليهم ساعة التنفيذ . وهم لا يقيمونهم على ذلك الكرسي لقتلهم بل لتنفيذ عقاب أشد هولاً من القتل سيقف عليه القراء في حينه .

وبعد حين رأى رولاند ثلة من الجنود قادمة من أطراف الجسر فتقدموا حتى وصلوا الى ذلك الكرسي ، كرسي العذاب ، وهناك أجلسوا رجلاً جاؤوا به مغلول اليدين والرجلين وقد غطي رأسه بغطاء أسود حجب وجهه عن الأبصار ، وقد أجلسوه فوق هذا الكرسي وأحكوا الوثاق ثم وقفوا وراه كي يدعوا رولاند ينظر ما يفعلون . وعند ذلك صاح أحدهم قائلاً :

— إرفعوا الغطاء عن رأسه .

فرفع الجلاد الغطاء الأسود وصاح رولاند صيحة هائلة نزع بها صدره وقال :

— أبي ... أبي ... إنه أبي !

وقد نسي رولاند حين رأى أباه في هذا الموقف أنه مقيد مثل قبذل جهداً لا يبذله البشر كي يتخلص من قيوده حتى أن عروق يديه وصدغيه نفرت وكادت تنقطع .

ولكن جهده ذهب عبثاً فسقط على الأرض خائر القوى
واهن العزم . وكذلك كانديانو قد رأى ولده فإن أنيناً لا يصفه
قلم ولبت كل من الأب والابن ينظر الى الآخر الى نهاية الحادثة
الهائلة وكل منها يودع الآخر بكلمات تقطع القلوب من الإشفاق .
وبعد هنية سمع صوت فوسكاري يقول : يا كانديانو ، إن
المحكمة العادلة رأفت بك وعفت عن قتلك . فارتعش رولاند
وجعل ينظر الى زعيم المفتشين . أما والد رولاند فإنه أجاب
فوسكاري قائلاً :

- بأي حق تحكم عليّ هذه المحكمة العادلة دون أن تحاكمني
وتسمع أقوالي ؟ أجابه فوسكاري قائلاً :

- إن المحكمة تعلم من أمرك فوق ما تعلمه أنت ، فتذاكر
أعضاؤها بشأنك وحكوا عليك وقرروا الإبقاء على حياتك .
ولكن المجلس رأى أنه لا بد له من اتخاذ الاحتياطات اللازمة
كي لا يدع لك سبيلاً للعودة الى ما كنت عليه فلا تستطيع أن
تؤذي الجمهورية بشيء بعد الآن .

قال : إني لا أفهم ما تقول . فإنكم اجتمعتم بالسر كالجنيناء
واقفتم على القائي في السجون المظلمة التي لا أخرج منها في قيد
الحياة . فافعلوا ما تشاؤون ولكن احذروا لأنفسكم فإذا نجوتم
من انتقام الناس لا تنجون من غضب الله فإن الأرض والسماء قد
أنفثتا مظالمكم . وبعد ، فما الذي تلومونني فيه ؟ ألأنني
احترمت حرية الشعب ولم أوافقكم في تضحية هذا الشعب
المظلوم على هياكل أطعاكم وأغراضكم ؟

ولكن لا بأس فاصنعوا بي ما أنتم صانعون ، أما ولدي فأني
ذنب جناه وهو لم يتجاوز الثلاثين من العمر بعد ؟ فإذا بقي في
قلوبكم ذرة من عطف الإنسان فاشفقوا على صباه وارحموا
خطيئته تلك الفتاة النبيلة التي تبكيه . هذا كل ما ألتسه منكم
له إذ لا ألتمس شيئاً لنفسي ، وعلى هذا الشرط أوافق بله
الرضى على أن أصرف حياتي سجيناً في آباركم العميقة المظلمة .
فأجابه فوسكاري قائلاً : كانديانو ، إنك بعد ساعة
تصبح حرراً .

فصاح رولاند صبيحة فرح ونظر الى أبيه والدموع تجول في
عينيه وقال :

- أي ، إنك ستصبح حرراً بعد ساعة فليجز الله فوسكاري
خيراً .

فابتسم رئيس مجلس التفثيش دون أن يجيب . أما والد
رولاند فإنه ارتعش وقال :

- كلا إنهم لا يفعلون ذلك... كلا إنهم لا يقدمون على هذا
الأمر الفظيع .

ذلك لأن المنكود كان يعلم معنى هذه « الحرية » التي يُنعم
بها مجلس العشرة ويمنعونه بها عن إيذاء الجمهورية .

أما فوسكاري فإنه التفت الى الجلاد وقال له : أيها الجلاد ،
إفعل واجباتك . فاضطرب رولاند وقال في نفسه : رباه ، أي

شأن بقي للجلاد ما زالوا يريدون إطلاق سراح أي ؟
ثم صاح صبيحة منكورة وقال : ويحكم ماذا تصنعون ؟ رباه

ما هذا الأمر الهائل ؟ رحاكم اشفقوا على أبي ! يا ويلكم من
الموقف الأخير ! إلينا .. إلينا .. كلا ، كلا .. العفو .. العفو ،
الرحمة .

فقال له أبوه بصوت يتهدج : رولاند ، رولاند ، يا بني ،
لا تنتظر .

ولكن رولاند لم يمتثل لأبيه ولبت ينظر فرأى .. يا ويلهم !
إنه رأى كل شيء .. إنه رأى ، وقد وقف شعر رأسه وسال
عرق التزع من جبينه ، كل ذلك العقاب الى النهاية !

وذلك أنه حين أمر فوسكارى الجلاد ذلك الأمر الهائل دنا
الجلاد من ذلك الشيخ ووضع على وجهه قناعاً من المعدن ، وكان
في أعلى ذلك القناع ، أي في المكان الذي يقابل العينين ، رأسان
حادان من الفولاذ . فوضع الجلاد يده اليسرى على رأس والد
رولاند كي يسنده ، وبينما كان رولاند يلتمس العفو عن أبيه ضغط
ذلك الجلاد بيده اليمنى على القناع الحديدي فنشب الفولاذ في
عيني ذلك الشيخ المنكود .

وعند ذلك سمع صوت شهيق وصوت أنين . أما الشهيق
فكان من رولاند إذ أغمى عليه . وأما الأنين فكان من أبيه
إذ سملت عيناه وبات أعمى لا يستطيع إيداء تلك الجمهورية
العاتية . وقد أجريت هذه العملية بجملة بحيث لم يسئل من
العينين غير القليل من الدماء . ولكن البؤبؤين اللذين نشب فيها
الفولاذ بقيا متفتحين فكان منظرهما هائلا .

وقد كاد هذا الشيخ المسكين يمين من ألمه ، فجعل يسير في

هذه الغرفة فيعثر بكل ما فيها ولا يقف لألمه واضطرابه ، إلى
أن أمسك به اثنان من الجنود وخرجا به من ذلك المكان
الخبث الى أحد الأرصفة .

وكان هناك قارب كبير ينتظر فنقلوا الأعمى اليه واحتازا به
مسافة طويلة على ذلك القارب ، حتى إذا وصلا به الى الشاطئ
كانت مركبة تنتظر هناك فنقلوا اليها وسارت به تلك المركبة
تنهب الأرض ساعات طويلة حتى وصلت الى مدخل قرية
فوقفت . وعند ذلك شعر كاندبانو أنهم أنزلوه من المركبة وأنهم
علقوا في رقبته كيساً ووضعوا عصا في يده .

ثم سمع صوت رجل يقول له : إنك تجد يا سيدي في هذا
الكيس خبزاً وعشرة ريات لنفقاتك الأولية . وأنت الآن في
مدخل قرية فادخل اليها وستجد فيها دون شك من أهل المروءة
والإحسان من ينشط الى العناية بك ، فإذهب يا سيدي ،
واستمع بالله .

وعند ذلك عادت المركبة بالجنديين ، فوقف الشيخ التمس
حائراً والها يصغي الى صوت المركبة إلى أن انقطع الصوت ،
فأطرق برأسه الى الأرض وجعلت الدموع تسيل من عينيه اللتين
لا نظر فيها .

*

أما رولاند فقد سقط مغمياً عليه كما تقدم ، حين رأى تنفيذ
العقاب الهائل بأبيه ، وقد صبر فوسكارى برجاله إلى أن استفاق
من إغمائه فتاداه قائلاً :

- رولاند كانديانو ، أسمعني ؟

فقال رولاند : من هذا الذي يدعوني ؟ أهذا أنت يا أبي ؟
قال : كلا يا رولاند ، بل أنا فوسكاري رئيس مجلس التفتيش
وقد أتيت لأبلغك قرار مجلس العشرة فأصغر إلي . فأصيب
رولاند بذهول وتمثلت له ليونور فابتسم وقال : انظر يا أبي إلى
خطيبي فهل ترى أجمل منها ؟ فقال فوسكاري :

- رولاند ، إن الثورة التي أثارها بالإشتراك مع أبيك قد
أطغنت جذوتها بهمة رجالنا وبفضل الله ، وكان من العدل أن
تعاقب بمثل ما عوقب به أبوك غير أن المجلس قد عفا عنك بالراح
التباري واكتفى بأن يحكم عليك بالسجن المؤبد .

فظهر على رولاند كأنه لم يفهم كلام فوسكاري وجعل يلعب
بمخيد قيوده وقد بدت عليه علامات الإندمال فكان كالأطفال .
فقال فوسكاري لرجاله : سيروا به . فقالوا : يجب أن نبقى
عليه هذه القيود ؟ قال : كلا ، لا فائدة من ذلك .

- في أي سجن تريد أن تضعه ؟

- في السجن السابع عشر .

وكانت قلوب هؤلاء الجنود فظة كأنها قدت من الحجر
الصلد . غير أنهم لم يتالكوا عن الارتعاش حين عرفوا الموضع
الذي سيسجن فيه رولاند . وعند ذلك فكوا قيوده وساروا به
دون أن يدافع أو يفوه بكلمة . غير أنه حين اجتازوا جسر
التنهدات وبلغوا به إلى السجن الكائنة في الطبقة الثالثة تحت
الأرض ارتجف وقال : ما هذا البرد الشديد ؟

فلم يردوا عليه وجعلوا ينزلون به فكلموا نزلوا طبقة تالم
وشكا البرد فلم يحفلوا بشكواه وواصلوا النزول فإنهم أليفوا
جميع أنواع التمذيب الإنساني فأغلقت أبواب الرحمة في قلوبهم .
وكانوا كلما توغلوا في النزول اشتد البرد وكثرت روائح العفونة
إلى أن بلغوا المكان الذي يسبرون إليه فأفلتوا ذراعيه
وانصرفوا ، فسمع رولاند صوت إقفال باب عظيم من الحديد
وكانت هذه البشر التي نزل إليها سجنه الرهيب الذي يدعونه
السجن السابع عشر . وقد محي اسمه من سفر الأحياء وذهب
صوابه فبات من المهانين بحيث لم يعد يتألم في نفسه ولا يشعر إلا
بألمه الجسدي .

أما هذا السجن فقد كان بشراً متسعة بنيت جدرانها من
الحجارة الضخمة وقد وضع فيها سرير من الحجارة ووضع بقربه
إبريق وقطعة من الخبز الأسود . ولم يكن يسمع فيها غير هدير
ماء الترعة الكبرى ولا سبيل لنفاذ النور إليها فإذا سمع السجن
غير هدير الماء فإمنا يسمع من حين إلى حين أنين الأمري أمثاله
المسجونين يحواره .

الصلد

*

لقد تركنا أم رولاند مندقمة بين الجماهير بعد أن يشتت من

أن تقتلها بالخنجر أو تفرقها في التربة .

فقال سكالا برينو في نفسه : إني تعودت قتل الرجل بعشرة ريات وهذه امرأة يدفعون لي اجرة قتلها مائة ريال ، فكيف لا أقبل ؟

وعند ذلك انقضّ على هذه المرأة وكانت سيلفيا والدة رولاند فضربها على جبهتها فأغمي عليها ثم اختطفها بمساعدة رجاله وأسرع بها إلى قارب فوضعها فيه وسار بها بغية قتلها وهو لا يعلم أنها والدة رولاند الذي كان يعتقد أنه يخدمه أجلّ خدمة بالهتاف له بين الجماهير ولا يعلم أنه قد قضى عليه القضاء المبرم بهذا الهتاف وأثبت عليه أنه مثير الفتنة .
وقد أخذت السكينة تعود تباعاً إلى المدينة وأخفت ظلمات الليل جثث القتلى في ساحة سانت مارك .

*

في هذه الليلة نفسها كان نور ينبعث من غرفة صغيرة على شاطئ البحرات وذلك في الساعة الثالثة بعد انتصاف الليل أي في نفس الوقت الذي ألقى به رولاند في سجنه المهائل .
ففي هذه الغرفة الصغيرة كانت امرأة نائمة على سرير حجير وقد عصبت جبهتها الدامية ، وفي مقدمة السرير فتاة لايسة ملابس تدل على أنها من عامة الناس تنظر إلى هذه المرأة نظرات إشفاق .

وفي إحدى زوايا تلك الغرفة رجل عظيم الجثة كان متربعاً

خطيبة ولدها وقد اختلطت بالثائرين وجعلت تصيح صياحاً لا يسمعه أحد لشدة أصوات الثائرين ودوي البنادق ، وقد سارت بالسليقة إلى حيث كانت تسمع الناس ينادون قائلين : « ليحي رولاند كانديانو ، فلقبت هناك نحو عشرين رجلاً قد تمزقت ملابسهم واسودت وجوههم من الغبار وهم يقاومون الجنود وبينهم رجل هائل الخلق طويل القامة كان يظهر أنه زعيم أولئك الثائرين .

وفيما هو على ذلك دنا منه رجل اخترق إليه الجماهير وقال له : لم يبقَ قائدة من مواصلة الصياح فقد انتهى كل شيء وأخذ الناس يهربون من كل مكان ، فكفى يا سكالا برينو .

فنظر سكالا برينو إلى مساحوايه نظرة دموية فرأى أن الجنود قد تغلبوا على الثائرين وأن الرجال يلقون أسلحتهم والنساء يصحن صياح الرعد فسأل الرجل الذي كله قائلًا :

- ماذا جرى لمولاي رولاند ؟ قال : كن مطعناً يا سكالا برينو ، فقد نال بفضلك كل ما يريد .

- إذن يجب أن تنصرف ؟

- نعم دون شك .. ولكن انتظر قليلاً ، أرى هذه المرأة التي تتقدم ؟

- نعم .

- أعرفتها ؟

- كلا .

- إني أعطيك غداً مائة ريال إذا قتلتها . ولك الخيار بين

فيها ينظر أيضاً إلى هذه المرأة فقد كانت والده رولاند وكانت الفتاة تقيم في ذلك المنزل . أما الرجل فإنه كان سكالابرينو . ولما بلغت الساعة الرابعة وانبثق الفجر قسام سكالابرينو إلى الصباح فأطفأه . وعند ذلك تحركت سيلفيا في سريرها فدنا اللص منها ووقف مع الفتاة يتأملان وجهها ثم قال لها همساً :

— ماذا ترين يا جوانا ؟ فإن هذا الجرح الذي أصيبت به في جبهتها غير خطر بل إنه سيندمل سريعاً وفوق ذلك فإن جراح الرأس غير خطيرة ولولا ذلك لكانت من أهل المقابر . فهزت الفتاة رأسها وقالت :

— ليست جراح الرأس الخطيرة بسـل جراح القلب ، فقد أصيبت هذه المنكودة بجرح لا يندمل كما علمت من حديثها حين كانت تهذي هذيان الموموم .

فارتعش سكالابرينو وحوّل نظره عنها ثم جعل يمشي في تلك الغرفة ذهاباً وإياباً وهو يتهدد ويتوعد بقبضته . وقد صحت أم رولاند لوقع خطواته فنادته وسألته أن يقترب منها فامتثل اللص ودنا منها فقالت له : إني أعرفك فأنت الذي أنقذتني ، والآن أسألك أن تتكلم وتخبرني بكل ما جرى فأني أحب أن أقف على كل شيء فإنك أنت الذي أنقذتني حين أصبت بتلك الضربة في جبهتي .

قال : هو ذاك يا سيدتي فاعلمي الآن ماذا جرى فأني لا أزال أراك كما رأيته في تلك الساعة وقد خرجت من القصر فكنت هائلة حتى أتي خفتك وأنا لم أخف أحداً في حياتي . ثم امتزجت

بنا وجعلت تقولين أقوالاً لا أزال أذكرها إلى الآن وأرتعش لها . وقد جرى ذلك حين بدأت الجنود تطلق بنادقها على الشعب الثائر . وعند ذلك هجم عليك رجال مسلحون بغية قتلك فدافعت عنك وحملتك مع رجالي فجئت بك إلى هنا .

كان يقول هذا القول بصوت يضطرب لأنه كان يكذب إذ لم يجد بداً من الكذب فقالت له : إذن لقد قُتل مائة رجل في ساحة سانت مارك وغرق مثلهم في الترعَة الكبرى وجرح نحو مائة شخص وتفرق الناس وقد هلمت قلوبهم من الخوف فلم يعد يسمع لهم حسنٌ . قالت : إذن لم يستطع أن يدخل إلى القصر ؟

— كلا يا سيدتي ، ولكن لماذا تفتكرين بهذه الأمور ومن أنت يا سيدتي ؟ وأين منزلك فأنت لك إليه ؟ فقالت له سيلفيا كأنها لم تفهم كلامه : ولكن من الذي أثار هذه الثورة ؟ فأجابها بصوت منخفض قائلاً : لا أعلم يا سيدتي ، وكل ما أعلمه أنهم أعطوني عشرين ريالاً وأعطوا كل واحد من رجالي ريالين كي نصيح : « ليحي رولاند كانديانو » ونطلق بنادقنا في الهواء . ولو علمت قصدهم لما امتثلت لهم . أتعلمين يا سيدتي ما يقولون ؟ — ماذا يقولون ؟

— إنهم يقولون وأسفاه ، إن رولاند كانديانو لم يحكم عليه ويسجن إلا بسبب هتافنا . فإذا كانت هذه الأقوال صادقة وكان رولاند في السجن لا أجد عزاءً لنفسي بغير الموت . — إن ذلك قد حدث يا بني .

- كيف عرفت ذلك ؟

- عرفت ذلك لأنني رأيتهم يقبضون عليه أمامي ، أسمعت ؟
وقد عرفته لأنني رأيت جميع أصدقائه قد تخلّسوا عنه .. إذنت
أنت هو أيها الشقي الذي تظاهرت بالثورة وهتفت له كي يشتم
بها . فانتظر .

وعند ذلك نهضت من سريريها وهي تزيد من الغيظ فتراجع
اللس منزعجاً لما رآه من غضبها وقال لها : ولكن من أنت يا
سيدتي ؟ فمشت إليه وهي تقول : يا ويحك أنا أمه ...

فركع سلالا برينو وسجد أمامها حتى التصقت جبهته بالأرض
وقال بصوت خنفته العبرات : أنت أمه وأنا الذي دعوتهم
يقبضون عليه !؟ أقتليني يا سيدتي .. أقتليني فلا أطيع الحياة
بعد الآن .

فوقفت أم رولاند منذهلة مما سمعت ورأت ونظر إليها اللص
فقال : إعلمي يا سيدتي أنني قتلت كثيراً من أكارم الناس مهنتي
فإن خنجرني معدة لنصرة العاجز أو الجبان الذي لا يستطيع
الانتقام . وقد سرقت أيضاً ودخلت إلى القصور فتهبتها ، فإن
القتل والسرقة مهنتي كما قلت لك ، غير أنني في كل ما فعلت لم
أشعر بأني ارتكبت جريمة غير الآن . فقلت له سيلفيا بلهجة
جافية : أوضح ما تقول !

- إن ابنك .. سيدي رولاند .

- تكلم .

- لقد دفعوا إليّ مرة مالا كي أقوده إلى كمين فحاربته

فاتتصر عليّ وكان يوسعهُ أن يقتلني كما كان يفعل كل رجل سواه
ولكنه لم يقتلني بل عفا عني .

- وأسفاه عليك يا ولدي النبيل !

- ومنذ ذلك العهد أثار في نفسي عواطف لم أكن أعرفها من
قبل ، وليس ذلك لأنه صفح عني وأبقى على حياتي فـلا قيمة
للحياة عندي ، ولكنك لو سمعته يقول لي : « إنك لم تخف
فعموت عنك ! » لقد قال لي هذا القول دون احتقار أو كره
وأنا ما تعودت أن أعامل بغير الكره والإحتقار ففتبرّرت لهجتي
وكلّ مناهجي وشعرت بأني أصبحت إنساناً بعد أن كنت شراً
من الحيوانات الضارية .

ثم نهض وجعل يسير في العرفة بأقدام مضطربة ويقول
بصوت منقطع :

- وبع لنفسي ! إني بدلاً من أن أكافئه عن إحسانه إليّ
كنت السبب في القبض عليه .. نعم ، إني لم أكن عالماً بحقيقة ما
فعلت ولكن كان يجب عليّ أن أعلم .. نعم هذه هي الجريمة
الوحيدة التي ارتكبتها في حياتي ولم أعد نفسي مجرماً من قبل
فقد كنت من بني الآثم .

أقتليني يا سيدتي إذا راق لك فإني لا أستحق الإشفاق ! ما
بالك ترددين ؟ إعلمي أنني ارتكبت جناية أفطع من الجناية
المتقدمة ، فإنك أنت والدة الذي صفّح عني تتوهمين بأني
حارلت إنقاذك ولكن الحقيقة هي أنني الذي هجمت عليك
واختطفتك لأنهم وعدوني بأن يدفعوا لي مائة ريال إذا قتلتك .

— تقتلني أنا ؟

— نعم أنت والدة رولاند ! أعرفت مقدار جرمي الآن ؟

— ولماذا لم تقتلني ؟

— لا أعلم . فإني حين اجتزت بك الترفة حاولت مراراً كثيرة أن أقتلك فيها ، وهنا في هذه الغرفة خطر لي أيضاً أن أقتلك ، ولكنني لم أستطع فقد كنت مغيباً عليك وعيناك مطبقتان فوجدت بالهجوم عليك صعوبة لا أجدها بالهجوم على عشرة رجال مسلحين .. أرى أنك تقتكرين يا سيدتي وبماذا .. ألسنت تقولين في نفسك إنني لص سفاك لا أستحق الرحمة ؟

— كلا ، بل إنني مشفقة عليك !

— أنت تشفقين عليّ ؟

— بل أصفح عنك .

— رياه ! إنها تشفق عليّ وتعفو عني فإني نصبت الشرك لولدها فانتصر عليّ وعفا بعد المقدرة ، واستأجروني لقتل أمه فأشفقت عليّ وصفحتم عني ، فكيف يصاب هؤلاء الناس بمثل ما أصيبوا به من النكبات ؟

أذكر مرة أني كنت على وشك الموت فجاءني كاهن فعرفني وذكر لي أهوال جهنم فلم أخف . وبعد ذلك كنت أراقب السماء أحياناً راجياً أن أرى فيها وجه الله . فإذا كانت الأبالسة موجودة فكيف أبقت على أمثالي ؟ وإذا كان الله على ما يصفون فكيف يدع مثل هؤلاء الناس يبيكون ويشقون ويتعذبون ؟

كان يقول هذا القول ودموعه تسيل ولعلّ هذه أول مرة

بكي فيها مدة حياته . فدننت سيلفيا فأخذت يده وقالت : ماذا تدعى ؟

— سكالا برينو .

— حسناً ، أريد يا سكالا برينو أن تكفّر عن سيئاتك بإصلاح ما أفسدته ؟

— ماذا تريد مني يا سيدتي ؟

— أريد أن تساعدني على إلقاء ولدي .

— إنني أسفك آخر نقطة من دمي في هذا السبيل .

— أريد أن تكون لي إلى أن يطلق سراح رولاند ؟ . أريد

أن تكون خاضعاً لكل إشارة تصدر مني ولكل كلمة تخرج من فمي فتقتل كل من أرشدك إلى قتله فلا تكون لنفسك بل تكون لي وتكون السلاح المائل الذي أنتقم به ؟ تمنّئ قبل أن تجيب لأنني سأعهد إليك بمهات هائلة .

فبسط اللص يده كأنه يحلف ميمناً مقدسة وقال : إنني منذ الآن آله في يدك تديرينها كما تشائين بل إنني عبدك الخاضع فعلبك أن تأمرني وعليّ أن أطيع . ومهما تكن أغراضك هائلة فإنّ إرادتي في تنفيذها ستكون أشدّ هولاً فقول لي يا سيدتي بمن تريدني أن أبدأ فإني عبدك منذ الآن .

فأجابته أم رولاند بصوت أبحّ قائلة : أريد أن تبدأ بليونور دندولو .

تجلس كل ليلة تحت تلك الأرزة الكبرى في حديقة منزل أبيها
ولا تؤثر مجلساً على هذا المجلس .

ولم تكن تذرِف دموعاً ولكنها كانت دائماً للتفكير فإذا
التقت بأبيها حاولت أن تصرّح عما تفكر به ولكنها لم تكن
تجسر . إلى أن كانت جالسة معه ليلة وقد ملأ الهم قلبها حتى لم
تعد تطيق احتمالاً فسألها أبوها حسب عادته قائلاً : بماذا تفكرين
يا ابنتي ؟ فترددت هنيهة ثم قالت ؟ أبي ، إني أفكر به وأحب أن
أعرف ما جرى لتلك الأسرة فإن ذلك يلطّف أحزاني . قال :
سلي يا ابنتي ما تشائين .

— ماذا جرى لأبيه ؟

— إنه برح فينيسيا ولم يعلم أحد أمره .

— وأمه ؟

— سافرت أيضاً .

فترددت أيضاً هنيهة ثم قالت بصوت خافت :

— وهو ؟

— رولاند كانديانو ؟

فارتعشت ليونور لهذا الاسم واصفرّت وجهها فقد خيل لها
حين سماعه أن رولاند قد ظهر لها وأنه لم يحدث شيء لها وأنها
تنبّهت من حلم .

وعند ذلك دقت الساعة مشيرة إلى انتصاف الليل فسمعت
تلك الدقات المتوالية وهي مطرقة الرأس وقالت : هوذا نصف
الليل ، هي ذي تلك الساعة التي كان يتركني فيها ليذهب إليها .

كانت ليونور في خلال الثمانية الأيام الأولى للقبض على رولاند
قد أصيبت بجمي شديدة وقفت فيها بين الموت والحياة إلى أن
تغلّب صباها على تلك الحمى ونجّت من أخطار الموت فكان أبوها
يسهر عليها كل ليلة وهو يخاف في كل حين أن يفاجئها الموت .
وإن أباهما على شدة مطامعه كان يحبها حباً عظيماً فيبكي
لنكبتها بكاءً صادقاً ويعذب عذاب أب حنون يرى ولده
صريعاً بين يديه ولا يستطيع إنقاذه من الموت ولو باقتدائه
بنفسه ، فلما نجت ابنته من الخطر فرح فرحاً لا تصفه الأقلام .
ولم يزره ألتباري في خلال هذا الأسبوع بل كان يكتفي
بالطواف حول منزله في جزيرة أوليفيو ويطرق بابه عشرين مرة
في النهار والليل فيسأل عن صحة الفتاة فيعود قانطاً أو راجياً
حسب ما يعلمه من أنبائها .

فلما وثق دندولو من سلامة ابنته عادت إليه مطامعه فقال في
نفسه : إن ليونور لا بدّ لها أن تنسى مع الأيام حادثتها الماضية
وتعود إلى الحب الذي يدفعها صباها إليه فأجعل هذا الحب
مفتاح ثروتي .

ومضى على ذلك شهران كانت ليونور فيها بدور النقاة

إلى تلك التي يحبها ويغار عليها !

فلما سمع أبوها قولها رأى أنه قد دنت للساعة التي يجب أن يتم فيها تلك الحطة التي رسمها له ألتباري فقال : لا تقتكري يا ابنتي بهذا الرجل فقد برح فينيسيا . وقد سافر هذا العقوق النافر الجميل دون أن يراك ودرن أن يرى ألتباري ، ذلك الرجل النبيل الذي دافع عنه أجل دفاع في مجلس العشرة حتى حملهم على العفو عنه وإطلاق سراحه . فانسي يا ابنتي هذا الرجل . وأمه وأباه فما هم من أهل الخير والصلاح .

قالت : أهو سافر أيضاً ؟ قال : نعم ، فإنه حين فشل بإثارة الفتنة قبض عليه ولم تكوفي قد أصبحت امرأته بعد بفضل الله الذي أشكره ما حييت لظهور مؤامرة هذا الرجل قبل قوات الأوان . وبعد أسره بثلاثة أيام تمكن ألتباري من إطلاق سراحه بعد أن أقسم بيننا محرجة أن لا يحاول الإساءة الى الجمهورية بشيء . وبعد أن أقسم هذه اليمين لا يعلم أحد مصيره الى الآن .
- إذن لقد سافر ؟

فمضى أبوها في حديثه فقال : ويقولون إن هذه المرأة التي أحبها محطية قاسدة الأخلاق وإنها هي التي أثارت في نفسه هذه المطامع فإنها رومانية ما جاءت الى فينيسيا كما يقال إلا للاستعانة بجيها على إثارة الفتنة فيها . وعلى الجملة فليس هو بذنوب ولا يجب أن تلقى تبعة الجريمة إلا عليها فإن هذه المرأة ...
فقاطمته ليونور قائلة :

- بريك كفى ! ألا ترى أن كلامك يقطع قلبي ؟

ثم انقلب رأسها الى الوراها وأصيبت بنوبة عصبية كادت تقضي عليها . فقلع قلب أبيها من الخوف وحمل رأسها بين يديه وقد أشفق عليها إشفاقاً عظيماً وكاد يقول لها : عودي يا ابنتي الى رشك فإنه يعبدك ولا يجب سواك وإنه الآن في ظلمات السجن شهيد حبك ...

ولكنه قبل أن يقول لها هذا القول نظر وهي بين يديه فرأى ألتباري واقفاً أمامه وقد وضع إصبعه على فمه وجعل يتهدده بنظرانه .

فأن دندولو أنين الموجه وقال : وبع لنفسي ، إني سائر في طريق الجريمة .

*

وفي اليوم التالي ظهر على ليونور وكأنها قد تغيرت تغيراً عظيماً ، فانها لم تعد تشكو وانقطعت عن البكاء وعادت الى أعمالها البيتية ، ولم يرها أحد بعد ذلك تجلس تحت الأرزة الكبرى ، ولم تعد تذكر رولاند ولا حوادث خطيبها ، فكانت تستقبل زوار أبيها حسب عاداتها وبينهم ألتباري الذي كان يكثر ترده تبعاً اليهم حتى بات يزورهم كل يوم .

الأم

*

تقدم لنا القول إن سيلفيا والدة رولاند قد اختلت بسكالا

برينو، وقد طالت هذه الحلاوة مدة طويلة فكانت سيلفيا تتكلم بصوت منخفض وسكالا برينو يصغي إليها أتم الإصغاء ويحجب من حين إلى حين بكلمة أو بإشارة .

وقد سمعنا تلك الأم تقول لذلك اللص إنه يجب أن نبدأ بالانتقام من ليونور، ذلك لأنها باتت تكترها في ذلك الحين كرهاً قاتلاً فأنها كانت تعتقد أنه إذا تخلصت الأرض والسماء عن رولاند وهجره أصحابه ومربدوه ، فإن خطيئته لا تتخلى عنه لما كانت تعلمه من تبادل الحب بينها، فان رولاند لم يكن يقول جملة حتى تتخللها كلمة ليونور ، ولم يحدث في موضوع إلا كانت ليونور نقطة دائرة البحث فيه . وكذلك ليونور . فكيف استحال هذا الحب بعد نكبة رولاند ؟

إذن لقد كانت كاذبة مخادعة أفتاكة أحبته في أيام الرخاء وتخلصت عنه في ساعة الشدة !

ومن أين لتلك الأم المنكودة أن تعلم ما يحول في نفس تلك الفتاة الطاهرة ؟ بل أين لها أن تعلم تلك المكيدة التي كادوها لولدها فاتهموه بحب تلك المومس ؟

ولذلك كانت كلما خطر ليونور في بالها حاجت أحقادها عليها وتبين الكره في عينها . وعندما قالت كل ما تريد قوله لسكالا برينو وأيقنت أنه فهم كل مقاصدها قالت له : اذهب وافعل كل ما قلته لك ، ولكن لا تضربها أنت فاني أحب أن تكون من يدي تلك الضربة القاضية . فاذهب وأحضرها إليّ فسنبدأ بها . اذهب وعد إليّ سريعاً بما سألتك أن تأتيني به من

الأنباء . قال : سأعود اليك بعد ساعتين بما تطلبين .

ثم تركها وانصرف . فأقامت أم رولاند في زاوية من الغرفة وغطت وجهها ورأسها بقناع كثيف كي تحجب عنها النور كأنها تريد أن تطابق بين الظلمات وظلمات نفسها القانطة . وبعد ساعتين لم يعد سكالا برينو كما وعد ، وحان الظهر دون أن يحضر . وعند ذلك دخلت إليها جوانا وقالت :

- ألا تريدن أن تأكلي قليلاً يا سيدتي ؟ قالت : أشكرك يا ابنتي فلا أجد شهية للطعام . قالت : إذن ألا تريدن أن أغير رباط جبهتك ؟ قالت : لا حاجة لي إلى ذلك فإنه لا يؤلمني .

فخرجت جوانا وهي تقول : مسكينة هذه المرأة فإني أذوب إشفاقاً عليها .

ومضى ذلك النهار دون أن يعود سكالا برينو ، ثم مضى اليوم التالي والذي تلاه وهو غائب . وقد صبرت سيلفيا أربعة أيام دون أن تعلم شيئاً من أخبار هذا الرجل ، فبدأ اليأس يخامر قلبها .

ولم تكن تفتكر في خلال هذه الأيام الأربعة إلا بالانتقام لولدها أو بإنقاذه . وكان خاطر الانتقام قد تقلب عليها وهي معتمدة فيه على سكالا برينو ، فكانت تعد غيابه ضربة قاضية على أمانها إذ لم يبق لها من الأعوان غير جوانا ، وماذا عسى تفيدها هذه الفتاة وهي لا تتجاوز أربعة عشر عاماً ؟

فبعد أن أطالت التفكير في وسائل الانتقام وأيقنت من عجزها عنه جعلت تبكي وجعل الانتقام يزول تبعاً من قلبها

ويحلُّ محلها لولدها حتى بات شغلها الشاغل ، وامتحى كل أثر للانتقام ولم تعد تفتكر إلا بوسائل إنقاذه .

ولكن أنتى لها ذلك وهي قد سمعت بأذنها خبر عزل زوجها وأنه لم يعد حاكم فينيسيا ، ورأت بعينها أن النبلاء ييملمتهم قد تخلتوا عن نصرتهم لحوفهم العاقبة بحيث لم يبق لها من معين غير الدموع والرجاء والاستعطاف .

ورأتها جواثا خارجة في صباح يوم من المنزل فقالت لها : الى أين تذهبين يا سيدتي ؟ فلم تجبها وأشارت لها إشارة استدلت منها الفتاة على مبلغ بأسها وأنها لا تعود .

أما سيلفيا فإنها كانت بعد ساعة قرب منزل فوسكارى رئيس مجلس التفتيش وقد وقفت هناك تنتظر قدوم هذا الرجل . فمضى النهار دون أن تراه فلم تجد بدا من العودة في الليل الى تلك الغرفة الحظيرة عند الرصيف . فلما رأتها جواثا داخله صاحت صيحة فرح ، ولكن سيلفيا لم تنقبه اليها لأنها كانت مشغولة بما هي فيه عن كل ما سواه في الوجود .

وفي اليوم التالي ذهبت أيضا الى موضعها في الأمس عند منزل فوسكارى ، وكذلك في اليوم التالي بحيث باتت تبرح الغرفة كل يوم فتقيم خارجها كل النهار ولا تعود اليها إلا عند هبوط الليل . وكان الناس يرون تلك المرأة تقف كل يوم قرب منزل فوسكارى وهي مبرقعة بالسواد فيقتربون منها حتى إذا عرفوا أنها امرأة الدوج حاكم فينيسيا السابق ابتعدوا عنها خائفين ، لأن كل من يتودد لهذه العائلة المحكوم عليها يعتبر شريكا لها

بالعصيان .

ولبتت على ذلك خمسة عشر يوما الى أن أتيج لها أن ترى فوسكارى ، فتقدمت منه وقالت : فوسكارى ، إنى أتيت اليك متوسلة . فأظهر فوسكارى علائم الضجر ، فضمت يديها وقالت له : إنى أتيتك ملتزمة فاسمع يا فوسكارى رجاء أم تتوسل اليك أن ترد لها ولدها . فوسكارى ، إنك لست من أهل الشر وإنك قادر على إخراج ولدي من سجنه بكلمة تخرج من شفتيك . فأجابها بحماسة : إن ولدك قد حكم عليه مجلس العشرة فلا أستطيع المداخلة بشأنه على الإطلاق .

ثم تركها وهو يحاول أن يركب القارب ، فركضت اليه والهة حتى اضطر أن يقف بالرغم عما فطر عليه من القسوة . وعند ذلك قالت له كل ما يمكن أن تقوله أم في مثل موقفها من الكلام المؤثر الحنون ، حتى إذا فرغت من حديثها التفت فوسكارى الى جنديين كانا يصحبانه وقال لهما : أبعدا عني هذه المرأة ولا تدعاها بعد الآن تقرب من القصر .

فأبعدها الجنديان بمنتهى العنف بينما كان فوسكارى يرقب القارب ، فسارت تلك المنكودة وهي لا تعي لباسها . وفي اليوم التالي نظرت صدقة في المرأة فرأت أن شعرها قد شاب يميلته وبات ناصع البياض وقد غارت عيناها وبرزت وجنتاها وشحب لونها بحيث لو رآها من كان يعرفها من قبل لما عرف أنها الدروجة سيلفيا امرأة الحاكم السابق ، تلك المرأة التي كانت تفتن الناس بأدبها وكرم أخلاقها .

على أنها إذا كانت قد بشت من فوسكاري فلم تياس بعد من أولئك النبلاء ذوي النفوذ ، فذهبت اليهم الواحد تلو الآخر فكان بعضهم يرفضون طلب مقابلتها وبعضهم يشيرون عليها بالخروج من فينيسيا . فلم تدع أحداً من أولئك الأعيان الذين كانوا يتزلقون اليها بالأمس حتى ذهبت اليه والنمست مساعدته فلم تظفر بمساعدة أحد .

وبينا كانت ذات ليلة تطوف باحثة عن مساعد جديد لقيت ذلك الرجل الذي دل عليها سكالابرينو يوم الثورة ودفع له مائة ريال كي يقتلها وهو يبو . فلما رآها يبو عرفها فنظر الى ما حواليه وقد خطر له أن يلقيها في الترع ، ولكنه رأى رجلين يسيران الهويناء في الطريق فانتشى عن هذا العزم . أما سيلفيا فقد ذكرت أن هذا الرجل كان يتردد الى منزلها وقد أكل مراراً على مائدتها وكانت تعلم أنه من أصدقاء ولدها فدنبت منه وحكت له أمرها ، حتى إذا فرغت من قص حكايتها تظاهر هذا المنافق بالحزن الشديد حتى لقد تظاهر أنه يسبح دموعه ثم قال لها بلهجة المشفق :

— إنك تعجبين يا سيدتي كيف أنك لم تجدي من يسعى لإنقاذ ولدك بين أصدقائه الكثيرين ، ولكنهم لم يمتنعوا عن ذلك لسبب وجيه . وأنا أعجب كيف أنهم لم يحسروا على إخبارك بهذا السبب ، أما أنا فإني رقيق الشعور وقد أثار علي حزنك تأثيراً عظيماً حتى عزمت على إخبارك بالحقيقة ، لأنه لا يروق لي أن أرى امرأة في مقامك الرفيع تطوف على الأبواب وتتوسل

الى الناس وتسالهم رأفة مستحيلة . وإنما أقول « مستحيلة » يا سيدتي لأن ما يريدك أصدقاء ولدك وما تريدته أنت يستحيل على مجلس التفتيش وعلى مجلس العشرة تنفيذه .

قالت : أعرف ذلك وأسفاه ! فإن الشرائع تحول دون تحقيق رجائي ، ولكن ...

فهز يبو رأسه وقال : ليس هذا الذي أعنيه يا سيدتي . قالت : إذن ماذا تعني ؟ قال : أعني يا سيدتي أنه لا يمكن إطلاق سراح الأموات !

فسقطت سيلفيا على ركبتيها وخرج من صدرها صوت يشبه صوت الحيوان عند الذبح ، إذ لم تستطع أن تقول كلمة أو تذرف دموعاً .

ثم نهضت وسارت في ظلام الليل ، فكان الناس ينظرون اليها كما ينظرون الى الأشباح الخارجة من القبور . ومنذ ذلك الحين لم تعد تقف عند باب قصر رئيس المفتشين ولم يعد يراها النبلاء ولم يعرف أحد من الناس مصيرها ما خلا تلك الفتاة المدعوة جواتا .

الحقد

*

لقد دعا الزمن الذي يجب علينا أن نزيح الستار فيه عن مقاصد

ببوم فنعلم كيف أنه يحقد على رولاند هذا الحقد ، وأي مآرب له
في وضع هذه الخطة التي قضت على رولاند وأسرته ، وكيف أنه
على ضعفه وهو في ذلك العهد راهبٌ بسيطٌ تمكن من استخدام
مثل فوسكاربي وألتباري وأمباريا للتنكيل برولاند .

ولأجل ذلك يكفي أن نسجع أقواله من فمه ، فإن هذا
الشقي بعد أن ضرب والدته سيفليا هذه الضربة الأخيرة جعل
يحدث نفسه فيقول :

إذن ، لقد تم لي الآن ما أريد . فإن المسيو رولاند سجين في
أعمق الآبار ، وهذا حقيقي فما أنا من الحالمين . وكذلك أبوه
الأبله ، فقد حملت عيناه ولم يعد يستطيع قضاء أمر . وهذه أمه
فقد سحقته سحقاً ، فباتت تلك العائلة ووجودها شبه العدم .
ويح لهذا الأبله ألتباري ! إنه أراد أن يقتل رولاند بالخنجر
وكاد يفعل لولا أن تداخلت في أمره ودرّبت هذه المكيدة .

والآن يا سيدي رولاند كانديانو .. إنك على عمق ثلاثين قدماً
في جوف الأرض تتعذب كما عذبتني بأقوالك عني ! أتذكر يا
سيدي رولاند حين كنت تقول : إن ببوم يكتفك كثيراً من
النفقات ؟ أتذكر حين كنت تجعلني هزماً في عيون النساء إذ
كنت تنظم الأشعار في قبح وجهي كي تضحكن عليّ ؟ نعم إني
قبيح المنظر وضيع النسب أحرقت الأرض غيظاً حين أوازن بيني
وبينك ، ولكن هذا التهم وهذا الهزء قد كتفأك ما هو أعظم
من الحياة .

أتذكر حين كنت تقول : مسكين ببوم ، إني أشفق عليه

فادعوه إلى مائتي كي أتسلى بمنظره وأحسن إليه ببالي فسأني من
الأغنياء وهو فقير ، وأنا ابن حاكم فينيسيا وهو من عامة الشعب .
فلا بدع إذا تبرعت عليه بالصدقات ومتى ضجرت منه تخليت
عنه !

مهلاً يا سيدي رولاند فسأني ما يكون من ببوم المسكين
حين أجمل في عيون النساء بعد قبحي ، وحين أتصدق على الناس
بعد أن كانوا يحسنون إليّ ، وحين يشير إليّ الجميع بالرهبة
والإحترام بعد أن كانوا يشيرون إليّ بالهزء كما علمتهم .

مهلاً يا سيدي رولاند فستصلك أنبائي وأنت في جوف
الأرض حين أكون قد بلغت أعلى قمة من الجهد .

ثم ضحكك ضحكة هائلة وتوارى في جنح الظلام .

السجن السابع عشر

*

مضى على ذلك ثلاثة أشهر ورولاند لا يزال في سجنه الرهيب
وكان لا يزال ضائع الرشد بحيث أنه لم يكن يعلم أين هو ولا
ماذا أصابه من الكوارث . فقد كان مما رأى من نكبة أبيه
شبه حالم لا يزعه شيء في ذلك السجن غير البرد حتى أنه ألف

هذا البرد تبعاً فلم يعد يشعر به شعوره الأول. وفوق ذلك فإن حارس السجن رآه مرة يرتعد من البرد فأعطاه دثاراً قصار يلتف به كلها ثم فوق سريره الحجري .

فبعد أن مضى ثلاثة أشهر شعر يوماً وهو يأكل أن صوابه قد عاد إليه فوضع يده على جبهته ثم ألقى قطعة الخبز التي كان يأكلها وقال : ما هذا الخبز العفن الجاف ؟ وقد نظر إلى ما حواله فوقف فجأة ومشى بضخ خطوات وهو يقول :

— ماذا أعمل هنا وأين أنا ؟

ولم يكن ذلك غير لحظة فعاوده الدهول وعاد إلى الأكل . غير أنه بعد بضعة أيام دخل السجن إليه وبجث في ذلك الظلام الحالك عن رولاند في سريره الحجري فلم يجده فنظر في جوانب تلك البئر بعينه المموّدين على الظلمة فرأى بريق عينيّ السجن ثم سمع منه زئيراً يشبه زئير الأسود ورآه قد وثب هاجماً عليه فأسرع وخرج من الباب وأحكم إقفاله وهو يقول : يظهر أنه قد عاد إلى الهياج بعد السكون !

أما رولاند فإنه حين وصل إلى الباب وجده مقفلاً فجعل يضربه بيديه ورجليه ويحاول فتحه دون أن يستطيع ، فارتد صاخباً ساخطاً وهو يقول : وريح لأولئك الجبناء ، إنهم اغتموا فرصة إغمائي فحملوني إلى هذا السجن .

وقد عاد إليه كل صوابه في تلك الساعة فعرف بعد البحث أنه سجين في بئر ، وأنه في ذلك السجن الذي لم يخرج منه أحد حياً ، وأنه سيدفن في هذا القبر ولا يرى ليونور قبل الموت ولا

يرى أمه ولا يرى فينيسيا وتزعها وقواربها الحقيقية ، ولا يرى سماه إيطاليا الزرقاء !

عاد إليه كل صوابه فعرف تلك الحقيقة الهائلة وتمنى أن لا يكون قد عاد إليه الصواب ، فأقام بقية ذلك اليوم وهو في أشد حالات الهياج يتمثل له موقفه فيشب إلى الباب ويعود عنه دامي البدين مقبوع الرأس وأهني القوى فيستريح هنيهة ثم يعود إلى ما كان عليه إذ لم يكن يريد التصديق أن مثله يكون في مثل هذا السجن .

وقد فعل ذلك عدة مرات حتى أيقن أن فتح الباب محال ، فعاد إلى مجلسه الحجري ووضع رأسه بين يديه وجعل يتعمّن في أمره فانتبه بعد هنيهة إلى أن شعره قد طال حتى بلغ كتفيه وأن أظافره قد طالّت كثيراً وأن لحيته كادت تبلغ صدره وأن ثيابه قد بليت لكثرة احتكاكها بالحجارة ، ولم يكن رشده قد عاد إليه قبل ذلك اليوم فعلم بعد الإمعان أنه كان مدة طويلة في حالة غير طبيعية .

وفي اليوم التالي دخل إليه السجن وهو مسلح بخنجر طويل فرآه هادئاً مطرقاً مفكراً فقال في نفسه : لقد عادت إليه السكينة أو عاد إليه الدهول . وعند ذلك ناداه فلم يجبه . وكرر النداء ، فلما رآه لم يجب ترك له الخبز والماء وانصرف عنه وهو يتوجع لمصابه .

ومضى على ذلك شهر لقي رولاند في خلاله أشد ما يلقاه القانطون حتى أنه لقد خطر له أن يهدم جدران البئر عليه وعلى

من يحاوره ويجرسه كما فعل شمشون . ولكن أنسى له ذلك وقد بُنيت هذه البئر على أمتن الدعائم ؟ فكان يهيج ثم يهدأ إلى أن وهنت عزيمته وبدأ دور الانحطاط .

وقد خطر له بعدد أن بقي على هذه الحالة ستة أشهر خاطراً أعاد إلى قلبه شيئاً من الرجاء ، وهو أن يجلس العشرة لم يحاكمه لأنه كان مصاباً بالشذوذ في فكره ، فإذا تمكن من إقناع حراس السجن بأن صوابه قد عاد إليه فلا بد للمجلس أن يحاكمه ويُطلق سراحه لأنه ليس من المذنبين ولم يأتِ أمراً يستوجب السجن ، لا سيما وأن له بين أعضاء المجلس أصدقاء مخلصين كالتباري ا فعمل منذ ذلك الحين يحدث كل سجنان يدخل إليه باللطف والجاملة حتى إنه كان يروي لهم النكات المضحكة فأنسوا به وجعلوا يدخلون إلى محبسه بالطعام بعدد أن كانوا يدخلونه من نافذة صغيرة .

وقد دخل إليه أحد اولئك الحراس يوماً فقال له : أرى أن السكينة قد عاودتك بعدد ذلك الهياج . قال : نعم ، فقد كنت مصاباً بنوبة تذهلني وقد ذهبت بمحمد الله !
— إذن لقد وجبت مكافأتك !

فاتشعقت عينا رولاند ببارق من الرجاء وقال : بماذا تكافئوني وكيف ؟

— بتعزية رجال الدين ... فقد أذن لأحد الكهنة أن يزورك ويعزيك عما أنت فيه .

— متى يحضر هذا الكاهن ؟

— في هذا اليوم ، وهي منتهى لم ينلها سواك . فإن كثيرين من المسجونين هنا يموتون دون أن يتلقوا بركات الكنيسة .

ثم تركه الحارس وانصرف ، وبعد هنيهة فُتح الباب ودخل كاهن قد غطى رأسه فاستقبله رولاند بملة الارتياح وقال له : أشكرك يا سيدي الكاهن لتفضلك بزيارتي بعدد أن تحلى عني الجميع . قال : لا تشكركي يا ابني بل اشكر الله .

— دع الله يا سيدي الآن حيث هو وحدثني عن الذين أحبهم .
— أيها المسكين ، أبلغ منك اليأس أن تتنكر فضل الله ؟
— إن الله لا يهتم في الآن فلا يشغلك أي لا أهتم به ، وإذا كان في صدرك قلب يخفق وفي عروقك دم لإنسان فأجيني .

فقال له الكاهن بلهجة غريبة : لا شك يا ابني أنك تعذب كثيراً . فقال رولاند : نعم ، وكيف لا أتعذب وأنا أدفن حياً في هذا القبر الذي أموت فيه كل يوم ألف ميتة ؟ فظهر على الكاهن كأنه يلتهم كلام رولاند وقال له : يا ابني ، إني أرثي لحالك . فارتعش رولاند لصوت هذا الكاهن كأنه قد سمعه من قبل ولكنه لم يحفل بذلك فمضى في حديثه فقال :

— لعلك تشفق علي يا سيدي متى عرفت حقيقة أمري ، فتصور يا سيدي أن أباك وأملك وخطيبتك وكل الذين تحبهم لا يبعدون عنك غير بضعة أمتار وراء هذه الجدران المظلمة وأنت تعلم أنهم يبكونك بدموع من الدماء ولا تستطيع أن تراهم ولا أن يروك . وأفزع من كل ما لقيت أنهم ألقوني في هذا السجن الرهيب دون أن أعلم السبب ودون أن يحاكموني ، فإذا أمكن

مثولي أمام مجلس العشرة نجوت دون شك فإن لي بين أعضائه
كثيراً من الأصدقاء مثل ألتباري ... وسواه .

— ألتباري ؟

— نعم . أملكك تعرفه ، قل .

— كلا .

— لا بأس ، فإنك تذهب إليه وتجبره بما سمعت ورأيت
أليس كذلك ؟ إنهم يعتقدون أني شاذ يا سيدي الكاهن وهذا
الذي منعه دون شك عن محاكمتي . ولكنك أنت من رجال الله
والمروءة وقد رأيت أني عادي بحيث تستطيع إخبارهم بأمري
وأنهم يقدرون على محاكمتي .

— إطمئن يا سيدي فسأخبرهم .

فأمسح رولاند إلى يد الكاهن فقبلها وقال له : لبيارك
الله يا سيدي ، فقل لي اسمك .

— إني من خدم الله وهذا هو اسمي واطمئن يا ابني فسأبدأ
اليوم فعل ما يجب فعله . وعند ذلك حاول الكاهن أن ينصرف
فقال له رولاند : أوتسل اليك يا أبي أن تمكث قليلاً فقد أعدت
ان قلبي الرجاء .

— لم يأذنوا لي يا ابني إلا بدقائق معدودة وقد انقضت .

— أوآه ! فإني كنت أريد ... وهنا بُحَّ صوته ولم يخرج

الكلام من شفتيه ، فقال له الكاهن : ما الذي تريده يا بني ؟

— أريد أن تحدثني عن ليونور .

— لا أعرفها ، فإني كاهن بسيط .

— في أية كنيسة تخدم ؟

— في كنيسة سانت فورموز .

فصاح رولاند صيحة فرح وقال : إنها تقيم على مسافة
خطوتين من هذه الكنيسة وهي ليونور ابنة دندولو .

— إذن سأذهب إليها ... وسأقول لها ... ولكن الوقت
أزف وهذا السجن قد أتى للبحث عني .

— متى تعود إلي ؟ إنك تعود قريباً أليس كذلك ؟

— نعم سأعود اليك بعد بضعة أيام فتعرف مني كل ما تريد
عرفانه . فأراد رولاند أن يقول له بعض كلمات تشفُّ عن
شكره ولكنه لم يجد كلمة يقولها فشكره بعينيه وأغنت هذه
النظرات عن ألف شكر .

أما هذا الكاهن فإنه حين خرج من العرفة وصعد في السلم
أزاح ذلك القناع عن رأسه فأنكشف عن وجه يمو وهو يتسم
ابتسام الأبالسة ويقول : لقد سمعتمهم يقولون إن أشد ما يعتذب
به الأسرى امتزاج الرجاء واليأس في قلوبهم .

نجاة دندولو

*

لندع الآن جهنم وماكنيتها ولنصعد إلى عالم الأحياء فنرى ما

صنع الدهر بأبطال هذه الرواية الذين يتوق القراء الى معرفة
أخبارهم .

مضى ثلاثة أعوام على هذه الثورة التي أخذ جنودها جنود
ألتباري وامسحت آثار أحزانها من النفوس ما خلا نفوس الذين
قتل لهم في هذه الثورة أب أو أخ أو حبيب ، فإنهم كانوا
يرددون أخبار هذه التكبئة همساً في الآذان .

وكان فوسكاري قد بلغ مراده فانتخب دوجاً بدلاً عن
والد رولاند وحكم بإلقاء الرعب في القلوب عملاً بالقاعدة السياسية
العقيمة المشهورة ، وهي إذا خيف الحاكم خير من أن يحب .
وقد اشترك أيضاً بملء المهارة في الأحكام العلية مع ألتباري
وسواه بحيث زاد نفوذه وقوته العسكرية .

أما بيبو فإنه ارتقى الى درجة كاهن ولبت على علاقته مع
الدوج بحيث كان يخلو أكثر الأحيان خلوات سرية مع فوسكاري .
وأما أمباريا فإنها بعد أن قبضوا على رولاند وزجئوه في
سجنه العميق رحلت فينيسيا الى فلورنسا كما كانوا يقولون ، ثم
عادت فبجأة الى ذلك القصر الذي وهبها إياه دافيليا وعادت الى
فتنة أهل فينيسيا يجالها الفتان . ولكنها خصصت جانباً من
ذلك القصر لإقامة فتاة قبه تبلغ من العمر زهاء اثني عشر عاماً .
وكانت هذه الفتاة تشبه أمباريا شبةً عجيباً كما أن أمباريا كانت
تحبها بملء جوارحها . فهل نسيت أمباريا رولاند ؟ وهل ندمت
على تلك الجريمة الهائلة التي دفعها اليها بيبو وغيرها ؟ وما الذي

حملها على أن تعود الى فينيسيا ؟ ذلك ما سنسطة الى القراء
دون شك في مقامه .

*

ولقد مضت تلك الأعوام الثلاثة وغيّرت الأيام أحوالها
وبدلت شقاهها وأفراحها ودفع بعضها بعضاً كما تدفع موجة
البحر موجة .

ففي إحدى ليالي شهر أيلول أتمت ليونور أشغالها البيئية في
منزلهم الكائن في جزيرة أوليفيو وجاءت الى أبيها كي تودعه
قبل الرقاد ، فأخذ دندولوا يدها بين يديه وقال لها اجلسي
قليلاً يا ابنتي يجاني . فامتثلت ليونور لأبيها وجلست وهي غير
عالة بما سيقوله لها .

كانت ليونور لا تزال على جمالها الساحر ولم يرّها أحد منذ
ذلك العهد قد تنهدت أو ذرفت دموعاً أو استرسلت الى التفكير ،
غير أن تلك الفتاة التي كانوا يلقبونها « عذراء الفقراء » كان
يظهر للناس أنها اعتزلت الناس بجملتهم وعاشت عيشة راهبات
الأديرة .

وجعل أبوها يتمن في وجهها تمنناً خاصاً على غير عادته
ويدها بين يديه فقال لها : ما ليديك باردة يا ابنتي ؟ قالت : ذلك
لأن الطقس بارد في هذا العام كما يظهر .

فسكت أبوها وسكنت هي فإنها لم تكن تتكلم إلا حين
يوجهون إليها السؤال . ثم قال لها : أتعلمين يا ابنتي بما أفكر
الآن ؟

— إني أنتظر يا أبي أن تقول لي .

— إني أفكر أنك بلغت عشرين عاماً يا ليونور وهذا السن سن الزواج حسب عاداتنا .

— إنك حادتنني يا أبي مراراً بشأن الزواج بالتياري ،
أست تريد الآن أيضاً أن تعود إلى البحث في شأن هذا الزواج ؟
إذن لنبحث فيه إذا كنت تريد ، وأما أمر صباي فدعه الآن
فليس لي شباب ولا كهولة ولنبحث في فوائدك الخاصة دون
فوائدي .

— إنك غخطئة يا ابنتي ، فلا شاغل لي غير هنائك .

— إذا كان ذلك يا أبي فإن المشكلة سهل حلها ، فإن هنائي
الوحيد أن أقم في هذا المنزل الذي ربيت فيه وأن أموت فيه
حين تدنو ساعتي الأخيرة .

— إذن أنت لا تريد الزواج من ألتباري ؟

— ولا بسواه يا أبي !

— أتأبين الزواج على الإطلاق ؟

— نعم !

— وإذا قلت لك إن سعادي موقوفة على هذا الزواج ؟

— أنا أعلم يا أبي أنك أصبحت فقيراً وضعيفاً وأن ألتباري

عني قوي وأنه يحبني وأنه اقترح عليك أن يشتريني بالثمن الذي
تعيته مها غلا ، أليس كذلك يا أبي ؟

— ليونور ، إنك شديدة القسوة !

— لماذا تريد تضحيتي على مذبح أغراضك ؟ ولماذا لا تريد

أن تعيش كما نحن عائشان ؟ إنك شديد المطامع ، ولكن لا تمس
قلبي بيد مطامعك فإنك تسحقه سحق الزجاج .

— إنك غخطئة يا ابنتي ، فإني لا أريد تزويحك لتحقيق
مطامعي بل لصيانة حياتي .
— حياتك ؟

— نعم حياتي ! فاعلمي إذن الحقيقة الهائلة... إني متهم منذ
ثلاثة أعوام بأني من الشائرين ، وهم لم يُبقوا عليّ إلى الآن إلا
بفضل ألتباري وبما بذله من الجهد في سبيل الدفاع عني . فإذا
تزوجت به نجوت من كيدته فلا يحسر أحد بعد ذلك على
اتهامي . وإذا أُبيت هذا الزواج قضي عليّ القضاء المبرم .

والآن فإن حرّيتي وحياتي بيدك ، وأنا لا أستشفع في ذلك
قلبك فإني لا أعلم ما جرى لهذا القلب بل لا أعلم ما جرى لك
حين أراك مقطبة الجبين تنظرين إليّ هذه النظرات القاسية
وتكلمينني بهذا الجفاء . على أيّ لا أقول لك شيئاً فوق ما قلت ،
فإذا قبضوا عليّ بعد أسبوع وألقوني في إحدى تلك الآبار الهائلة
واجترت بدوري جسر التهنيدات ، تقول الناس : إن هذا الشيخ
المنكود لم يقتله غير ابنته .

ثم خرج وهو يضطرب فلبثت ليونور جالسة على كرسيها
وهي مصابة بأشد من اضطرابه .

وفي اليوم التالي لقيها أبوها لا تزال جالسة على نفس الكرسي
الذي كانت عليه أمس وهي جامدة كالأصنام وقد بلغ منها اليأس
أقصى حدوده . فدنا منها ولمس كتفها وقال : ليونور !

فتنهت وقد انذهلت ذهولاً عظيماً لطلوع النهار فلما رأته
أقامت كل ليلتها على ذلك الكرسي دون أن تقتبه . فلما رأته
أباها واقفاً أمامها وهو يرتجف قالت له :

— قل لألتباري إني رضيت أن أكون إمرأته .

فصاح دندولاً صيحة فرح عظيمة وأخذ يد ابنته وحاول أن
يضمها إلى صدره ، ولكن ليونور أفلتت منه وذهبت إلى غرفتها
فأقفلت بابها من الداخل ومشت إلى سريرها . غير أنها لم تتمكن
من الوصول إليه فسقطت على الأرض مغعياً عليها صريعة اليأس .

أحوال تحت البحر

*

انتظر رولاند عودة الكاهن مدة طويلة دون أن يعود فندم
لأنه أبى أن يسمع عظامه الدينية وحسب أنه حقد عليه فألى على
نفسه أن يرضيه حين يعود . وقد أقام أسبوعين ينتظر وهو كل
ما سمع وقع أقدام أسرع إلى الباب ووقف مصغياً .
وكان مثال ليونور لا يفارقه خلال هذه المدة فإنها كانت
تتمثل له في كل سبيل فيناجيه وتناجيه كما كانا يفعلان حين
خلوتهما تحت تلك الأرزة الكبرى فيتعزى بقرنها الوهمي على ما

هو فيه . على أنه كان كل ما طال مدة غياب الكاهن يشتد قلبه
ويعود إلى ما كان عليه من اليأس ، إلى أن كبر عليه الأمر يوماً
فسأل السجان قائلاً : أتعلم أيها الصديق كم مضى على زيارة ذلك
الكاهن لي ؟ قال : نحو عام !

ثم أن أنيناً مزعجاً وانطرح على سريره الحجري ! فقال
السجان في نفسه ، لقد عاد إلى اليأس ، ورجائي أن لا يعود إلى
غضبه القديم فإنه لا يطاق !

وقد لقي هذا التمس المتكود أشد ما يلقاه أهل القنوط
وعاد إلى العنف والغضب حتى انقطع السجان عن زيارته وجعل
يحادثه من الشباك . وكان يشتد استياؤه حين يحضرون الطعام
إذ يعلم يقيناً أنهم لا يريدون قتله وهو لا يريد غير الموت . ولم
يكن يعيش في خلال هذا العذاب إلا بفراجه فإنه كان يذكر
اسم ليونور ألف مرة في اليوم ولا يرى في تلك الظلمات المحدقة
به غير وجهها . وقد ساعده على احتمال هذه النكبات قوة
أعضائه فقد كان يلقب برولاند القوي .

وفيما هو يحول يوماً في سجنه كما يحول الأسد في قفصه عثرت
رجله بقطعة من الفخار فتذكر أنه مرة في إبان غضبه كسر
الإبريق الذي كان يحضره له السجان فأحضر السجان له بدلاً منه
وترك بقايا الإبريق القديم . وقد جرحت هذه القطعة رجله إذ
كان حافي القدمين فإن الحذاء الذي كان يلبسه يوم حفلة خطبته
قد أخنت عليه الأيام كما أخنت على ملابسه ، ولو لم يعطه السجان
ذلك الدثار لمات من البرد دون شك . وترتب رولاند على سريره

وجعل يمسح بدثاره الدم الذي سال من رجله .

وفيا هو على ذلك سمع صوت غناء فجعل يصغي إصغاء شديداً ، وارتاحت نفسه إلى ذلك الصوت لا لأنه صوت غناء بل لأنه صوت بشر وقد طال حينه إلى صوت الناس . وعلم بعد الإصغاء أن هذا الصوت لم يكن واحداً بل كان جملة أصوات رخيمة نسائية فأيقن أنها أصوات نساء يتزهن في قسارب وهن ينشدن نشيداً غرامياً انكشبت له نفسه فإنه سمع هذا النشيد وفهم كلامه فعلم أنه قصيدة له كان قد نظمها قبل سجنه لحظيبيته ليونور فانتشرت وذاعت بين الناس على كل شفة ولسان . واشتد به اليأس وجزع جزعاً شديداً فقال :

وأسفاه ! إني حين كنت حراً ونظمت تحت السماء المرصعة بالنجوم هذا الشعر الجميل الذي أوحاه إليّ الغرام أكان يدور في تحلد أحد من الناس أني سأسمع هذا الشعر نفسه وأنا سجين على عمق ثلاثين قدماً من بطن الأرض !!

وبح هذه القصيدة فإنها بعد أن كانت صوت الحياة أصبحت لدي صوت الموت ، فإن كل شيء في الوجود يحيا خارج هذا القبر أما أنا فأموت فيه !

وعند ذلك جعل يسير في تلك البئر ذهاباً وإياباً وهو لا يشعر يجرح رجله ويقول : لا بد لي من الخروج من هذا الضريح ! وكانت هذه أول مرة خطر له فيها خاطر الفرار . ولكن كيف يمكنه نزع هذا الحجر العظيم الذي ختموا به ضريحه ؟ فإن ذلك كان يبدو له مستحيلاً في بدء الأمر لأنه على

عمق ثلاثين قدماً في جوف الأرض وجدران البئر الموجود فيها كثيفة وباب سجنه من خشب السنديان المصفح بالحديد ومركز الحراس على مقربة من هذا الباب .

وجلس فوق سريره الحجري وقاه في مهامه التفكير وفيما هو على ذلك شعر بألم رجله قد عاوده فصاع صبيحة فرح وأسرع إلى بقايا الإبريق المكسور فجمعها كلها وجاء بها فخبأها تحت سريره كأنها كنز عظيم لأن هذه البقايا المحدودة الأطراف كان يرجو أن تكون آتاه للخلاص .

*

ولم يبدأ لغوره بالعمل بل إنه جعل يفكر بمشروعه العظيم بضعة أيام حتى استقر رأيه على أن النجاة ممكنة له بالصبر الطويل . وذلك أنه كان يعرف أحوال السجون ويعلم أن هذه البئر المقيم فيها مبنية تحت سطح البحر وأن الأمواج تلتطم في أعلاها فإذا انتزع حجراً من جدران البئر انكشف عن جدار آخر يتصل أعلاه بجسر التهنيدات المشرف على البحر ، فلا يبقى عليه إلا أن يفتح هذا الباب ويتسلق ذلك الجدار ويشب منه إلى المياه من فوق الجسر فينجو .

إن المشروع كان سهلاً معقولاً ولكن أين له أن ينتزع هذا الحجر الضخم وليس لديه من الآلات غير أظافره وقطع الإبريق ؟ على أنه لم يقنط . وبدأ في اليوم التالي العمل فأخذ إحدى قطع الإبريق وجعل يزيح بها الطين اللاصق بالحجر .

وأقام على ذلك مدة طويلة وهو كلما أخرج شيئاً من التراب حملاً
وفرشه في سجنه وتحت سريره . وكان يخرج له مع التراب بعض
قطع من الحجارة الصوانية الصلدة فيستخدمها للحفر بدلاً من
قطع الإبريق .

ولكنه كان يعمل كالعامل في عمله ، فإن ثخانة الحجر لم
تكن تقل عن خمسة أقدام وهو يضطر إلى إخفاء التراب الذي
كان يزيله وإخفاء صوت حفره عن الحراس .

وأما إخفاء التراب فقد تقدم لنا أنه كان يخفيه تحت سريره
ويفرشه على الأرض . وأما إخفاء صوت الحفر فقد عمد فيه إلى
الحيلة بإبعاد الحراس وذلك أنه كان يوم حارسه أنه عاد إلى
الجون فهاذا سمع وقع خطواته جعل يزجر ويصيح مغضباً ناقماً
حتى إذا دنا منه الحارس صاح به صيحة منكرة وهجم عليه
هجوم المنتقم فلا يجد الحارس بدأ من الفرار بحيث بات يضع له
طعامه في النافذة ، وهو لا يحضر غير مرة في كل يومين بحيث
أمن رولاند مراقبته وجعل يستغل آمناً مطمئناً في مهمته الصعبة
التي لا يحظر الإقدام عليها لأحد في بال .

ولا تطيل وصف ما لقيه هذا المنكود من العناء حرصاً على
صبر القارىء . ولكننا نقول إنه بعد شغل ستة أعوام وكان
معظمها عملاً إذ لم يكن ينام غير خمس ساعات في اليوم ، تمكن
من نزع هذا الحجر فتنفّس الصعداء ومدّ رأسه من ذلك الباب
الذي فتحه وهو يرجو أن يجد منه ما كان يطمع فيه .
ولكنه ، وأأسفاه ، لم يجد ذلك الجدار الذي كان يعدّه

طريق الخلاص ، بل وجد فوق ذلك الحجر الذي انتزعه حجراً
آخر فعلم أنه سجن فوق سجنه وقبر آخر فوق قبره . فارتدّ
قائلاً مصعوقاً لرجوعه بالحياة بعد صبر ستة أعوام .

وأقام يومين وهو مطرق يفكر بما قاساه من العناء وكيف
أنه كان يفرس أظافره بالحجارة حتى تتكسر وتسيل دماؤه ،
وكيف أنه مضطّر إلى أن يعود إلى العمل أعواماً طويلة أيضاً ،
وكيف غلط بحسابه وهو من العارفين بهندسة هذه السجون ،
إلى غير ذلك من هذه الأفكار ، فيشتدّ به اليأس حتى يعزم على
الانتحار . ثم يعاوده الرجاء فيرجع عن عزمه وقد انحطت
قواه . وقد تتمثل له ليونور فتشدّ قواه ويذكر أعداءه فيهبج في
صدره الانتقام وتعود إلى نفسه العظيمة تلك الهمة الشاه .

وما زال على ذلك إلى أن خطر له أن يفتح ذلك السجن
الجديد ويدخل إلى قبر آخر ليفعل الله ما يشاء ، فقد يكون
ذلك القبر الجديد باباً للحرية وسبيلاً إلى الحياة .

وعند ذلك عاد إلى ذلك المنفرج الذي انكشف له حين أزال
الحجر وتسلق أعلاه ، أي إلى ذلك السجن الجديد الذي ظهر له
وأخذ يعالج أكبر حجر فيه إلى أن تمكن بعد شهرين من إزالة
الحجر .

فتقلد بيده صوانة تشبه الخنجر ومدّ رأسه من ذلك المنفرج
فظهر له رجل كان ينظر إليه نظرات تشف عن الرعب ، فرفع
رولاند الحجر بكتفه وقد عزم على الدخول إلى هذا السجن
الجديد فإما يقتل أو يقتل .

لقاء في أعماق الأرض

*

عندما رفع رولاند الحجر بكتفه دفعه إلى داخل السجن عند قدمي ذلك السجين . أما السجين فإنه لبث واقفاً في مكانه وقد أخذ منه الرعب فقال له رولاند بصوت أجش : من أنت ؟ فلم يجبه الرجل لغوره وكانت هيئته تدل على التوحش ، فتمعن رولاند قليلاً ثم تنهد تنهداً عميقاً وقال :

— سجين ؟

فبدت ملامح البشر على رولاند وجعل يتقرس بهذا الرجل الذي لم يكن قاضياً ولا جلاداً ولا سجاناً بل كان سجيناً مثله وقد يكون أيضاً ضحية مثله فقال له : كم بقي لك في هذا السجن ؟ قال : لا أعلم .

فجنّ رولاند عليه وبسط له يده ولكن الرجل ابتعد منذراً فقال له رولاند : إني سجين مثلك ، ولقد لقيت من الشقاء نفس ما لقيته ، فكيف لا تصافح تلك اليد التي أمدتها إليك وتقبل ذلك الإخاء الذي أعرضه عليك ؟ قال : أتعلم من أنا أيها الرجل الذي يطلب إسائي ؟ إني كنت من كبار المجرمين

الذين ترتعد لذكورهم الإنسانية ، فقد سرقت وقتلت وارثكبت جميع الآثام ، وعندما كنت من سكان الأرض كانت النساء تخيف أبناءها باسمي فيرتعدون كما يرتعدون لاسم إبليس ، بل كان حراس السجون أنفسهم يخافونني ويحسبونني وحشاً مفترساً فلا يدخلون إلى سجنني إلا وهم مسلحون بخناجرهم . وعلى الجملة فقد كنت لصاً سفاكاً سفاحاً يهرب مني الناس أين كنت .

أما أنت فقد يكون لك من يبكيك خلافاً لي فلا أب لي ولا أم ولا أخ ولا عائلة ، فإذا نكبت وشقيت وجعت وبردت فلا أحد يحزن لحالي ويعلم أمري . وهذه يدي الملطخة بدم جرائمنا فصافحها إذا كنت تجسر .

وعند ذلك بسط له يداً وتحنف فصافحه رولاند وقد سألت دمعة من عينيه فقال له الرجل : إذن لم تحف مني ؟

— كلا ، بل أشفقت عليك !

— ولا ترفض موالاتي ؟

— إنك ترى .

— ومع ذلك فقد قلت لك إني من زعماء اللصوص .

— إنك سجين مثلي وسأحاول أن أعزيتك ، فإني وجودك وحده يعزيتني .

— اسكت ... اسكت فإن صوتك يؤثر بي أبلغ تأثير .

— مسكين ! أملك شقيت أكثر من شقائي ؟

— كلا ، بل لأنك تكلفني برفق وحنان !

ثم وضع رأسه بين يديه واسترسل إلى البكاء فجعل رولاند

ينظر اليه ويقول في نفسه : كلا ! إنه لم يلقَ مثل شعائني إذ لا يزال في عينيه دموع ! ثم قال له :

- صبراً أيها الصديق ولا تجزع فقد تمكنت وحدي من نقب الأرض والوصول إليك ، فإذا كنا اثنين يشتغلان فقد نهتدي الى طريق الخلاص .

- ماذا تقول ؟

- أقول إننا إذا عملنا بدأ واحدة فقد يتيسر لنا الخروج من هذا السجن .

- كيف ذلك ؟

فأخذه رولاند بيده وأراه ذلك المنفرج الذي حفره فاندش الرجل وقال له : كيف توصلت الى ذلك ؟ قال : إني بدأت الحفر بقطعة إبريق محطم ثم بما كنت أجده بين التراب والأخشاب من الحجارة والمسامير ، فأنت ترى أن الأمر بسيط . فنظر اليه الرجل نظرة إعجاب ، ومضى رولاند في حديثه فقال : ولكنني أخطأت في الحساب ، ولا بد لي من معاودة الحفر . فهزّ الرجل رأسه وقال له : إلى أين ترجو أن تصل بعد الحفر ؟

- إلى التربة .

- ذلك محال .

فسال العرق البارد من جبين رولاند وقال : كيف تقول محال ؟ أملك عارف مهندسة السجن ؟

- أصنع لي أيها الرفيق فإني لست هنا إلا منذ بضعة أيام .

- أين كنت قبل ذلك ؟

- كنت في سجن غير هذا يشرف على التربة من نافذة

حديدية فرأيت جميع الضواحي وسراي الدوج وجسر التهنيدات والتربة . وأنا أيضاً خطر لي أن أحتال على حديد النافذة وألقي بنفسي الى التربة من ذلك العلو ، ولكنني رجعت بعد الإمعان عن هذا العزم .

- لماذا ؟ ... لماذا ؟

- لأن الحراس يحرسون التربة دائماً فلا يكاد السجين يصل اليها حتى يصلوه بنار بنادقهم .

- ولكن في الليل .

- وكذلك في الليل ، فإن الحراسة فيه تكون أشد . وقد راقبت ذلك حين دخولي الى السجن وعلمت أنهم يبالبون هذه المبالغة بالحراسة لحرصهم على رجل خطير مسجون ولخوفهم من فراره . فثقت أيها الرفيق أن من يدخل الى هذا السجن لا يخرج منه حياً .

فأيقن رولاند أنه هو ذلك السجين الخطير الذي يحرص عليه مجلس العشرة هذا الحرص . ومضى الرجل في حديثه فقال : ومع ذلك فلو سلمنا جدلاً أن الفرار ممكن فذلك لك لا لي .

- لماذا ؟

- لأنهم سيحبكون عليّ بالإعدام ، وأنت تعجب كيف أقول لك هذا القول بلاء السكينة ، وذلك لأنني أؤثر الموت ألف مرة على هذه الحياة الشقية . أما الآن فإن المجلس ملتئم والقضاة يتداولون بأمرني وسيأتي السجنان ويقول لي إن الجلاد ينتظرني .

- الجلاد ؟

- نعم ! فإني منذ خمسة عشر يوماً هاج غضبي على حارس سجنني فضربته ضربة شديدة لم تقتله ولكنهم اعتبروا أنني حاولت قتله فنقلوني إلى هذا السجن وقالوا لي إنه معدة للمحكوم عليهم بالإعدام .

- صبراً أيها الصديق وتشجع فقد يبكون عليك .

- كلا ! فإنهم يقتلونني هذه المرة .

- كيف تقول هذه المرة ؟

- نعم ، فإنهم عفوا عني يوم قبضوا عليّ في حين أنهم كانوا قد عيّنوا جائزة لمن يقتلني .

- إذن كيف صفحوا عنك ؟

- لأنني خدمت مجلس العشرة كما يظهر خدمة جليلة ، وبما ويحي من هذه الخدمة ! فإني حين أفكر بها أعتبر أنها أعظم جريمة ارتكبتها في حياتي !

- ما هي هذه الخدمة ؟

- أية فائدة من ذلك ؟ فقد قضي الأمر وسأقتل دون شك .

- لا بأس ، فأرجو أن تخبرني لماذا تعدّ خدمتك لمجلس

العشرة أعظم ذنب ارتكبته .

- لأنه بسبب هذه الخدمة أصيبت عائلة بأسرها بضربة

قاسية وهي بريئة مما اتهمت به براءة الذئب من دم ابن يعقوب .

ولكن دعني بالله أموت دون أن أحيي هذه التذكريات التي تدوب

لها نفسي فقد أموت بسلام إذا تمكنت من نسيانها .

- ولكن أتوسل اليك أن تخبرني بكل ذلك .

- إذن ليكن ما تريد ، فقد أشقت عليّ منذ ساعة فقلت

اليك وسمعت صوتك الحنون فبكيت ، وفوق ذلك فإن إسامي

إلى هذه العائلة لا يكفينا عقاب الموت وسأجعل تذكراها في

ساعتي الأخيرة عقاباً أشد . فاعلم إذن أنه كان يوجد في فينيسيا

عائلة سميدة يجسدها الناس لهاها ووجاهتها وكان أبو هذه العائلة

الدوج ...

فارتعش رولاند وأصغى أتم الإصغاء ، فقال السجين :

- وكان للدوج والدوجة ولد شاب فتن الناس بأدبه وشعره

وظرفه وقوته ودعة أخلاقه ، وقد أحب هذا الفتى فتاة ندية

مثله وأحبته هي حب عبادة ... ولكن مسالي أراك تضطرب

أيها الصديق وأنا لم أبدأ حكايتي بعد ؟

- امض في حديثك .

فوضع السجين إصبعه على فمه وقال له : اسكت . ثم أصغى

هنيهة وقال : أسرع بالانجفاء فقد أتى حارس السجن .. ووثب

رولاند إلى الحجر الذي تزعه ورفعته من موضعه ، ونزل وهو

يقول : سأعود اليك .

وعند ذلك فتح الباب ، وكان السجين قد بسط رداءه فوق

الحجر كي لا يظهر منه أثر ، فدخل حارس السجن يصحبه اثنا

عشر جندياً يتقدمهم قاضٍ بالملابس الحمراء ، فدنا القاضي من

السجين وقال له : قف واسمع تلاوة حكم مجلس العشرة .

فوقف السجين وتلا عليه القاضي صورة الحكم بسرعة عظيمة

ولكنه فهم أنهم حكوا عليه بقطع الرأس فقال :

— حسناً ، فمتى تريدون تنفيذ الحكم ؟

— كيف ذلك ؟ ألم تفهم ما تلوناه عليك ؟ إن المحكمة أذنت لك بالحياة إلى الغد كي تلتمس عفو الله ، فهل تريد أن تخضر لك كاهنًا ؟

— ماذا أصنع بكاهنكم ؟

— إنا نرسله اليك فأصغ إلى صلواته والتمس منه عفو الله عنك .

— لا . أقسم بالله بل أقسم بالأبالسة أنه إذا وصل إليّ هذا

الكاهن خنقته وقتلته شر قتيل .

وإنما رفض الكاهن لأنه تذكر ما قاله له رولاند أنه سيعود إليه .

فقال له القاضي : ذلك إليك ، فمت أيها الشقي إذن موت الكلاب . وأنت أيها الجلاد إبدأ بأجباتك .

فدنا منه الجلاد عند ذلك وألبسه في رأسه كيساً أسود يصل إلى ركبتيه وهو كيس شفاف دون أن يغلّ يديه فانهم لا يفعلون ذلك إلا ساعة الإعدام . فارتعد السجين حين أحس بهذا الكيس ووقف بعد خروج الجميع من عنده مضطرباً قلقاً ، فانه على شدة توقه إلى الموت جزع منه حين شعر باقترابه ، فتنهّد تنهّداً طويلاً وقال : أقضي عليّ بالموت ؟

وذلك أنه لم يكن يخشى الموت حين كان باقياً له رجاء بالحياة فلما انقطع الرجاء ذهب الجرأة واشتدّ الجزع وباتت تلك الحياة

التي كان يجدها شقية في السجن حياة غبطة وهناك في عينيه . وجلس على سريره ووضع رأسه بين يديه ونهّ في عالم الخيال وظلمات اليأس . وفيها هو كذلك شعر أن يداً قد وضعت على كتفه فاهتزّ اهتزازاً عنيفاً والتفت فرأى رولاند فقال له : أهذا أنت ؟

فوقف رولاند ينظر إليه نظرات تنقد فارتمش لهذه النظرات ونزع الكيس الذي ألبسه إياه الجلاد فطرحه في زاوية السجن وقال لـ رولاند : إنك ترى يا سيدي بأني ساموت .

— متى ؟

— غداً صباحاً .

وكان شديد الاضطراب كثير الملح غير أن السكينة جعلت تعود إليه تبعاً .

فقال له رولاند : إذن سموت ؟ قال : نعم ، فلماذا تنظر إليّ هذه النظرات ؟ فلم يجبه رولاند على سؤاله وقال له : إنك كنت بدأت بأن تقصّ عليّ حكاية ...

— حكاية ؟

— نعم ، حكاية تلك العائلة التي كانت سعيدة والتي نكبت وتفترقت بسببك .

— نعم ، نعم .

— إن الأب حملوا عينيه ، أليس كذلك ؟ والأم ماتت من الحزن والولد زجّ في أعماق السجن ، وخطيبته ... قل ... ماذا جرى لخطيبته ؟

فدعر الرجل وقال له : أرى أنك عارف بأسرار هذه
الحكاية فمن أنت ؟ نعم ، من أنت ؟
- بل قل أنت من تكون ؟
- أنا سكاللا برينو اللص الشهير .

فجعل رولاند يبحث في ذاكرته وهو يردد اسم سكاللا برينو
ثم قال : ماذا تفيد الأسماء الآن ؟ فقل لي بهذا أسماء اليك الدوج
كانديانو فأعنت عليه مجلس العشرة حتى ضربه هذه الضربة ؟
وبم أسماء اليك امرأته سيلفيا وخطيبة ولده ليونور ؟ قل أيها
الشقي ! وبهاذا أسأت اليك أنا ؟ ثم قبض على يده وضغط عليها
حتى أوشك أن يسحقها .

أما سكاللا برينو فإنه كان ينظر إلى رولاند وهو يكلمه
بانذهال ، ثم تحول الإنذهال إلى رعب ثم إلى يأس حتى إذا قال
جملته الأخيرة شفق شفقة وسالت الدموع من عينيه وجسا على
ركبته وقرع الأرض يجيبته وهو يبكي وينتعب ويقول :

- لقد عرفتك الآن ! فأنت مولاي رولاند ! أواه ما أشد
شقائي فإني لم أرك إلا في ساعتي الأخيرة . فتأثر رولاند بكائه
وتحول غضبه إلى شفقة فقال له برفق : إنهض . قال : إني أرى
يا مولاي من نبرات صوتك أنك تعفو عني أيضاً ، فلماذا خلق لك
هذا القلب الكريم ؟ ولماذا لم تقتلني عند جزيرة أوليفو حين
غلبتني وأشهرت عليّ خنجرك ؟

فعرف رولاند عند ذلك سكاللا برينو وذكر تلك الحادثة
القديمة التي جرت له معه قبل حفلة خطبته بيوم ، فقال له :

أخبرني بكل شيء ولا تقل غير الحقيقة . قال : إن المرء لا يكذب
يا مولاي في ساعة موته ، وفوق ذلك فإني أقسم لك أنني ندمت
وأن ندامتي كانت صادقة .

- أندمت حقيقة ؟

- نعم لقد ندمت بعد فوات الأوان ، وقد بدأ تاريخ توبيخي
حين قلت لي « إنك لم تحف ولذالك أعفو عنك » ، فلم أكن أودّ
إلا أن أسفك دمي في سبيل خدمتك . ألا تذكر يا سيدي أنني
حاولت أن أكلمك ساعة عفوت عني وأبسط لك الحقيقة ،
فأبيت سماعي ؟

فوضع رولاند يده على جبينه وقال : نعم ، لقد ذكرت ،
فإذا كنت تريد أن تقول لي ؟

- كنت أريد أن أقول لك إن المرأة التي أنقذتها ...

- المحظية ؟

- نعم ، إنها هي التي استأجرتنا كي نكمن لك وتقبض عليك
دون أن نسيء اليك .

- أتمّ حديثك ...

- إن هذه المرأة أرادت دون شك أن تعلم كيف تنفذ أمرها
فوقفت في موقفها . ورأى رجالي ما كان عليها من الحلى الثمينة
فطمعوا بها وهجموا عليها فاستغاثت وأنت تعرف البقية . ولكن
الذي لا تعرفه يا مولاي هو ما حدث بعد ذهابك ، أي في اليوم
التالي وهو يوم خطبتك ، ألا تذكر ذلك اليوم ؟

فوضع رولاند يده على صدره كأنه خشي أن تنتزع هذه

الذكرى قلبه وقال : نعم أذكر . قال : إنه في تلك الليلة بعد أن ذهبتُ مع المحظية لقيتُ رجل فقال لي : «إنك تدعى سكالاً برينو وإنك محكوم عليك بالإعدام وقد وضعت الحكومة جائزة لمن يقتلك ، فهل تريد أن تتال عفواً تاماً وأن تكسب فوق ذلك مالا كثيراً ؟ قلت : ماذا تريد أن أصنع مقابل ذلك ؟ قال : لا شيء سوى أن تذهب غداً إلى ساحة سانت مارك مع من تستطيع حشدهم من رجالك فتصيحوا بأعلى أصواتكم و ليحيي رولاند كانديانو » . فقلت : إذا كنت لا تريد مني إلا أن أهتمف لهذا الرجل فلنني أهتمف له كل حين ولولم أكتسب شيئاً . قال : إذن لقد اتفقنا .

فقال له رولاند : من هو هذا الرجل ؟

— إنني لم أعرفه يا مولاي .

— وماذا جرى بعد ذلك !

— إنه تقدني ما وعدني به من المال ثم قال لي : يحسن بك غداً أن تحضروا مسلحين بالبنادق ، فإذ أقبل الجنود لصياحكم وحاولوا منعكم عن الهتاف فاستقبلوهم بإطلاق البنادق . قلت : إذن تريد أن تثير معركة ، وسأثيرها فلنني أحب المعارك . وعند ذلك هز سكالاً برينو رأسه وبدت عليه علامات الحزن الشديد فقال : إن هذا الذنب ذنبي الوحيد يا سيدي ، فإن المعركة ثارت بين الشعب والجنود بفضل صياحي فتغلب الجند على الشعب . وفي اليوم التالي اتصل بنا نبأ القبض عليك ... ولكن ليس هذا كل شيء .

فمسح رولاند العرق عن جبينه وقال : أتم حديثك . قال : إنه في نفس تلك الليلة التي نشبت فيها المعركة جاءني الرجل نفسه الذي أغراني بالهتاف لك فدلني على امرأة وقال لي : « اختطف هذه المرأة واقتلها » .

فاختطفتم المرأة يا مولاي ولكني لم أقتلها لسبب لا أعلمه وما كان أشد سروري حين عرفت من هي .

— من هي ؟

— إنها كانت أمك يا مولاي .

— أمي ؟!

— نعم أمك ! فإنها كانت قد جاءت إلى ساحة سانت مارك

كي تحض الشعب على إنقاذك ...

فشوق رولاند شهقة كادت تودي بحياته وقال : وارحمته لك

يا أمته كم شقيت من أجلي !

قال سكالاً برينو : إنها شقيت يا سيدي إلى حد أسالت فيه

دموعي ، أنا الذي لم أبك في حياتي والذي كان يلقبني اللصوص

بالرجل الصخري .

وقد حاول سكالاً برينو أن يتم حديثه ولكن رولاند وضع

يده على فمه وقال له : أسكت واصبر . ذلك أنه شعر بأن قلبه

ينفطر . ولم تسلم الدموع من عينيه فإنها ذهبت منذ عهد بعيد .

ولكنه شعر أنه يبكي في داخل نفسه وأن الدموع تسقط كسقوط

الرصاص الذائب على قلبه .

وأقام نحو نصف ساعة يتألم لهذا الحزن الجديد ثم شعر بأن

هذا الحزن أخذ يزول تبعاً ويحلّ محله الحقد وحب الانتقام
فالتفت إلى سكالابرينو بعد إطراقه وقال له : لقد قلت لي إن
أمّي كانت تحاول إنقاذني .

— نعم ، ولكن الجنود تغلبوا على الشعب كما قلت لك وقد
انتهت أمك عندي في منزلي فلما عرفت حقيقة أمري سألتني إذا
كنت أريد مساعدتها في إنقاذك ، فقلت لي أسفك آخر نقطة
من دمي في هذا السبيل .

ثم رولاند يده إليه فصافحه وقال له : إنك رجل .
فصافحه سكالابرينو وقال له وهو يبيي : إنك بكرمك يا
سيدي ستجعلني أسف على الحياة .

ثم أشرق برأسه إلى الأرض وقال : وبعد أن اتفقت مع
أمك برحت المنزل لأنفذ أول أمر أصدرته إليّ . فلما بلغت
منطلقاً ضيقاً هاجمني فجأة نحو عشرين جندياً فقلوبني إلى
الأرض وأحكوا وقاتي وحملوني إلى السجن . وهنا قالوا لي إنهم
عفوا عن قتلي بسبب الخدمة التي خدمتهم بها ليلة حفلة خطبتك ،
وبعد ذلك لم يقولوا لي شيئاً . والآن يا سيدي ... إنهم سيقطعون
رأسي بعد بضع ساعات . ولكنني أموت قريح العين ناعم البسال
لأن أمك صفحت عني ولأنك صفحت عني وقلت إنني رجل !
وسكت الاثنان بعد ذلك وكان كلاهما يفتكران بأمر واحد
كشجرتين اقتلعتهما رياح العاصفة فوقعتا جنباً إلى جنب إلى
حيث جرفتها السيول وهذا التيار الجارف ينتهي بها إلى
أوقيانوس اللانهاية ، أي إلى العدم ، أي إلى الموت ! نعم ، فإن

الموت كان في تلك الساعة بغية الاثنتين ، فإن سكالابرينو لم يعد
يرهب الموت بعد ذلك الصبح ، وكذلك رولاند فإنه بات يشتهي
الموت بعد ما علمه من سكالابرينو وقد عول على الانتحار بعد
ما انتضح له أن كل ما عمله في سبيل الفرار ذهب سدى وأن
هذا الفرار بات مستحيلاً وأنه قدّر عليه أن يفارق ليونور وأباه
وأمه إلى الأبد !

ونظر بعين الخيال نظرة سريعة إلى تلك الأعوام التي
سيمكثها في ظلمات سجنه كما ينظر من يسقط من قمة جبل عالٍ
إلى الهاوية التي سيهبط فيها .

ورأى نفسه أنه في مقتبل الشباب وأنه لا يزال قوياً بحيث
أنه يستطيع أن يعيش أيضاً ثلاثين عاماً بالرغم مما يلقاه في هذه
الأعوام التي سيموت فيها ألف مرة لا سيما ان ليونور ستناديه
فيها بصوت خافت نداء القانطات ولا يستطيع أن يلبي نداءها !
رأى كل ذلك ورأى أنه لا ينقذه من عذاب الجسد والنفس
غير الموت ، فابتسم لهذا الموت وارتاح إلى استقباله وعادت إليه
السكينة .

ولما صحّت عزيمته على الموت جعل يفكر بطريقة الوصول
إليه فخطر له ثلاث طرق إحداها أن يمتنع عن الطعام فيموت
جوعاً ، والثانية أن يضرب رأسه ضربة شديدة بحجر سجنه
فينفلق ، والثالثة أن يطعن قلبه بذلك الحجر الصواني الذي
عالجه حتى صار كالحجر فيموت ويستريح .

ولكن تمثل له أن هذه الضربات قد لا تكون قاضية فكم

يكون عذابه بها إذا لم تجهز عليه ، وأن الانتحار بالجوع قد يتغلب فيه عذاب ذلك الجوع على الإرادة فيهم على الحبز الذي كان يمتنع عنه . فكانت هذه الأفكار تجول في غيخته فيرى أن الموت غير سهل ويقول: رياه ماذا أصنع ؟ وفيما هو على ذلك سمع سكالا برينو يتمتم قائلاً :

— هي هنيئة نضي فسيأتي الجلاد !

فاهتر رولاند حين سمع قوله وخطر له خاطر غريب فجأني.. فالتفت إلى سكالا برينو وقال له وهو يتسم: إطمئن يا سكالا برينو فانك لا تموت !

رعود وعواصف

*

أما سكالا برينو فانه نظر إليه نظرة اندهال لا توصف فقد ظهر له رولاند في تلك الساعة شبه ذلك الملاك الذي كانوا يحدثونه عنه في أيام حداثته ، فقال : ألا أموت ؟ قال : كلا ! قال سكالا برينو : ولكن إحذر يا مولاي فان اليأس بعد الرجاء هائل في مثل هذا الموقف لا تحمله النفوس . قال : إنهم واتبعني .

فامتثل وتبعه وسار به إلى ذلك المنفذ الذي يؤدي إلى سجنه فأزاح الحجر وقال له : إنزل إلى سجنني تأمن فيه الموت . فتراجع سكالا برينو منذراً دون أن يجيب . فقال له رولاند : — انه قد يمر بك في السجن أعوام كثيرة دون أن تعرفوا أمرك واذا عرفوك فانهم يعرضون دون شك عن قتلك اذ أنهم يكونون قد قتلوني بذلك . قال : وبيع لنفسي ! أشتري الحياة بهذا الثمن ؟ اني أؤثر الموت ألف مرة في كل يوم على أن أرضى بهذه التضحية الهائلة .

— وأنا قلت لك اني أريد وقد قلت مرة لأمي انك تبذل كل عزيز في خدمتها ، فهل تأبى أن تعاملني بما عاملت به أمي ؟ — مولاي ، اني ما خدمت أمك الا من أجلك على أنني لا أود الموت الا لإنقاذك ! فأخذ رولاند يده بين يديه وقال له :

— أصغ إلي ، فانك لا تعذب في سجنك غير عذاب جسماني فتتألم من البرد وتتوجع من الجوع وتشكو من الوحدة والسكوت والضجر من الظلمات . أما أنا فان أنواع هذا العذاب تعدد نعيماً بالقياس الى عذابي ! فان نفسي تلقى من ألم الاضطراب فوق ما يلقي جسمك من البرد ، وإن توجع نفسي يزيد على توجعك من الجوع ، وإن تلك الوحدة وذلك السكون في ضميري أشد علي من سكون القبر ، وإن هذه الظلمات الهدقة بسجنك تعدد نوراً بالقياس الى تلك الظلمات المحيطة بفؤادي .

— مولاي ...

— ولكن ألا ترى.. ألا تعلم أن الموت خير منقذ لي اذا كنت

تريد اتقاضي كما تقول؟ وأنت اذا أبيت أن تخدمني هذه الخدمة لقيت' عناء آخر بالبحث عن وسيلة للانتحار .

فاضطرب سكالابرينو وصاح صيحة حزن مؤثرة إذ أيقن من صحة عزيمة رولاند وعلم أنه لا يستطيع خدمته إلا بمساعدته على الموت فقال : رباه ! إن هذا هائل لا يُطاق .

— أما وعدت أمني بالطاعة والامتثال لأجلي؟

— نعم ، نعم .

— إذن إمتثل لي وأطعني .

— مولاي عفوك !

قال : قلت لك إمتثل . ثم دفعه بعنف الى المنفذ ، فزول سكالابرينو بالرغم عنه وبسط يديه شأن المتوسل . ولكن رولاند وضع الحجر فوق المنفذ فتوارى سكالابرينو في تلك الظلمات وهو يصيح بصوت مختنق : أستودعك الله . . الى اللقاء ! فلم يجبه رولاند ، وصبر هنيهة الى أن وثق من أن سكالابرينو لا يحاول الصعود فأسرع الى ذلك الكيس الأسود فالتقطه عن الأرض ولبسه في رأسه وأقام ينتظر .

*

في تلك الساعة سمع رولاند دويًا عظيمًا وصل الى مسمعه من محل بعيد . وفي تلك الساعة بينما كان ينتظر الموت ويقاسي عذاب النزاع تمثل له خيال أبيه وأمه ورسم ملا قلبه وضميره فحيا كل تلك الرسوم وهو رسم ليونور ، فلم يكن يلفظ غير اسمها وكانت

هذه اللفظة تخرج من فمه شبه قبلة تسكره حبًا وتنسبه موقفه الخطير .

وعند ذلك اشتد ذلك الدوي الذي كان يسمعه وتلاه صوت أعظم اهتزت له أركان السجن . فعلم رولاند هذه المرة أن هذا الدوي دوي الرعد وأن ذلك الصوت القاصف كانت صوت الصاعقة وأن الصواعق تثور خارج سجنه الرهيب وهي صواعق هائلة يتفق حدوثها أحياناً في فينيسيا فتكون أشد العواصف هولاً بحيث تتحطم القوارب وتهدم المنازل وتظلم السماء في رابعة النهار فلا تستنير الأرض إلا ببرقها الخاطف ، وتجول الصاعقة في ذلك الأفق إلى أن تسقط في مقرها النهائي !

وطال زمن هذه الأنواء ، غير أن رولاند لم يعد يسمع هزيم الرعد فقد انتقل بالخيال الى حديقة جزيرة أوليفو وجلس عند تلك الأرزة الكبرى تحت تلك السماء المرصعة بالنجوم ونسي نزعه الأخير فلم يخطر له غير قبلة ليونور الاولى .

غير أن دوي الرعد كان يصل إلى أذنيه بالرغم عنه فيقطع عليه هذه التصورات العذبة . ثم سمع أصواتاً قريبة منه وهي وقع أقدام كثيرة ، فلم تكن غير هنيهة حتى 'فتح الباب ودخل السجناء والجنود والجلاد فدنا منه أحدهم وقال له : هل أنت مستعد؟ قال : نعم . فأحاط به الحراس وجعل كاهن يتعمق قربه بصلواته ومشى الجلاد أمامه .

وعند ذلك دوت العاصفة دويًا اهتزت له جدران السجن كأنما الصاعقة قد انقضت عليه .

ورأى رولاند من خلال الكيس الأسود الشفاف أولئك الجنود من حوله وقد رسموا علامة الصليب على وجوههم كأنهم يريدون بها انتقاء العاصفة وانبعثت رائحة كبريتية في أروقة السجن فامتزجت بما هناك من روائح العفونة . وكان رولاند قد اجتاز عتبة ذلك السجن فاجتاز به الحراس بضع خطوات فوصلوا إلى سلم وجعلوا يصعدون عليه بينما كانت السماء لا تزال تنذر الأرض بعودها وصواعقها . وعند ذلك تنفس رولاند تنفساً طويلاً وقد أسكره هذا الهواء الجديد الذي كان يتشقه لاعتقاده أنه هواء الموت .

*

في تلك الساعة نفسها رُفِعَ الجسر الموصل بين سجن رولاند وسجن سكالا برينو وظهر منه رأس سكالا برينو وقد جحظت عيناه ووقف شعر رأسه وحدق بذلك السباب الذي خرج منه رولاند فبرقت عيناه ببارق الرجاء ، وذلك لأنه وجد ذلك الباب مفتوحاً فإن الحراس لم يقفلوه حين خروجهم منه إذ لم يبق فيه سجين يريدون الحرس عليه !

جسر التهنيدات

*

كانت الساعة في ذلك الحين قد بلغت السابعة من الصباح أي

أن الأرض كانت قد استنارت بالشمس منذ ساعة . غير أن السماء كانت مظلمة فلم تكن الأرض تستنير إلا بنور ضعيف كنور الشفق . ولكن السماء كانت تنفتح من حين إلى حين وتخرج من جوفها تلك البروق الخاطفة فتضيء بها فينيسيا .

وكانت العادة في فينيسيا أنهم يعدمون الجرمين في السجن فيقطعون رؤوسهم فوق جسر التهنيدات وتسيل دماؤهم إلى التربة إلا حين كانوا يريدون إرهاب الأهالي فيعدمونهم علناً وينصبون المفصلة في ساحة سانت مارك . ولا بد للمحكوم عليه أن يجتاز جسر التهنيدات للبلوغ إلى ساحة الإعدام .

وقد تقدم لنا وصف هذا الجسر فإنه شبه ناووس كان يصل بين السجن وبين سراي الحاكم وبه قبة بُنيت بنساء غير متين بحيث لم يكن هذا الجسر غير رواق من أروقة السجن .

وقد وضعوا في الجهة المطلّة منه على البحر نافذة لها قضبان رفيعة من الحديد وكانوا يأذنون للمحكوم عليه أن يقف هنيهة فيها قبل إعدامه ويودّع فينيسيا الوداع الأخير .

ففي يوم أمس كانوا قد أعلنوا في شوارع فينيسيا وكنائسها أن اللص الشقي سكالا برينو سيقطعون رأسه في ساحة سانت مارك . ولكن تلك الساحة بقيت خالية في ذلك اليوم وكذلك الشوارع فقد كانت مقفرة ، وذلك أن عناصر الطبيعة حين تثور المعارك بينها يخيل للإنسان أنه تجري أمور لا يجب أن يراها ، وأن اقتتال الغيوم في السماء قد يعود وبالأعلى عليه إذا هو تجاسر وحضر تلك المعارك .

والحقيقة أن الناس كانوا مشغولين بما أصابهم من غضب الصواعق عن مشاهدة ذلك المحكوم عليه بالموت ، فإنها كانت قد أحرقت كثيراً من البيوت . وكانت بعضهم يأنفون أن يروا تنفيذ الإعدام بالمجرمين لاعتقادهم أن أولئك المجرمين أبرياء لا محالة ، لما كانوا يعلمونه من جور مجلس العشرة ، ثم لاعتقادهم أن الإنسان لا يحق له أن يقتل الإنسان ، فإننا نؤاخذ القاتل لقتله ونعده جريماً من أفظع الجرائم ، فكيف يجدر بنا أن نعاقبه وأن نرتكب نفس جريمته ؟ وإذا قتلناه لقتله سواء ، ألا نكون ارتكبنا جريمة القتل ؟

ولذلك كان فريق من أولئك الناس ينكرون على الحكومة المعاقبة بالقتل ولو كان من باب الإرهاب فإن الإرهاب طرفاً كثيرة غير سفك الدماء كالتشهير وتضييق السجون والأعمال الشاقة إلى غير ذلك مما يخافه أهل الشر أكثر مما يخافون القتل . وعلى الجملة فإن بقاء أهل فينيسيا لم يكن لتفلسف في ذلك اليوم بل كان لغضب الطبيعة وخطوهم من صواعقها .

ففي تلك الساعة كان رولاند يصعد على السلم وقد تقدمه الجلابد وهو يحمل قامة على كتفه وسار كاهن على يساره وجعل يصلي ، ومشى الحراس من خلفه وهم مدججون بالسلاح . فكان كلما صعد درجة تشقق هواه جديداً لم يستشقه منذ ستة أعوام فيشتد وتلتئم قواه . وقد سكن اضطراب أفكاره حين أيقن من دنو الساعة الأخيرة وخلصه من العذاب .

فلما انتهوا من ذلك السلم التفت إليه الكاهن وقال :

- إنك ستسمع القديس يابني وتناول القربان !
فارتعد رولاند إذ لا بد له أن يكشف الغطاء عن رأسه حين مناولة القربان فيفتضح أمره إذ يعرفونه ، فضم قبضته وعول على أن يموت في تلك الساعة فلا يعودون به إلى سجنه القديم .
وكان رجل يسير مع الكاهن فقال له : إن حفلة القديس تمنعنا عن حفلة الإعدام لفوات الوقت ولاضطراب الجو ، ألا ترى أن هذه العواصف كل حين في ازدياد ؟

وفي تلك اللحظة أبرقت السماء ودوت دويماً هائلاً كان خير جواب مؤيد لقول الرجل ، فاصفر وجه الكاهن وقال :
- إذن أسرعوا فإني أستبدل القديس بالصلاة البسيطة والقربان بالبركة . فوافق الرجل واطمان بال رولاند ليقينه من أنه سيموت .

وعند ذلك سار الموكب إلى جسر التهيدات وأوقفوا رولاند عند تلك النافذة المطلة على البحر لكي يردع فينيسيا الوداع الأخير حسب العادة التي كانوا مصطلحين عليها . وفي تلك الساعة أبرقت السماء برقاً متصلاً استنارت به ظلمات المكان بنور متألق وصاح أحد الحاضرين قائلاً : لقد أخطأتم ، فليس هذا الرجل بسكالابرينو !

فوقف الحراس منذعربن ودنا الجلابد من رولاند كي يتزع عن رأسه الغطاء الأسود فهاج بأس رولاند ومزق ذلك الكيس قبل أن تصل إليه يد الجلابد وقال بلهجة وحشية مخاطباً الجلابد : إنك تريد قطع رأس فاقطع رأسي .

فأرعبت هذه الحادثة ودوي العرود جميع الحاضرين حتى
الجلاد نفسه إذ لم يكن بينهم من يعرف هذا الرجل أو يعلم
كيف أتى .

أما رولاند فإنه اغتم فرصة اضطرابهم وذهولهم فدفع عنه
الحراس بعنف شديد ووقف عند تلك النافذة وهو يحاول أن
يموت ولكنه لا يموت إعداماً بيد الجلاد بل نهبا على شفار السيوف
وفي كل حال لا يعود حياً إلى سجنه .

ولما رأى ما كان من ذهول الجنود جعل يستحهم ويحضمهم
على قتله فيقول : أيها الجنود ، ما بالكم تضطربون ؟ أليس من
العار عليكم أن تهلع قلوبكم وأنتم عشرون على واحد ؟ فصاح
قائدهم : قائلاً : إقبضوا عليه دون أن تقتلوه .

فهجم عليه اثنان من أولئك الجنود فاستقبلها رولاند بقمحة
عالية ، ولم تكن غير لحظة حتى كان الجنديان صريعين على الأرض .
فهجم عليه الجميع وصاح القائدهم يقول : إقبضوا عليه ولا
تقتلوه . ولكن صوت لم يُسمع فقد دوت السماء دويًا هائلًا في
تلك اللحظة اهتزت له أركان الجسر كأنما الأرض قد زلزلت
زلزالها ، وتهدم جانب من قبة الجسر وانتشرت رائحة الكبريت
وقار الدخان من جميع الجهات ، فذعر الجميع وجعل بعضهم
يقولون :

— ليهرب من يستطيع الفرار .

وعند ذلك حدثت حادثة أخرى زادت رعب الجنود وهي
أنهم رأوا رجلاً قادمًا من طرف الجسر وهو رجل عظيم الجثة

هائل الخلفة عاري الصدر واليدين ممزق الملابس يحمل بين يديه
حجرًا ضخماً رفعه إلى فوق رأسه ... وقد وصل إلى الموكب
وعيناه تقدحان ناراً فكان أشد هولاً من تلك الصاعقة المنقضة
من السماء .

وكان هذا الرجل سكالابرينو . فلما وصل إلى قيد خطوتين
من الموكب ألقى على الجنود حجره الهائل بقوة عظيمة فتراكض
الجنود مندعرين وقد فلق الحجر رؤوس بعضهم ، ثم أسرع إلى
ذلك الحجر فالتقطه وحمله بين يديه وهو لا يستطيع أربعة
رجال حمله وأطلقه من يديه على حديد النافذة المطلة على التربة
فتحطم وفتح منفذاً في تلك النافذة .

وبينما كان الجنود مندعرين وبعضهم يتحفزون لمعاودة الكرة
على الرجلين أمسك سكالابرينو رولاند ووثب الاثنان من
النافذة إلى التربة . وعند ذلك أسرع القائد إلى جمع جنده
وأمرهم أن يطلقوا بنادقهم من النافذة . فأطلق الجنود بنادقهم
فلم يصب رصاصهم غير الماء ، ثم اضطروا إلى الرجوع وقد كادت
تعمى عيونهم من الدخان ، فإن الصاعقة كانت قد انقضت على
سراي الحاكم فنشبت فيها النار وملأ دخانها الفضاء .

ولم يبق غير الجلاد ، فإنه أطل من النافذة فلم ير غير
اضطراب الأمواج السوداء وتراقص القوارب فوقها والتنظام
بعضها ببعض ، ثم لم يعد يرى شيئاً لتكاثف الدخان ، فارتد
عن النافذة وهو يقول : إنها إذا تجوّاً من غضب الأرض قلن
ينجوا من غضب السماء .

*

أما رولاند فإنه شعر أنه غاص في الماء حتى بلغت رجلاه الأرض. وقد أعاد إليه هول هذا الموقف سكينته وعرف بسرعة التصور ما يجب أن يفعل ، فكان أول ما خطر له أنه لا يجب الظهور فوق سطح الماء حذراً من رصاص البنادق ، فجعل يسبح تحت الماء مبتعداً عن جسر التهدات نحو نصف دقيقة ، ف شعر أنه لم يبق له بسد من التنفس وصعد إلى سطح الماء واختبأ بين قاربين أخفياه عن العيون . وتنفس تنفساً طويلاً وجعل ينظر إلى تلك السماء التي كانت تتوهج ببروقها فيجد بذلك لذة لم يشعر بثلاثها فيما مضى به من أدوار الحياة .

وعند ذلك ظهر سكالابرينو أمامه فلم يقل أحدهما كلمة لرفيقه فإن الأفكار قد ازدحمت في رأسها حتى أنها لم يجدوا كلاماً يعبر عنها .

ثم غطس رولاند في الماء فاقتدى به سكالابرينو وما زالوا يسبحان تحت الماء ولا يصعدان إلى سطحه إلا للتنفس حتى اجتازا مسافة عظيمة في الترع وتوارت السجون عن أنظارهما . وعند ذلك صعد سكالابرينو إلى قارب وصعد رولاند في أثره وسار بها في عرض الترع فجعل سكالابرينو يحذف وأقام

رولاند في القارب وقد أطلق لتصوراته العنان وتمثلت له ليونور بملء جلالها وجمالها فلم يعد يكثر لتلك الأمطار التي كانت تنهل كإفواه القرب ، فوضع الحطة التي يجب أن ينهجا وهي : أنه يذهب توتاً إلى جزيرة أوليفو فيظهر نفسه لليونور ثم يسافر بها من فينيسيا فيجد أمته وأباه ويذهبون جميعهم إلى ميلانو أو إلى فلورنسا فيعيشون أهنأ عيش وينسون بحلاوة هذا الاجتماع مرارة الماضي .

وإنما اقتضت خطة رولاند على هذا الحد لأنه لم يكن يحقد على أحد في تلك الساعة إذ كان يحبل أعداءه ويعتقد أنه كان ضحية وشاية كاذبة .

غير أنه تمثل له عند ذلك عقاب أبيه فاتقد الانتقام في قلبه كما كانت تنقد السماء ببروقها وعزم قبل سفره من فينيسيا أن ينتقم لأبيه من فوسكارى لأنه هو الذي تلا عليه ذلك الحكم الجائر دون أن تتحرك عواطفه بأواصر الشفقة وصلات الوداد السابق .

وبعد هنيهة قال له سكالابرينو : لقد وصلنا يا سيدي . فالتفت رولاند فرأى أن سكالابرينو قد رسا بالقارب عند شاطئه حي من أحياء الفقراء فتذكر أنه طاف مرة في هذا الحي وسمع غناء نساءه ، فحاول أن يتشم لهذه الذكرى ولكنه لم يستطع فقال في نفسه : إني نسيت عادة الابتسام دون شك . وتزل من ذلك القارب مع رفيقه وبعد هنيهة وقف به سكالابرينو عند منزل حقير وقرع بابه ففتحت لها فتاة ذعرت

لنظرها فقالت : من أنتما وماذا تريدان فليس في هذا المنزل ما يطعم فيه . فقال لها سكالاً برينو : كيف ؟ أم تعرفيني يا جوانا ؟
ألعلتي تغيرت كثيراً ؟

فنظرت إليه جوانا محدقة ثم صاحت بصوت يضطرب قائلة :
رياه ! أيمكن أن يكون هو ؟ قال : لندخل الآن . ثم دخل مع
رولاند إلى ذلك المنزل الذي كان كل ما فيه يدل على الفقر .

أما جوانا فقد كانت لابسة في عنقها عقداً من الزجاج الملون
وقد وقفت مضطربة وهي تشير بيد ترتجف إلى قطعة من الورق
موضوعة على المائدة . فانتبه رولاند لإشارتها ودنا من تلك الورقة
فقال له جوانا : إني انتزعتها أمس عن جدران الكنيسة .

أما هذه الورقة فقد كانت صورة إعلان الحكم على سكالاً
برينو بالإعدام ، وقد قرأ رولاند تاريخها فوجد أنه في ٤ تموز
سنة ١٥١٥ فقال : أبقيت ستة أعوام في ذلك السجن الرهيب ؟
نعم ، إنه أقام ستة أعوام في سجنه يقاسي أشد أنواع
العذاب وقد دهش دهشاً عظيماً إذ كان يعتقد أنه لم يقم فيه غير
عامين .. وذلك أن جهل المواقيت في مثل هذه الشؤون يختلف
عند الناس باختلاف أخلاقهم ، فإن بعضهم يحسبون الساعات
أياماً والأيام أعواماً ، وبعضهم يحسبون الأوقات على عكس
الطريقة المتقدمة ، وذلك عندما يشغلهم عذاب أجسامهم كما
اتفق لروولاند ، فيصابون بما يشبه الذهول وتكثر تصوراتهم فلا
ينتبهون لمرور الأزمان .
وكان يوجد على تلك المائدة امرأة فنظر رولاند وجهه فيها

وارتد منزعراً فإذنه لم يعرف نفسه لفرط تغيره ، فقد تجعدت
جبينه وبرزت وجنتاه واصفر وجهه وغارت عيناه ! فوضع
المرأة في موضعها وعاد إلى قراءة إعلان الإعدام فوجد في ذيله
هذه التواقيع :

دندولو رئيس مجلس التفتيش . فوسكاري دوج فينيسيا .
ألتباري القائد العام . بيو كردينال وأسقف فينيسيا بنعمة الله .
فلم يفه رولاند بكلمة وأخذ كرسيه فجلس عليه وأسند يديه
إلى المائدة ورأسه فوقها وقد تمثلت له هذه الأسماء الأربعة
كأنها كتبت بحروف من نار وخيل له أن المحكوم عليه بالإعدام
لم يكن سكالاً برينو بل رولاند كانديانو ابن الدوج .

جوانا

*

وكان سكالاً برينو قد رأى أيضاً هذا الإعلان فهز كتفيه
ولم يكثر له وكان أول ما فعله أنه عانق جوانا فقبل وجنتها
وقال لها : إنك لم تكوني تتوقعين أنت تربني في هذا الصباح ،
أليس كذلك ؟ فسالت دموع الفتاة وقالت : إني كنت أصلي من
أجلك .

— أم تلتسني يا جونا ؟ أم تلعنيني مع اللاعتين ؟

— أنا أنساك وألعنك ؟ ألسنت أنت الذي ريتيني منذ
حدائتي فكنت أبي وأخي وعائلتي ؟ لقد كنت لدى كل الناس
لصاً سفكاً وأما لديّ فلم تكن غير الأخ الأكبر الحنون !

— هو ذاك يا ابنتي ، فإن حنوتي عليك أشدّ من حنوت الآباء !
وكانت جونا جالسة على ركبته وهي تنظر إليه والدموع
تسيل من عينيها فقالت له :

— ولكن كيف خرجت من السجن ؟ ألعنهم عفواً عنك ؟

قال : كلا ، بل عفوت عن نفسي !

— ماذا تعني بذلك ؟

— أعني به أني هربت ، فإذا علم الجلاد والجواسيس ومجلس
العشرة أني هنا لا تمضي ساعة حتى يقطع رأسي في ساحة سانت
مارك .

فارتعدت جونا ووثبت إلى النافذة كي ترى إذا كان يوجد
أحد من الرقباء ثم ذهبت إلى الباب فأحككت إقفاله وعادت إلى
سكالا برينو وقالت له : إنك هربت في نفس اليوم الذي كانوا ..
ريته إنني لا أجسر أن أمّ جملتي .. ولكن كيف استطعت
الفرار ؟

— لا تسأليني فإني أنا نفسي لا أعلم ولكنني أكاد أموت

جوعاً .

فأشارت جونا إلى حيث كان رولاند وقالت لسكالا برينو :
وهذا الرجل من هو ؟ قال : أسكتي ، دعيه في شأنه وأتيني بما

عندك من الطعام .

وكان هذا البيت مؤلفاً من غرفتين إحداهما للنام وهي
الغرفة التي كان فيها رولاند والثانية للطعام وهي التي كانت
فيها جونا مع سكالا برينو .

فأحضرت له ما طلب وجلس يلتهم ذلك الطعام إلتهاماً
وهو يتغزل بين كل لقمة ولقمة بذلك الخبز الأبيض الذي لم يأكله
منذ ستة أعوام . حتى إذا فرغ من طعامه جعل يتمعن بوجه
جونا . ورأى لأول مرة آثار ذلك التبرج الذي كان منحصرأ
بعقد الزجاج فتتهتد تتهتدأ طويلاً وقال :

— ما أحلى الحياة ! فإني أحسب نفسي حالماً وأكاد أن لا
أصدق بأنني جالس على هذه المائدة أنظر إلى وجه جونا الجميل
بعد أن كنت في ذلك السجن الضيق .. ولكن سجنني لا يذكر
بإزاء تلك البشر التي كان مسجوناً فيها ...

— من هو ؟

— أسكتي ، فهو يقول لك اسمه إذا أراد . أما أنا فإني
عبده ! ولكنك قد كبرت يا جونا وغاب كل جمالك حتى لقد
يقال عنك إنك بتّ مبالاً إلى التبرج والزينة خلافاً لما كنت
عليه من قبل .

فأصفر وجه جونا وعاد سكالا برينو إلى الحديث فقال :
ما هذه الربطة الحمراء في شعرك ؟ وما هذا العقد في عنقك ؟

فأرخت جونا عينيها إلى الأرض . فجعل سكالا برينو
يتمعن فيها ، ولا بد لنا هنا أن نقول إنه لم يكن يجب هذه الفتاة

غير حب طهارة فإنه لقيها طفلة مجحولة فالتقطها ورباها وكان
يحبها كما يحب الرجل بنته وهي تحبه هذا الحب .

وعند ذلك قال لها : إنك لم تجيبي على سؤالي ، فهل لك
عشيق ؟ فقالت بصوت مختنق : كلا !

— إذن ما هذا الذي أراه ؟ قولي كل شيء .

فاصفر وجه الفتاة وجعلت تبكي . فقال بصوت أجش : لقد
فهمت الآن أينها المنكودة ، فقد انقطعت عنك الموارد بعد غيابي
فاضطررت إلى الارتزاق من هذه المهنة الهائلة ! فقالت له بصوت
خنقته العبرات :

— اذن أنت لا تحترقني ؟

— أحترقك؟ ومن أنا في هذا الوجود كي يحق لي أن أحترقك؟
إنكي أينها العزيزة فان البكاء بعزيتك . أما وقد عدت اليك
فستعودين الى ما كنت عليه من العفاف .

فهزت الفتاة رأسها وقالت : اني لم أصب بذلك الشقاء الا
بعد ذهاب تلك المرأة الصالحة . فارتعش سكالا برينو وقال :

— أية امرأة تعنين ؟

— تذكّر ، فإني أعني بها تلك المرأة التي أتيت بها في تلك
الليلة ، ليلة الثورة ، أي تلك الليلة التي رأيتك تبكي فيها أمامها .
ألم تذكر ؟

— نعم ، نعم .

— أتعلم من هي ، انها امرأة الدوج كانديانو وأمّ ذلك
الفتى المنكود الذي قبضوا عليه يوم خطبته .

— نعم أعلم ، فاسكتي .

— مسكينة هذه المرأة !

— ماذا أصابها ؟

— انها ماتت ؟

فاصفر وجه سكالا برينو وقال : ماتت ؟

وعند ذلك فتح باب الغرفة التي كان فيها رولاند ودخل
رولاند وهو مصفر الوجه ولكن آثار السكينة كانت بادية عليه
فدنا من جوانا وقال لها : أخبريني كيف ماتت أمي .

— أمك ؟ أمي أمك ؟ اذن أنت ...

— أنا رولاند كانديانو يا ابنتي . ومازلت عرفت كيف

ماتت فإني أحب أن أعلم منك كيف كان موتها . فارتعشت

الفتاة وقالت له : انك تسألني أن أخبرك بأمر هائل !

— أهو هائل الى هذا الحد ؟

— نعم !

— لا بأس ، أخبريني بكل ما تعرفينه اذ يجب على الإبن أن

يعرف كيف ماتت أمه !

— اذن أنت تريد يا سيدي ؟ ...

— نعم أريد أن أعلم كل شيء بالتفصيل .

— من أين تريد أن أبدأ الحديث ؟

— من حين خرج سكالا برينو من هذا المنزل بأمر أمي دون

أن يعود إليه .

— إذن فاعلم يا سيدي أن مدام سيلفيا انتظرت عودة سكالا

برينو حيناً وقد علمت بعد شهر أنهم قبضوا عليه فيشت ،
وبكيت أنا ولكن ماذا تفيد دموعي ؟

ولم تكن مدام سيلفيا تبكي ولكن حزنها الساكت كان يقطع
قلبي ، فإنها كانت تخرج في صباح كل يوم فلا تعود إلا في المساء ،
وكنت أتبعها على مسافة بعيدة كي أعينها عند اقتضاء الحاجة ،
فإن الناس كانوا ينظرون إليها نظرات تشفق عن الخوف . فقال
رولاند : إذن لم يشفق عليها أحد ؟ فأطرقت برأسها وقالت :
- إن الذين كانوا يشفقون عليها لم يحسروا على التظاهر
بالإشفاق .

فأطبق رولاند عينيه كأنما قد ثملت له أمه جاثية بالأسواق
وهو لا يطيق النظر إلى شفاها ثم فتح عينيه وقال لها : ماذا
كانت تعمل حين كانت تجول في الشوارع ؟ قالت جواتا : إنها
كانت تزود حول منازل رؤساء الحكومة .

فتنهذ رولاند وقال : لقد فهمت ! فإنها كانت تلتصق منهم
العفو عني ! قالت : هو ذاك ، وقد تمكنت يوماً من الوصول إلى
فوسكارى ، ولكنه أمر حراسه بأن يبعدها عنه .

- أليس فوسكارى دوج فينيسيا ؟

- نعم ، إنه الحاكم .

- حسناً . أتتني حديثك .

- ففي ذات يوم بينما كنت أقف أثرها حسب عادتي رأيت
رجلاً قد دنا منها فكلمها ولم أعلم ما قاله لها ، ولكنها حين عادت
إلى المنزل رأيت وجهها قد امتنع بصفرة الموت وأن شفتيها

ترجفان فأقامت كل ليلها جالسة على كرسي دون أن تصغي إلى
توسلاتي . وعند الفجر أذنت لي أن أنهضها عن ذلك الكرسي
فتنهذت تنهداً لا أنساها طوال حياتي . وقد أصدعتها إلى سريرها
فأدارت وجهها إلى الجدار وأنا أحسب أنها ستنام . ولكني حين
عدت إليها بعد ساعة لأتفقدوها وجدت عينها مفتحتين وهي
تردد هذه الكلمات :

- « إنه مات ... مات ... قضي الأمر ! »

تمسح رولاند العرق عن جبينه وجعل يسير في تلك الغرفة
وقد غرست أظافره في باطن كفه لشدة ضغطه كأنه أصيب
بنوبة غضب هائل ، ثم عاد إلى الفتاة وقال لها : ألم تعرفي ذلك
الرجل الذي كلم أمي ؟

- نعم أعرفه .

- من هو ؟

- إنه كان يدعى بيبو ، وهو الآن كردينال وأسقف فينيسيا !
فأطبق رولاند عينيه هذه المرة أيضاً ثم فتحها وقال بصوت
أجش : أتتني حديثك . قالت : إن مسا بقي من حديثي يثير
الأشجان يا سيدي ، فلإني كنت أبيع في الشوارع الأزهار
والفاكهة وأعود بما أكسبه فأقتات به وأطعم حامتي كنت
رييتها ، فكانتا تطيران في كل يوم وتعودان إليّ حين الطعام
فأطعمهما ما اشتريته لهما من الحَب بما يزيد عن حاجتي .

فلما باتت مدام سيلفيا معنا زدت جهدي في البيع ولكني
لم أستطع أن أفي بنفقائنا كلنا بحيث اضطررت الى الامتناع عن

إطعام الحمامين فذهبتا ولم تعودا وكان حزني عليها شديداً .

ومن عجيب ما لفته أني كلما زدت جهداً في البيع والسعي وراء الارتزاق كل ما ضاقت أبوابه . ولا أدري سبب هذا الشقاء ، فإن زبائني أخذت تمتنع تباعاً عن الشراء مني فكانت الأزهار التي اشتريتها تذبل قبل أن أتتمكن من بيعها إلى أن عرفت يوماً السبب الحقيقي وذلك أني شكوت أمري إلى امرأة أعرفها فقالت لي : إن الحكومة عرفت أن امرأة الدوج تقيم عندك فنفرت الناس منك وخافوا أن يشتروا أزهارك كي لا تتهمهم الحكومة بالموامرة مع امرأة الدوج .

وقد قالت تلك المرأة لي هذا القول وهربت أيضاً لخوفها أن يكون أحد رآها تكلمني ! فلبثت ضائعة الرشد مشتتة البال ، ولكن ذلك لم يقد وما عساني أن أفعل !

فقال لها رولاند : أم يخطر لك أن تفترقي عن هذه العجوز التي كانت السبب في شقائك ؟ قالت : كلا فإني كنت أعطف على مدام سيلفيا وأحبها كما لو كانت أمي من قبل ، وكنت أجد نفسي سعيدة بهذا الحب .

فاضطرب رولاند وتفرقت الدمع في عينيه ، غير أنه حبس دمه عن الانسكاب وثار الحقد في قلبه على أعدائه فتغلب على الحنان وقال : ماذا فعلت بعد ذلك ؟

فاطرقت الفتاة برأسها استحياءً ثم قالت بصوت يتهدج : مولاي ، لا تسألني عما فعلت فإني أخطأت .

— أنتِ أخطأتِ ؟

— نعم ، وأسفاه ! ولكنني كنت مضطرة إلى ذلك إذ لم يبقَ لدي مال وكانت العجوز المتكودة محتاجة إلى خر ممتعة فاضطرت إلى شرائها فبارككسني أمك ودعتني بنتها .

— تقولين إن أمي دعتك بنتها ؟

— نعم يا سيدي ، ولكنني ربما كنت غير مستحقة لهذا اللقب لأنني لم أستطع المقاومة ، فقد وجدت في ليلتي أن مدام سيلفيا منهوكة القوى وأنها محتاجة إلى دواء مقوٍ وأنه لا يوجد في البيت قطعة خبز وليس لدي درهم فخرجت قانطة في ظلام الليل وأنا لا أدري ماذا أصنع ولا إلى أين أسير ، فلقيني فتى من الأسياد ... ولما عدت إلى المنزل كان معي ذلك الشراب المقوي وما محتاج إليه من القوت ! مولاي ، إنني أتمسك منك العفو جائية لاضطراري إلى تغذية أمك بمال كسبته من أقبح الموارد ! وقد جثت عند ذلك راكعة فأنهضها رولاند وأخذ يدها فقبلها بجله الاحترام وهو يبكي . فأجفلت الفتاة وقالت :

— أمثلك يقبل يد مثلي يا مولاي !؟

قال : نعم ، فإني أحبك وأباركك وأقول لك إنك أصبحت لدي أختاً مقدسة أعبد قلبها الطاهر !

وكان سكالابرينو يشاهد كل ذلك ، ففتح النافذة استنشاقاً للهواء وهو يقول : رباه ماذا أرى ؟ إنني سأحترق !

أمسا رولاند فإنه جعل يبكي بكاء الأطفال إلى أن نضب الدمع من عينيه فعاد إلى جوانا وقال لها : أتمسي يا أختاه حديثك . قالت : لم يبقَ لي يا سيدي غير بضع كلمات أقولها وهي أن

صحة أمك أخذت بالانحطاط سريعاً فبدلت معظم ما يمكن
بذله من الجهد كي أخفف شقاءها الى أن أراحها الموت فماتت بين
يدي في العاشر من شهر حزيران سنة ١٥١٠ أي بعد القبض
عليك بعام تام ، فكفنتها ودفنتها ولا تزال أبكيها يا سيدي
الى اليوم !

وعند ذلك جعلت الفتاة تبكي ووضع رولاند رأسه بين يديه
وتاه في عالم الخيال فلم نعلم ما كان يحول في أفكاره تلك الساعة .
ودام على ذلك الى أن دوى الرعد دويًا قاصفًا فارتعد واتقه
وقال لجوانا بمنتهى الرفق : إنك منذ هذا اليوم لم تعودى وحدك
في هذا العالم فإن لك أخًا . ولا شك أن أمي كانت تعلم بأسرار
الغيب وهي تحتضر فدعتك بنتها . فاذهي أيتها الأخت واذهب
أنت أيضاً يا سكالابرينو ودعاني وحدي فإني مضطر الى أن أنزل
الى أعماق نفسي لأرى هذا الرجل الجديد الذي تولد فيها .

فنظر الاثنان الى رولاند نظرة تشفٍ عن الرعب وامتنلا
لأمره . أما رولاند فإنه جلس على كرسيه وعاد الى التأمل
والتفكير .

حديقة جزيرة أوليفو

*

ولم يجتمع رولاند بسكالابرينو وجوانا إلا عند المساء فتناول

معها الطعام وسهر معها الى الساعة الحادية عشرة من المساء .
وعند ذلك نهض وقال لسكالابرينو :

- إني ذاهب لشأنٍ فانتظري هنا . قال : ألا تريد أن
أصحبك ؟ قال : كلا ، فإني ذاهب لزيارة لا يجوز أن يصحبي
فيها أحد .

فقالت جوانا : ولكنك لا تستطيع الذهاب في حالتك
الحاضرة فانك لا تسير بضع خطوات حتى يعرفك الجواسيس
ويقبضوا عليك .

وكانت جوانا مصيبة في اعتراضها فان شعر رأسه كان قد
طال حتى استرسل الى كفيه وامتد شعر لحيته حتى بلغ الى
صدره وتمزقت ثيابه بحيث بات يستلقت أنظار الرقباء بجمع
هيبته .

فلما رأت أنه أذعن لاعتراضها قالت له : إجلس فإني أجيد
قص الشعر وليس في ذلك صعوبة . فامتثل لها رولاند وأخذت
المقص فقصت شعر رأسه ولحيته ثم صبغت شعر رأسه صبغة
غمر لونه فتغير كل شكله . ثم أسرعت الى الصندوق ففتحت
وأخرجت منه ملابس تامة وهي تقول :

- هذه ملابس نينو الذي توفي في العام الماضي . فقال رولاند :
من هو نينو هذا ؟ فأجابه سكالابرينو : إنه أحد رجال عصابتي
وكان يقيم عندي وهو أحد الذين دُعروا منك حين عرفوك يوم
أنقذت أمباريا !

وبعد هنيهة أتم رولاند لباسه فبات لا يُعرف بفضل جوانا ،

فبرح ذلك المنزل بعد أن شكرها . ومشى في طريق فينيسيا ،
وكانت الشوارع مقفلة مع أن العاصفة قد هدا أثرها وعادت
السما إلى السكون . وكان يسير وهو يسأل نفسه فيقول : ترى ،
كيف نال دندولو منصب رئيس ديوان التفتيش ؟ ومتى تمكن
والد ليونور من استلام منصب فوسكاري الهائل ؟

ثم سأل نفسه سؤالاً آخر وهو أنه إذا كان دندولو قد عُيِّن
رئيس ديوان التفتيش فكيف لم يستعمل نفوذه في سبيل إنقاذي ؟
وهنا اضطرب لهذا السؤال الذي لم يعلم كيف يجيب نفسه
عنه فأسرع الخطى وهو يقول : إن ليونور ستوضح لي كل ذلك
بكلمة .

وما زال بناجي نفسه بمثل هذه الأسئلة وهو في الوقت نفسه
يضع خطة مقابلة ليونور ويخشى أن يقتلها الفرع بلقياء ، فلم
يستطع أن يضع تلك الخطة وقال في نفسه : إني سأصل إلى المنزل
فأثب إلى الحديدية من فوق سورها وأجتهد أن أوقف إحدى
الخادمات فأعهد إليها أن تدعو والد ليونور ، وهناك أرى
ما يكون .

فلما اجتاز الجسر الأخير ووصل إلى جزيرة أوليفو وبلغ إلى
ذلك المكان الذي لقي فيه سكالا برينو منذ ستة أعوام جعل
قلبه يخفق خفوق أجنحة الطائر . وقد واصل سيره بأقدام
تضطرب حتى اقترب من المنزل فوهنت قواه واشتد خفوق قلبه
حتى أنه لم يعد يستطيع المسير فجلس على عتبة سلم الكنيسة
وجعل يحدث نفسه فيقول :

- ربه ! إني أخشى أن يقتلها الفرع ، فقد لقيت دون شك
نفس ما لقيته من العناء ، فلا شك أيضاً أن الفرع يؤذيها . ولكن
ضرر الحزن أشد من ضرر المباغنة بالفرع فلا يجب أن أطيل
دقائق حزنها .

وشعر وهو يقول هذا القول أنه لا يستطيع الذهاب إلى
منزلها ، وعاد إلى ذلك السؤال الهائل وهو : أنه إذا كان أبوها
قد بلغ هذا النفوذ فلماذا لم ينقذني ؟

وعند ذلك نهض فجأة ومشى إلى تلك الحديدية كأنه سائر
إلى الإعدام ، فلو هبطت عليه السماء في تلك الساعة لما عدت تلك
المصيبة أعظم من المصيبة التي كان يتوقعها . وما هي هذه
المصيبة ؟ فإنه لا يعلمها . فقد تكون ليونور ماتت ، وقد يكون
حدث غير ذلك ... فقد كانت مصيبته مجهل هذه المصيبة !

ولما بلغ السور المحدق بحديقة قصر دندولو رأى من خلال
بابه الحديدي تلك الحديدية الغشاء وتلك الأرزة الكبرى وجميع
تلك التذكارات الحنونة التي لم يكن يذكر سواها في سجنه !
لقد رآها كلها بعين الحقيقة كما كان يراها بعين الهجاز .

ولما تمثلت لعينه هذه التذكارات ذهبت هواجسه حتى بات
يعتقد أنه حين هبط إلى الحديدية من فوق السور يجد ليونور تنتظره
تحت تلك الأرزة !

وبعد لحظة كان في تلك الحديدية ، فوقف هنيهة كي يتنفس
ويسكن خفوق قلبه ثم جعل ينظر إلى ما حواليه . وقد كانت
الحديقة مقفلة ، ورأى رولاند أنه قد نبت فيها نبات برقي يدل

على إهمال تلك الحديقة فارتعش وقال في نفسه : رباہ ! ماذا حدث ؟ فعمدي بليونور أنها لا تتغاضى طرقة عين عن الحديقة . وهنا عاودته الهواجس فسمح جبينه وقال : إن كان الموت قد اختطفها مني بعد هذه التكببات فيحسن بي أن أقف على الحقيقة في الحال .

ومشى وهو يضطرب تواء الى المنزل ونسي كل ما كان قد أعدّه من أسباب الاحتياطات فطرق الباب بعنف . ولما سمع صوت المطرقة ندم ندماً شديداً وغنى لو كان بعيداً أو أنه لم يكن أتى . حتى إذا لم يجبه أحد اشتد به الجزع وحسب أن البيت قد أصابه ما أصاب الحديقة . ولكنه عند ذلك سمع وقع خطوات فعاد الى قلبه ذلك الخوف وخيل له أنه سيقتضي فرحاً أمام عيني ليونور .

وبعد هنيهة سمع صوتاً يقول : من الطارق ؟ فأجابه رولاند قائلاً : رجل قادم بنياً خطير !
ففتح الباب ورأى رولاند أن الذي فتحه خادم قديم في بيت دندولو . أما الخادم فإنه لم يعرفه ، فقال له :
- من أنت وكيف دخلت الى الحديقة في مثل هذه الساعة ؟
فأنك لم تدخل اليها لنيّة صالحة... إذ ذهب أيها الرجل في شأنك .
فضم رولاند يديه متوسلاً وقال له :

- رحماك لا تطردني قاني مضطهد تطارده الحكومة . ونعم إنني دخلت الى الحديقة دون استئذان ولكن لم يسعني أن أفعل غير ما فعلت . ولولا ذلك لعرفوني وقبضوا عليّ . أفلا تشفق

على مضطهد ؟

فحدق الخادم برولاند وقد تأثر لاستعطافه ورأى في عينيه ولهجته ما يدل على السلامة ففتح له الباب وقال له :
- ادخل فلا يقال إن فيليب الشيخ أبي حياية رجل مضطهد . والله أسأل أن يصلح حال فينيسيا ويلهم رجالها سبل الرشاد فقد طال عذاب الناس فيها .

فدخل رولاند وجعل ينظر الى ماحواليه ويضطرب . فحسب فيليب الخادم أن اضطرابه اضطراب خوف فقال له : لا تخف فانك هنا في مأمن .

فشكره رولاند بإحناء رأسه وكان قد بلغ قساعة الطعام فوجد أن كل ما فيها لا يزال باقياً على حاله حتى ذكر الكرسي الذي كان يجلس عليه يجانب ليونور ، فقال له فيليب : اجلس واسترح مطمئناً فلا يخطر لأحد أن يبحث عنك في هذا المكان .
فجلس رولاند ، وصب له الخادم كأس خمر فشرها جرعة واحدة ثم قال له : إنني أشكرك لتكريمك وأخبرك بالحقيقة وهي أنني من المضطهدين وقد أتيت الى فينيسيا بالسر كي أقابل رئيس ديوان التفتيش ، وقد قيل لي إن هذا المنزل منزله فصبرت الى أن ادلهم الليل ودخلت .

- ولكنك مخطيء يا بني !
- كيف ذلك ؟ أليس هذا المنزل منزل دندولو !
- نعم إنه منزله ولكنه لا يقيم فيه ولا يأتي اليه أبداً ، وأنا أقيم فيه وحدي لحرسته . أما سيدي دندولو فإنه يقيم في قصره

الكائن على التربة الكبرى .

فتنفس رولاند الصعداء وعلم السبب في إهمال الحديقة وقال :
متى سكن دندولو قصره الجديد ؟

— منذ عامين !

— وإن عائلته مقيمة معه دون شك ؟

— عائلته ؟ من هي عائلته ؟ فوجف قلب رولاند وقال :

— لقد أكدوا لي أن له بنتاً .

— أتعني بها السيدة ليونور ؟

— نعم ، فهل ماتت ؟

— معاذ الله أن تصاب بسوء فهي لا تزال في ريعان الصبا

والجمال وهي تقبع في قصر زوجها الشهير . . ولكن ماذا أصابك ؟

فوثب رولاند من مجلسه إلى ذلك الشيخ فأمسك بكتفيه

وهزّه هزاً عنيفاً وهو يقول : أيها الشقي ، أتقول إن ليونور قد

تزوجت ؟

— نعم .

— متى ؟ قل وأسرع قيل أن أختفك .

— منذ عامين !

— ماذا يدعى زوجها ؟

— ألتباري !

فهدد رولاند السماء بقبضته ثم أن* أنيناً خرج من صدره

كالزئير وبرح ذلك المنزل كما دخل إليه فلم يعلم أحد ما فعل في

تلك الليلة .

وعند الصباح عاد إلى منزل جوانا فصاح سكالا برينو صيحة
فرح للقائه فإنه لم يتم ليلته لشدة قلقه عليه . وكذلك جوانا فإنها
لامت سكالا برينو لتخليته عنه ، فأجابها قائلاً : إن البرنس
أمرني بالبقاء ولا سبيل إلى عصيانه .

وكانت هذه أول مرة استعمل فيها سكالا برينو كلمة البرنس
للكناية بها عن رولاند وقد قالها بدافع طبيعي ، كما أنه دل
بجوابه على شدة تعلقه به وخضوعه له خضوعاً لا يقف عند حد .
أما رولاند فإنه حين دخوله شرب كثيراً من الماء ثم التفت
إلى سكالا برينو وقال له : أليس اليوم يوم أحد ؟ قال : نعم
يا مولاي .

— ألا يروق لك أن تحضر الصلاة في كنيسة سانت مارك ؟
فنظر إليه نظرة اندهال لأنه كان يعلم أن رولاند ليس من
أهل التعبد وكذلك هو فإنه لم يكن يؤمن بشيء ، وفوق ذلك
فإن لهجة رولاند كانت غريبة وقد تحلل سؤاله شيء من الأمر
بحيث لم يسع سكالا برينو غير الامتثال ، فقال له رولاند :

— ما زلت قد رضيت الذهاب إلى الكنيسة لتشكر الله على
نجاتك فإصحبك إليها . فدقت جوانا ببدأ بيد وقالت :
— لكنهم قد يعرفونك . قال : كلا ، لا يعرفنا أحد .

وقد قال هذا القول بلهجة ثقة حتى أن الفتاة نظرت إلى
سكالا برينو نظرة الفاحص وقالت : لقد أصبت ، فإني أنا
أكاد لا أعرفه . فقال رولاند : إذن لقد اتفقنا على أن نحضر

الصلاة . والآن هلمّ معي . وخرج الاثنان .

*

كان رولاند حين قبضوا عليه ليلة خطبته يحمل بعض مجوهرات منها سلسلة طويلة ذهبية كان يلبسها النبلاء في ذلك العهد، ومنها منقلقة مرصعة، ومنها حسام كانت قبضته مرصعة أيضاً بالياقوت والماس، ومنها خاتم ثمين كانت ليونور قد أهدته إليه ليلة الخطبة فان الفتيات كنّ يهدين خطابهن في ذلك العهد خلافاً لعاداتنا في هذه الأيام .

وقد ذهب المنقلقة والحسام والسلسلة حين قبضوا عليه على أثر العراك ولكن الخاتم بقي في إصبعه فكان خيراً عزاء له في سجنه إذ كان يتمعن به في ساعات يأسه فيخيل له أن ليونور تنظر إليه .

وقد أصبح هذا الخاتم الآن ثروة رولاند الوحيدة إذ كان كل ما يملكه .

فلما برح منزل جوانا ذهب توجاً إلى سوق الصياغ وعرض هذا الخاتم للبيع دون أن يتردد في بيعه وقبض ثمنه مائتي ريبال دون مساومة ودفع هذا المال إلى سكالابرينو ثم سار وإبناه إلى ساحة سانت مارك . وهناك لقي كثيراً من الناس واقفين قرب عمود يقرأون إعلاناً ألصقته الحكومة عليه وقد ذكرت في الإعلان صفات رولاند وسكالابرينو الهاربين من السجن وعيّنت جائزة قدرها مائة ريبال لمن يقبض عليها أو يرشد

الحكومة إليها . فلما قرأ رولاند هذا الإعلان علم أنهم قد يتدون إليها لوضوح الصفات ، ولكنه عجب كيف أنهم ذكروا اسم سكالابرينو فيه دون أن يذكروا اسمه .

وعند ذلك دخل مع سكالابرينو إلى الكنيسة فدعش سكالابرينو إذ كانت هي المرة الأولى التي دخل فيها إلى الكنيسة . أما رولاند فانه جعل ينظر إلى رجل واقف في الهيكل يبارك الناس فكاد يصيح صيحة تفضح أمره وكذلك هذا الرجل فانه لو رأى رولاند وعرفه لتوقف عن الصلاة وأمر بالقبض عليه . فإن هذا الرجل كان الكردينال بيمو .

غير أن رولاند تمكن من ضبط نفسه فضغط على يد سكالابرينو وقال له : تمعن في وجه هذا الأسقف .

فامتثل ، وعند ذلك اصفرّ وجهه واضطربت يده في يد رولاند فقال له رولاند : أرى أن منظر هذا الكردينال قد أثار عليك .

- هو ذلك يا سيدي !

- لماذا ؟

- لأن هذا الكردينال الذمير هو نفس الرجل الذي دفع لي مالا ليلة خطبتك وطلب إليّ وإلى رجالي أن نهتف : « ليحي رولاند كاندبانو » . وهو نفس الرجل الذي طلب إليّ أن أقتل أمك !

فابتسم رولاند ابتساماً هائلاً وتمتم قائلاً :

لم تخدعني نفسي ، فقد خطر لي أنه صاحب هذه الفعلة الشنعاء

ولكن طرب نفساً الآن فسيلقى من العذاب فوق ما لقيت
وسيكون انتقامي شديداً تتحدث به الأجيال .

وبعد ذلك عَاد الاثنان إلى منزل جوانا فنام رولاند بضع
ساعات وفي الصباح برح المنزل بعد أن أوصى سكالابرينو أن لا
يقلق عليه إذا طال غيابه بضعة أيام .

وقد غاب كما قال فطال غيابه إلى ثمانية أيام وفي الليلة الثامنة
عاد فلم يخبرهما أين كان ولا ماذا فعل بل إنه نظر إلى جوانا
وقال : إننا سنسافر ، وسيعود سكالابرينو إليك للذهاب بك
بعد ثلاثة أو أربعة أيام ، فهل توافقين على السفر ؟ قالت : إلى
أين يا مولاي ؟

- إلى حيث أكون !

- دون شك !

- إذن خذي هذه النفقة لتنفقها مدة غيابي .

- مولاي ...

- أم أقل لك يا جوانا إنني أعتبرك أختاً لي ... لا تبكي ولا

تفتكري بالماضي بل افكري بنفسك وبأخيك .

وعند ذلك لبس رولاند وسكالابرينو ملابس الفرسان
وكانا قد اشترياهما من قبل . ثم ودعا جوانا وانصرفا فركبوا
سفينة كان رولاند قد أعدها وابتعدا بها عن فينيسيا .

الشيخ

*

ولبثت السفينة تمخر بها حتى رست عند الشاطئ . فنزلا منها
وذهبا مشياً على الأقدام إلى مدينة « ميستر » فأقاما في أحد
فنادقها وقال رولاند لصاحب الفندق إنه يريد شراء جوادين
قويين فأجابه صاحب الفندق قائلاً : يوجد في فندقي رجل من
الأعيان لديه كثير من الجياد يريد بيعها لأنه يريد السفر وهو لا
يعلم ماذا يصنع بها . فإذا أردت شراء ما تحتاج إليه منها فتفضل
واتبعني .

فسار رولاند في أثره دون أن يجيب حتى إذا وصلا إلى
غرفة الرجل التفت إليه صاحب الفندق وقال : لا تعجب لما
ستراه من أخلاق هذا الرجل فإنه وافر الثروة كما يظهر وله
أطوار غريبة .

ثم دخل به إلى ذلك الرجل فالتحنى أمامه حتى كاد يبلغ
الأرض وقال له : يا أيها المولى الخطير ، هو ذا سيّد سمع بشهرة
جيادك وهو يريد شراء جوادين منها . فنظر الرجل شزراً إلى
صاحب الفندق وقال له :

أبلغت منك الجرأة أيها الأبله أنك تزعجني بمثل هذه الأمور
التافهة ؟ لم لم تخبر أحد عمالي بهذا الشأن ؟ قال : أسألك العفو
يا سيدي فقد حسبت أني أحسنت عملاً وحاشاي أن أتجاسر على
إزعاجك . قال : حسناً ، فاذهب . ثم نظر الى رولاند وقال له :
- أرجو أن تعذرني لفيظي على هذا الرجل الذي حاول
إزعاجي في ساعة أريد الخاوة فيها بباخوس^١ وفيتيس^٢ . على
أن هيتك أعجبتني لغرابتها فاني أقسم بصدر مرغريتا أنك أشبه
بأهل القبور منك بأهل الحياة ، فهل تريد أن تجالسني ؟
فقال رولاند : أسألك المعذرة يا سيدي فان الوقت لا يتسع
لي وقل اذا كنت تريد بيع جوادين من جياذك وكم ثمنها .
- الثمن .. الثمن .. ثم قام الى مائدة وضعت عليها صحون
الطعام وأواني المدام وجلست حوالها صيبتان جميلتان كان يظهر
أنها من المحظيات لخلاعة لباسها ، فشرب كأس خمر وقال : نعم
اني سأبيعك جوادين من خيرة جيايدي وهما نيتون وبلاتون لأنني
أريد السفر الى فينيسيا الجميلة مدينة الماء ، تلك المدينة التي يوحى
جمالها أبدع الصور لحيال الشعراء ... ما بالك يا مرغريتا ؟ ألم
تري كأسمي قد فرغت ؟ نعم يا سيدي لا بد أن أشرف فينيسيا
بنهايي إليها وقد دعاني إلى زيارتها صديقي ببو وغيره من أعيان
تلك المدينة الزاهرة مثل فوسكارى حاكم المدينة !
فارتعش رولاند لساع هذين الاسمين ولكنه ضبط نفسه فلم

يظهر على نفسه شيء من علائم التأثر . أما الرجل فانه استمر
على كلامه فقال :

- يظهر يا سيدي أننا قد نسينا أمراً لا بد منه بين كبار
الناس وهو التعارف حين الاجتماع ، ولكي أصلح هذا الخطأ أقول
لك اني أدعى بيار آريتان .

وقد ذكر اسمه وانتظر أن يرى علائم الإعجاب من رولاند
غير أن رولاند لم يظهر شيئاً فقال له آريتان : اني أدعى بيار
آريتان كما قلت لك ، وأنت ماذا تدعى ؟ قال : إنني يا سيدي
مسافر يرغب في أن يشترى جوادين فهل تريد بيعهما ؟

قال : أقدم بعنق شاريا وتغر مرغريتا أني أبيعك نيتون
وبلاتون وهما جوادان تشرفاً بحمل بيار آريتان إلى مانتو ومن
مانتو إلى فيرون ومن فيرون إلى أبادو ومن أبادو إلى ميستر .
ولكن هذه أول مرة رأيت فيها رجلاً يسمع اسم بيار آريتان
ولا يهتز إعجاباً بشهرته التي طبقت الخافقين ، فهل أنت غريب
يا سيدي ؟

- نعم !

- لقد اتضح الأمر ، ولكن شهرتي قد تجاوزت حد إيطاليا
فلا بد أن تكون قادماً من مكان بعيد جداً .

- هو ذلك !

- إذن أعذرك ولكنني سأتنو عليك بعض قصائدي الغراء
كي تتحقق من أن شهرتي تليق بي .

فهب رولاند رأسه إشارة إلى نفاذ الصبر ، ورأى الشاعر

آريتان ذلك منه فقال له : نعم إنك مستعجل أيها الرجل الأصفر ولكن دعني أقول لك إنك إذا مررت بعد عشرة أيام بهذه المدينة تجديني فيها وقد تجد يومئذ ساعة فراغ لأنني قبل أن أذهب إلى فينيسيا أريد أن أزور مغاور بيافا الكائنة فوق تريفيز . غير أنك مستعجل الآن ، فأخبرك بأني أوافق على بيع نيتون وبلاتون بخمسين ليرة وفي هذا البيع غبن علي ، ولكن هيتك أعجبتني كما قلت لك في بدء الحديث .

فأخرج رولاند المبلغ من جيبه ووضع على المائدة أمام الشاعر ، ثم انحنى أمامه وخرج رولاند بينما كان آريتان يعد المال .

أما رولاند فإنه حين وصل إلى الباب عاد وقال : لقد قلت لي يا سيدي إنك صديق فوسكاري أليس كذلك ؟ قال : دون شك ، كما أني صديق أشهر أعيان فينيسيا .
— مثل الأسقف بيو ؟

— نعم ، فهو من خير أصدقائي فإذا احتجت إلى كتاب وصاية إليه أو إلى سواه من أعيان فينيسيا تعال إليّ فإني أرتاح إلى إفادتك لأنك دفعت لي ثمن الجوادين دون مساومة فهل تحضر ؟
— ربما .

وعند ذلك خرج رولاند من تلك الغرفة وبعد ربع ساعة كان يسير مع سكالا برينو على الجوادين في طريق تريفيز وقد وجد الجوادين على ما وصفها الشاعر وأنه لم يقبض في الشراء بل

إن الشاعر كان مغبوناً في البيع .

وفي الساعة الثانية بعد الظهر وصلا إلى تريفيز فاستراحا فيها هنيهة ثم واصلتا سيرهما إلى جهة الشمال .

وكان رولاند يسأل الفلاحين الذي يمر بهم عن الطريق ، فما زالا يسيران حتى بدتا لها طلائع جبال الألب . وكان سكالا برينو كلما تقدما ينظر إلى ما حواليه نظرة قلق وحذر ورولاند يراقبه إلى أن وصلا وقد غابت الشمس عن القرية . فالتفت رولاند إلى سكالا برينو وقال له : أتعرف هذه القرية ؟ قال : نعم يا مولاي ، فقد أتيت إليها مرة .

— وماذا تدعى ؟

— قرية سرفيزا .

فردد رولاند : سرفيزا ... ثم أوقف جواده وجعل يحدق بنظرة إلى بيوت واطئة مبنية تحت قمة كانت تجري المياه من تحتها .

فذهل سكالا برينو لوقوف رولاند واحترام سكوته فلم ينبس ببنت شفة . أما رولاند فإنه تتم يكلمات لا تفهم ثم نزل عن جواده وأشار إلى سكالا برينو أن ينتظره وسار ماشياً إلى تلك القرية . فلما وصل إلى أول بيت من بيوتها وجد امرأة عجوزاً حقيرة الملابس جالسة على عتبة الباب فمشى إليها ، ولكنه وضع يده على جبهته وهو يقول : ترى أأجسر على سؤالها ؟ ثم تنهد تنهداً طويلاً وقال في نفسه :

« إني بحشت عن أمي فعلمت أنها ماتت أشام ميتة . وبحشت

عن خطيبي فعلت أنها تزوجت بذلك الرجل السافل الذي
خانني فما أعلم الآن وقد أتيت للبحث عن أبي ؟ .

وعند ذلك دنا خطوة من العجوز ولكنه توقف أيضاً إذ
سمع أصوات غلمان يتضاحكون والكلاب تنبح من حولهم وهم
يحيطون بشيخ بيّض شعره الأيام وطالت لحيته البيضاء وتمزقت
ملابسه وقد رفع عصاه يهدد بها الغلمان والكلاب ولكن الغلمان
كانوا يزيدون ضحكاً والكلاب نباحاً .

أما رولاند فإنه عرف ذلك الشيخ لأول وهلة فشمّر أن قلبه
قد وثب من صدره وهم أن ينقض على عصاة الغلمان ولكنه
رأى في تلك اللحظة أن أحد أولئك الصبيان التقط حجراً عن
الأرض ورمى بها ذلك الشيخ فألقى الشيخ العصا من يده وشغل
عن تهديد الصبيان بمسح الدم عن وجهه ، فان حجر الصبي أصاب
جبهة ذلك الشيخ المنكود .

وقد حاول ذلك الشقي أن يلتقط حجراً آخر ولكنه قبل
أن يفعل صاح صيحة ألم هائلة ، فان رولاند حمله بين يديه فهزه
فوق رأسه وحاول أن يضرب به أقرب جدار إليه .

ولكنه توقف فجأة قبل أن يفعل وقال للغلام : أسرع يا
بني بالفرار وإذا تأخرت لحظة أقتلك . فنظر الغلام الى رولاند
وعلم من انقصاد عينيه أنه يقتله لا محالة فأمعن بالفرار وكذلك
بقية الغلمان . وعند ذلك دنا رجل من رولاند وقال :

— ألعنك يا سيدي تعرف هذا المجنون ؟ فأجاب رولاند
بصوت أبح قائلاً : مجنون ؟ فدلته الرجل على الشيخ ، أي على

كانديانو حاكم فينيسيا السابق ، أي على والده . فكبر ذلك على
رولاند حتى لم يعد يستطيع احتمالته ومقط على الأرض
مغمياً عليه .

*

وعندما استفاق رولاند من إغمائه وفتح عينيه وجد أنهم قد
نقلوه الى منزل قريب وأنه جالس على كرسي . وقد رأى أمامه
ذلك الرجل الذي كلمه وهو ينظر إليه منذهلاً وأباه الشيخ
جالساً على كرسي وهو يتسم ابتساماً لا يترجم عن معنى .

فقال الرجل لرولاند : إني يا سيدي مدير هذه القرية ، ولما
رأيت ما كان من عطفك على هذا الشيخ أدخلته الى هذا المنزل .
فنظر رولاند نظرة تقطع القلوب وأجاب المدير قائلاً : هل لك
يا سيدي أن تدعني وإياه ؟ فأنحنى المدير وخرج من الغرفة .
وعند ذلك دنا رولاند من الشيخ وناداه بصوت منخفض
قائلاً : أبي !

فترجح الشيخ من مكانه كمن يحاول الإصغاء ولكنه لم
يجب على النداء . فعاد رولاند الى مناداته بلفظة أبي . فقال الشيخ :
إن أولئك الصبيان أريداه القلوب فإني كلما خرجت لأستنشق
الهواء ضربوني . فقال رولاند بصوت مختنق : أبي !

وقبض على يد الشيخ فقال الشيخ : وأسفاه ! إنه لم يبق
عدل في الأرض فأين عدل السماء ؟ قال : بل إن العدل موجود
يا أبي فقد أتيت اليك .. أبي أصغ الى ولدك . ألا تذكر ولدك

رولاند ؟ إني ابنك رولاند ... ألا يؤثر عليك هذا الاسم ؟

فكان الشيخ يصغي دون أن يبده عليه شيء من عجائب الانذهال ولكنه أجاب رولاند فقال : ليس لي ولد ولم يكن لي قط بنون كما يعرف جميع الناس هنا . وفوق ذلك فإن الأولاد لا يحبونني بل يضربونني ويرمونني بالحجارة . فرجع رولاند أمام أبيه وقال له : أبي أم تعرفني من صوتي ؟

وقد قال هذا القول وهو يشق بالبكاء فقال له الشيخ : صوتك ؟ من أنت إذن ؟

— أنا ولدك ... ولدك رولاند ... أصغ يا أبي الى صوتي .
— لم يكن لي بنون ، أما أنت فإنك حنون رقيق القلب وإني أباركك لأنك تمسح وجهي وتجاملني فلا شك أنك من كرام الناس .

فنهض رولاند وطوق رأس أبيه وجعل يقبل شعوره البيضاء ثم قص عليه جميع ما اتفق له وبسط له خيانه ليونور بزواجها وهو يرجو أن ينتبه بهذه التذكارات فيعود إليه صوابه ، ولكن الشيخ بقي على ما كان عليه ولم يظهر عليه شيء من الانذهال حين كان يسمع شقيق رولاند بالبكاء .

فصكت رولاند وقد هاجت براكين الحقد في صدره على أعدائه فلو تمثل الانتقام في تلك الساعة لما مثل بغير صورته . ومضى على ذلك برهة ورولاند واقف يتأمل في وجه أبيه الذي اطمان من خوفه فنام . وعند ذلك فتح رولاند الباب ولقي المدير فقال له : إني أحب أن أقيم هذا الشيخ عندي فهل

تعارضني في ذلك ؟ قال : كلا ، فأنت دون شك ستثبت لي بالبرهان حقا بأخذه إليك .

— لا أستطيع أن أقدم برهانا على هذا الحق ولكن هذا الحق صريح لا يحتاج الى برهان .
— ولكن ...

— كفى ! فقد تخلستم عن هذا الشيخ ستة أعوام وتركتموه يعاني أشد أنواع العذاب فيضربه الصغار ويضعك عليه الكبار وحسبك أني سأذهب به دون أن أقاضيك عما لقيه .

— خذ يا سيدي فاني لا أعارضك فيه لاسيما وإننا لا نعرفه .
— ولكن قل لي كيف كان يعيش خلال هذه الأعوام الستة التي قضاها بينكم ؟

— من الصدقة العامة .
— ماذا تعني بالصدقة ؟

— إنه كان يطوف على الناس فهذا ينعم عليه بقطعة خبز وهذا يأذن له أن ينام عند بابيه وهم جراً بحيث لم يتم ليلة جالماً فإن جميع أهل هذه القرية يحسنون الى الفقراء ...

فتشهد رولاند تنهداً طويلاً ثم ترك المدير وعاد الى أبيه فأخذ يده بين يديه وقال له بمنتهى الرفق : أتريد أن تذهب معي ؟ فقال له الشيخ : أأذهب من هنا ؟

— نعم .
— ألا أسمع بعد ذلك الضحك والضحك والضحك ؟
— كلا !

- ألا أسمع لعنات الناس حين ألتبس منهم القوت ؟

- كلا !

- ألا يضربني الصغار وتنهشني الكلاب ؟

- كلا ، كلا !

- إذن لنسرع بالذهاب .

- تو كما عليّ ولا تخش أن تبغمني فيأتي قوي .

وعند ذلك خرج الاثنان وبرحا تلك الغرفة حتى إذا وصلا

الى حيث ينتظره سكالابرينو أصدع أباه الى جواده . وعند

ذلك ترجل سكالابرينو وقال : إركب جوادك يا مولاي وأنا

أسير ماشياً . فهز رولاند رأسه بحيث فهم سكالابرينو أن

الإلحاح محال فعاد الى جواده .

أما رولاند فإنه أخذ بزمام جواد أبيه وسار به في جنح

الظلام يتبعه سكالابرينو . وعندما وصل الى تريفيز قال

رولاند لسكالابرينو بضع كلمات فانطلق بجواده الى جهة

مدينة ميستر . ودخل رولاند بأبيه الى أحد الفنادق فاشترى له

ملابس وأطعمه خير الطعام . وبعد الطعام نام كانديانو الشيخ

نوماً هادئاً مطمئناً كما ينام الطفل وهو واثق من أن أمه

يجانبه تحميه .

*

مضى على ذلك ثلاثة أيام لم يفارق رولاند أباه لحظة في خلالها

وكان لا يفتر عن محادثته فلا يجيبه أبوه إلا بكلمات مبهمه لا

علاقة لها بالحديث .

وفي الليلة الثالثة أقبل سكالابرينو تصحبه جوانا فخرج

رولاند من الفندق وطاف في المدينة باحثاً عن منزل فوجد منزلاً

صغيراً تحيط به حديقة فاستأجره ثم عاد الى الفندق فأتى بأبيه

ويجوانا إليه وقال لجوانا : أتعرفين هذا الرجل ؟ قالت : كلا .

قال : إنه أبي ! فضمت جوانا يديها وقالت :

- مولاي كانديانو حاكم فينيسيا !

- كلا يا جوانا ، بل هو كانديانو الأعمى المجنون المضطهد !

بل هو والد رولاند الهارب من آبار فينيسيا ! فاعلمى يا ابنتي أنني

سأعهد إليك بأبي ، أي بذلك الرجل الذي لقي من العذاب ما لم

يلقه سواه فدفعه اليأس الى البلاء . وإنما أعهد به إليك لأني لا

أثق بسواك فأثمنه على هذا الكنز الثمين عندي . واعلمي أنني

مؤمنك به على حياتي فهل تعديني بالحرص على راحتك وهل

أستطيع أن أسافر قرير البال !

قالت : إنني أقسم بتسلك المرأة المقدسة التي كانت تدعوني

بنتها أنني سأجعله يعيش هنا عيش .

وأقام رولاند بقية هذه الليلة مع أبيه وعند الصباح ودع

جوانا وامتنى جواده فسار مع سكالابرينو في طريق تريفيز .

حتى إذا بلغاها سارا في طريق مغاور بيافا ، فلما وصلا الى قرية

تريفيز اخترقا الجبل وبدت على سكالابرينو علامات القلق فقال

له رولاند : أتعرف هذه الطريق ؟ فأجاب بصوت أجش قائلاً :

نعم . قال : الى أين تؤدي ؟ قال : الى مغاور بيافا يا مولاي .

مغاور بيافا

*

وهنا ترحل رولاند عن جواده واقتدى به سكالابرينو فربط الجوادين الى شجرة وجلسا على صخر فوق سكالابرينو وجعل يشي من حين الى حين وعلائم القلق يادية عليه الى ان قال : أرى يا مولاي أنه خير لنا أن نمود . قال : لماذا ؟ فأني أحب أن أرى مغاور بيافا . فارتعش سكالابرينو وقال : مغاور بيافا ؟

قال رولاند : نعم ، فقد طالما سمعت الناس يتحدثون عنها حتى أن ذلك الرجل الذي اشترت منه الجوادين قال لي إنه يريد زيارتها لجمال مناظرها الطبيعية . قال سكالابرينو : لا أجزم بمجالها فقد كنت أرى مناظرها وحشية ولكن الذي أعلمه علم اليقين أنها شديدة الخطر .

— وأي خطر علينا ؟ أتخاف أن يسقط جوادانا في هوة مع أنها قويان ويظهر أنهما متعودان السير في الجبال ؟
— ليس هذا الذي أخشاه يا مولاي .

— إذن ما الذي تخشاه ؟ العصابات في ثكناتهم ومغاورهم وحصونهم ؟ فذهل سكالابرينو وقال : أتعلم أنه يوجد مغاور وحصون ؟

— كلا ، ولكني أقول لك ذلك على سبيل الظن !

— إذن فاعلم يا مولاي أنه يجب الخوف من هذه المغاور وخير لنا أن لا نتقدم كما قلت لك .

— يظهر أنك خائف .

— نعم يا مولاي ، ولكن خوفي عليك لا علي .

— قل لي ما الذي تخافه ، فقد تبين لي أنك عارف هذه الجهات حتى العرفان . فقال له بصوت منخفض : إني أخاف عليك يا مولاي من أصحابي القداماء .

— أوضح لي ما تقول .

فجعل سكالابرينو ينظر الى ما حواليه وما بين الصخور فقال له رولاند :

— إني مصغ إليك . فقل دون تهيب . قال : ليس خوفي مما سأقوله ومع ذلك فاسمع . إنك لا تجهل يا مولاي ما كنت عليه من قبل وتلك اللبنة التي لقيتك فيها لأول مرة .

قال رولاند : نعم ، لقد كنت من اللصوص ولكن لماذا تخفض نظرك استحياءً فإن تلك المهنة التي كنت تمتنها أشرف من مهنة الدوج ورنيس ديوان التفتيش والكردينال . فاعلم أيها الرفيق أن اللص الحقيقي لا يوجد في مغاور بيافا بل في تلك القصور .

— لا أفهم مغامرك فيما تقول يا مولاي ولكني أعجب بك وأثارت لكلامك وأحسب نفسي أتي كنت قبل أن أعرفك من الوحوش الضارية .

- كلا بل إنك رجل اضطررت الى الصدام في معترك الحياة
 بالسلاح الذي لقيته وعزائك أنك لم تسرق غير النقود .
 على أنه يوجد اصوص يسرقون ما هو أثمن من الكنوز .
 فإني أعرف رجلاً سرقوا له خطيبته وكان يعد نفسه سعيداً لو
 استعاضوا عنها بسرقة كل ماله . وأعرف قوماً يقتلون الناس قتلاً
 أشد من قتل الخناجر والبنادق وهم يحملون شاخي الأنوف
 ويحترمهم الناس . فاعلم أنه لا يجب أن تهجل لماضيك فقد
 حاربتَ بسلاحك في معترك الحياة فقل لي هل قتلت ؟
 - نعم لقد قتلت بعض جنود كانوا يطاردونني ويحصدونني .
 - أتحسب أن الأبطال في الحروب يفعلون غير ما فعلت ؟
 ألسنت أنت الذي اختطفت مرة اثنتي عشرة عذراء وأرجعتهن
 دون أن تمسهن بسوء ؟
 - نعم ، فقد وجدت نفسي حقيراً ذليلاً إذ استعنت بقوتي
 على ضعف النساء لما لفين مني غير الإكرام وما سلبتني غير ما
 كان عليهن من الخلق .
 فقال رولاند : أين أنتم يا بيو وفوسكاري وألنتاري وما
 أحوالكم الى تلقي دروس الانسانية عن هذا اللص وأنتم
 كردينال ودوج وقائد !
 فأطرق سكالابرينو مفكراً وجعل رولاند ينظر إليه
 مشفقاً ثم قال له يرفق : أتم حديثك .
 قال : لقد قلت لك يا مولاي إنني كنت زعيم فرقة من
 اللصوص كانت منطقة نفوذها متصلة من تريفيز الى فينيسيا .

وكننا نغير أحياناً على فينيسيا تارة بطريق البر وطوراً
 بطريق البحر . أما مركزنا العام فقد كان في هذه الجهات ، أي
 في مغاور بيافا .
 - إذن لقد كنت قائد جيش حقيقي وكان لك اسطول
 وفرق من المشاة والفرسان .
 - هو ذاك يا مولاي . فقد كانت عصاباتنا تشبه جيشاً
 منظماً إذ يبلغ عددها نحو ألف رجل مسلحين أشداء لا يكثرثون
 للصعاب ولا تتفجر أتهم عند حد .
 فأتقنت عينا رولاند ببارق ما لبث أن انطفأ . ومضى
 سكالابرينو في حديثه فقال : أما أنا فلم أكن غير زعيم عصابة
 يبلغ عددها خمسين رجلاً .
 - إذن لقد كان لكم رئيس عام يدير حركات العصابات ؟
 - كلا يا مولاي ، ولكن عصاباتنا كانت متفقتة مؤتلفة
 تتعاون وتتقسم ما تفنمه بالعدل والقسط . وكان للبحارة الذين
 ينقلوننا حظ من غنائنا . وعلى الجملة فقد كنا شبه عصابة
 واحدة .
 - ألم تقل إن عصابتك كانت تختبئ في مغاور بيافا ؟
 - لم أقل إننا كنا نخبئ فيها يا مولاي بل قلت إنها كانت
 مركزنا العام نجتمع فيه للداولة والقسمة ، وما خلا ذلك فإن
 كل عصابة كانت تقيم في منطقة نفوذها وتتفرق في البلدان التابعة
 لها ، فكنت أنا أقيم في فينيسيا مع خمسة عشر رجلاً من
 عصابتي .

- إذا كان ذلك كما تقول فكيف تخاف علي من هذه المغاور؟
- مولاي إن ذلك بضطرتي إلى أن أروي لك رواية خاصة
بي ، ولكني أخشى أن يتولاك الملل .

- كلا ، بل إن حديثك يقبدي فامض فيه .

- إذن فاعلم أنه كان يوجد في عصابتي رجل كنا ندعوه
ساندريجو لأنه ولد في تلك المدينة التي سميناها باسمها . وكان هذا
الرجل شجاعاً جسوراً يشبهني بالقوة ، فكانت حالتنا على أتم
الوداد وإن يكن يبد منه بعض الأحيان ما يدل على أنه كان
يود لو تولّى الزعامة مكاني .

وقد اتفق لنا يوماً حادثة غريبة حدثت منذ خمسة عشر عاماً
أي قبل أن أسجن بستة أعوام . وذلك أي كنت جالساً هنا ..
في نفس المكان الذي تجلس فيه أنت الآن ، وكنت أنتظر عودة
ساندريجو لأني كنت أرسلته في مهمة . وبعد قليل رأيته أقبل
مع رجاله وبينهم امرأة في مقتبل الشباب لم تقع العيون على أجمل
منها ، وأعترف أي دهشت بلجالها مع أنني لم أكن أكثر
بلجال النساء .

والغريب في أمر هذه المرأة أنها لم تكن جازعة وهي بين
أيدي اللصوص بل إنها كانت تضحك . فسرنا بالمرأة وخادميها
إلى إحدى مغاورنا وهي تبسم في حين أن الحادمين كادا يموتان
من الرعب . وهناك طلبت أن تخاطب الرئيس . فقلت لها : أنا
هو يا سيدتي فاطمتي إذ لا نمسك بسوء .

ف نظرت إلي نظرة غريبة وقالت : إنني غير خائفة وإنني

سأعطيكم كل ما لدي من النفائس بشرط أن تطلقوا سراحي
اليوم فإنني مضطرة إلى سرعة الوصول إلى روما . فقلت : إننا
سنطلق سراحك الآن إذا أردت .

- كلا ، فإنني تعبة وأحب أن أستريح ساعة .

وقد أثرت هذه المرأة تأثيراً عظيماً علي حتى تقنيت أنت
أطلق سراحها دون أن تسلبها . غير أن نظرات رجالي إلى حليها
ثقتني عن هذا العزم فإنهم يثورون علي دون شك إذا حرمتهم
منها ولا سيما وقد رأيت أنها هي نفسها غير مكتثرة لهذه
المجوهرات الثمينة لأنها كانت تنزع أساورها وخواتمها وعقودها
وأقراطها بيدها فتلقها أمام قدمي وهي تضحك وتقول :
خذ ... إلتقط هذه الثروة .

فدونت عند ذلك من ساندريجو وقلت له : خذ حصتي أها
الصديق من هذه المجوهرات فإنني لا أمسها . فهز ساندريجو رأسه
وأشار إلى اللصوص أن يقتسموا الحلي بينهم ثم مشى إليّ بيده
على قبضة خنجره فقال : إنني لا أريد الحلي بل أريد المرأة .
فقلت له : ما هذا العبث يا ساندريجو وأنت تعرف شرائعنا ؟
قال : هو ذلك . غير أنني اليوم لا أمتثل إلا لشرائعي .

فصعد الدم إلى رأسي وجردت خنجري ، فأمرع رجالنا إلى
المدخل بيننا ولكنهم أجمعوا كلتهم على وجوب تعديل شرائعنا
فيما يتعلق بالنساء . وعند ذلك أقبلت إلينا تلك المرأة وقالت لنا
بلهجة الساخر : أرى أنه لا بد لي إلا أن أكون اليوم لواحد
منكم .. حسناً فإني أرضى بذلك وسيفتخر من ينالني حين

يعرف من أنا ولكنني أقترح شرطاً ...

فصاح الجميع قائلين : إننا نقبل شرطك مقدماً وقد أخذوا
يجهلها الفائن ودهشوا لجرأتها التنادرة .

فقالَت المرأة : إن شرطي هو أن أؤتي بنفسني اختيار رجل
منكم . قالوا : نعم . قالت : وبعد ذلك أنطلقون سراحي ؟
فأشار ساندريجو إشارة دلت على أنه يرضى بهذا الشرط إذ
كان يرجو أن يقع عليه اختيار هذه الحسناء . وكنت أنا أعتقد
هذا الاعتقاد فتراجعت الى الوراء وأغدنت خنجرى ...

وهنا توقف سكالا برينو عن الحديث ثم قال : ألم تضجر لحكايتي
يا سيدي ؟ فأجابه رولاند قائلاً : لقد قلت لك إن حديثك يلد
لي ولا سيما هذه الحادثة فقد خيل لي بسماعها أنني أقرأ حكاية
ألف ليلة وليلة .

فمضى سكالا برينو في حديثه فقال : أما تلك الحسناء فإنها
أخذت تجيل نظرها بين الرجال فكنت أرى وجوههم تصفر ،
الى أن استقرت نظرها على ساندريجو فشعرت أن وجهي قد اصفر
أيضاً . ولكنها مرت به ونظرت إلي فأخذت بيدي وقالت :
- هذا هو الرجل الذي اخترته .

فشعرت عند ذلك باضطراب لم أشعر بمثله في حياتي . أما
ساندريجو فإنه صاح ضيحة منكورة وخرج ساخطاً مغضباً من
المغارة . وأما أنا فإني كنت أرتجف سروراً لهذه النعمة التي
هبطت إلي من السماء فأخذت الحسناء وسرت بها وهي تضحك
الى مغاور بعيدة وقد أسندت عنقها الى كتفي فلو عشت أجيالاً

لما نسيت هذه الساعة .

ولما خرجنا من المغارة سألتها عن اسمها وقد قلت لها إنني
أكون عبيدها وإني أتبعها الى آخر الأرض ، فقهقتها ضاحكة
وقالت : لم تحدث لي في حياتي حادثة ألطف من هذه الحادثة .
فعلمت أن هذه المرأة عابثة بي ولم يكن لي حق عليها بعد أن
وفت بعهدها فوفيت بعهدي وأطلقت سراحي فسارت مع
خادميها الى روما . فقال له رولاند : ألم تعرف اسم هذه المرأة
فما بعد ؟

- كلا .

- ألم ترها ؟

- لقيتها مرة في فينيسيا وخيل لي أنني عرفتها .. ولكن
كلا ! فإن ذلك لا يمكن أن يكون .

- أتقول إنك لقيتها في فينيسيا ؟

- نعم ، ولكنني قلت لك إنني كنت منخدعاً إذ لا يمكن ان
تكون هي . أما الآن وقد مضى ستة أعوام ...

- ستة أعوام ... إذن هذه المرأة التي حسبت أنك عرفتها
كانت ...

- كانت تلك الحظيعة التي أغرتني بالمال كي أختطفك . ولكنني
أحسب نفسي مخطئاً .

فأطرق رولاند مفكراً ثم قال : حسناً ، إمض في حديثك .
قال سكالا برينو : هذه هي حكايتي يا مولاي وإنما اضطرت
الى قصصها لأخبرك بأن ساندريجو قد حقد علي منذ ذلك اليوم

حقدًا هائلًا وقد خشي مني لأنه يعلم أن تفوذي عظيم بين رجال العصابة . ولكنه بعد القبض عليّ أصبح زعيم العصابة دون شك وهو يحكم في هذه الجهات كما كنت أحكم من قبل . فإذا لقيني وعرف مقدار خضوعي لك يتحول ذلك الحقد إليك فيقدم اليوم على ما لم يحسر عليه من قبل .

— أكان ساندريجو في فينيسيا يوم الثورة ؟

— نعم يا مولاي ، وقد ذكرت أمرًا لم يخطر لي غير الآن .
— ما هو ؟

— هو أنهم حين قبضوا على الجواسيس خيّل لي أنني رأيت ساندريجو بينهم .

— إذن لقد انتقم منك ؟

— نعم ، ولكنها نذالة لم يرتكبها أحد من رجال عصابتنا وقد كنت أحسب أنهم قبضوا عليه فيا له من خائن سافل .

— وماذا تظن كان دوره في هذه الرواية الهائلة التي مثلها ببؤ ؟

— لقد عادت إلي الآن تلك التذكريات كلها .

— ماذا ذكرت ؟

— ذكرت أنه حين جاءني ببؤ الأسقف كان ساندريجو الذي أتاني به . وقد اتضح لي الآن أن ساندريجو كان يأتمر عليّ وأنه كان يبيعني ويبيعك بيع السلع .

— إذا كان ذلك فهل تشير عليّ بعد الآن بالرجوع ؟

— كلا ، كلا يا مولاي . فهلّ بنا إلى المغاور إذ لم تعد تطيب

لي الحياة إلا ببقاء هذا السافل .

وعند ذلك سمعت صيحة بعيدة ثم تلتها صيحة ثانية فأعمن سكالابرينو وقال : إن هذا الصوت من المغارة السوداء .

— إذن هلّ بنا إليها .

— والجوادان ؟

— نجدهما هنا ، فدلّني على الطريق .

فمشى سكالابرينو وتبعه رولاند وسار الاثنان بين تلك الصخور فكانا كلما اقتربا يقترب الصوت منها . وبعد مسير خمس دقائق وقف سكالابرينو وأشار إلى رولاند أن يانم الصمت ، ثم دنا من الأدغال فأزاحها وأومأ إلى رولاند أن يدنو ويرى ، فدنا فرأى باب مغارة مظلمة عرف أنها المغارة السوداء ، ورأى على يمينها سلسلة صخور تنتهي بهاوية وبين الهاوية والمغارة رأى رجلًا مربوطًا إلى شجرة وأمامه رجل آخر كان جالسًا على صخر يسأله أسئلة لم تصل إلى مسمعه . ووراء هذا الرجل نحو اثني عشر رجلًا وكلهم مدججون بالسلاح .

فلما رأى رولاند الرجل المربوط ارتعش وكذلك سكالابرينو فإنه حين رأى الرجل الذي يسأله ضمّ قبضته متوعدًا . وذلك أن الرجل المربوط كان الشاعر الذي اشترى منه رولاند الجوادين في ميستر وذلك الرجل السائل كان ساندريجو .

وقد كان ساندريجو يقول للشاعر في تلك اللحظة :

— كفاك عنادًا أيها السيد آريتان ، فإن حياة رجل شهيد مثلك تساوي أكثر من ثلاثة آلاف ريال .

فإن آريتان أينما مزعجاً وقال :

- يا حضرة اللص من أين تريد أن آتيك بهذا المبلغ العظيم ؟
فقال له ساندريجو :

- وأنا أقول لك يا حضرة الشاعر إنه يوجد هنا ورق وحب
وجميع أنواع أدوات الكتابة ولك الحيار بين ان تكتب بالنثر
أو بالشعر .

- ماذا تريد أن أكتب ؟

- أريد أن تكتب الى أحد أصحابك في فينيسيا تسأله هذا
المبلغ ولك كثير من الأصدقاء في تلك المدينة فلا يتأخر أحد عن
إرساله إليك . وعند ذلك يذهب أحد رجالك بكتابك الى
فينيسيا في يومين ويعود منها في يومين فيكون المجموع أربعة .
ولنفرض أنه يقتضي أربعة أيام أيضاً كي يستطيع أصحابك
إحضار هذه القيمة فتكون الجملة ثمانية أيام .

فصاح الشاعر صيحة رعب وبأس . ولكن ساندريجو لم يعبأ
به واستمر على حسابه فقال : إننا الآن في الساعة التاسعة من
مساء الخميس ، فإذا لم ترد الثلاثة آلاف ريال في مثل هذه الساعة
من الخميس القادم أتشرف عند ذلك يا حضرة الشاعر الشهير بأن
أقتلك بيدي فإني لا أدع هذا الشرف لسواي من رجالني .

فقال آريتان بصوت محتقق : الوداع ايها الحياة الزاهرة فقد
قضيت عليّ أنت أموت وبقلبي مخدرات معان نزلت عليها
الحجال ... وقد هم ان يندفع ولكن لسانه انعقد فجأة إذ رأى
أن الأدغال الحاجزة بينه وبين الطريق قد فتحت وظهر له رولاند

الذي وثب من بينها ومشى الى ساندريجو .

أما سكالابرينو فإنه اقتدى به وسار الى رجاله القدماء
فقال بصوت جهوري : إنكم تفعلون هنا ما تشاؤون كأنكم لا
تنتظرون عودتي ! فصاح جميع اللصوص منذهلين : سكالابرينو ..
سكالابرينو !

أما ساندريجو فحين رأى رولاند أمامه نهض من مجلسه
مسرعاً وخنجره بيده وحاول أن يهجم عليه . ولكنه وقف
وصاح صيحة ألم فإن رولاند انقضّ عليه وقبض على يديه بيديه
القويتين فسقط خنجره من يده وشد رولاند عليه حتى اضطره
الى الركوع أمامه .

أما أولئك اللصوص الذين استقبلوا سكالابرينو بالفرح
فإنهم التفوا عند ذلك حول رولاند وهم ينظرون إليه نظرات
إعجاب .

فقال لهم سكالابرينو : دعوه يفعل به ما يشاء واعلموا أن
كل من يتقدم منكم لنصرته يكون مقره هذه الهاوية . فتراجع
اللصوص ممتثلين لسكالابرينو ولا تعلم إذا كان ذلك ليلهم الى
زعيمهم القديم أو لأنهم كانوا يكرهون ساندريجو وقد رأوه
صريعاً عند قدمي رجل غريب وهو يصبح من الألم .

وقد حدثت هذه الحادثة في زمن وجيز وكان لقوة رولاند
تأثير عجيب عليهم ولا سيما حين رأوه غلب ساندريجو المهائل
دون أن يبذل جهداً أو يبدو عليه شيء من علائم الحدة فإنه
كان يبتسم .

وأما رولاند فإنه بعد أن أكره ساندريجو على الركوع قبض على عنقه وجرّه إلى الهاوية وهناك حمله بيد واحدة وأدلاه إلى تلك الهاوية فكان إعجاب اللصوص بهذه القوة لا يوصف . وانقطع سكانا برينو عن الاهتمام بهم لأنه كان خبيراً بأخلاقهم . وما زال رولاند على حاله مع ساندريجو إلى أن أكرهه على التماس العفو فرغمه وألقاه على الأرض ثم قال له : انهض وفكّ قيود الأسير .

فنظر ساندريجو إلى رولاند نظرة دموية وقد خطر له أن يهجم عليه ولكنه شعر لفوره أنه مغلوب لا محالة وذهب ذليلاً إلى الأسير فحلّ قيوده . فأسرع الشاعر إلى رولاند فأوقفه رولاند وقال له : إني أريد محادثتك يا سيدي فتنفض بالدخول إلى هذه المغارة وانتظري فيها قليلاً .

قال : إني أنتظرك أياماً بل أعواماً أيها الرجل الكريم فإننا لسنا الآن في مغاور الجن بل في جنة الخلود ... وقد حاول آريتان أن يندفع بأوصافه غير أن رولاند أشار إليه بأن ينتظره في المغارة ، وعاد إلى اللصوص فقال لهم : لقد رأيتم ما فعلت وما أستطيع أن أفعل فمن يريد منكم أن أتولى زعامتكم ؟ فصاحوا جميعهم قائلين : كلنا .. كلنا .

قال : إنكم تعيشون أشقى عيش ولا تقدمون إلا على صغار الأعمال ، فمن منكم يريد أن يقدم على الأعمال العظيمة ويكون اسمه خالداً في سجل الأبطال ؟ قالوا : كلنا . قال : حسناً ، فتفرقوا الآن وعودوا إلى موافاتي هنا عند

انتصاف الليل وأحضروا الغائبين منكم وأخبروهم أنه جاءكم رجل يريد أن يفتح لكم أبواب الثروة ويجعلكم من عظماء الرجال ! إذهبوا وعودوا عند انتصاف الليل .

وقد كان رولاند يتكلم بلهجة مروّض الأسود حين يدخل أول مرة إلى قفص تلك الوحوش التي يريد ترويضها ، فصاح الجميع هاتفين له وانصرفوا دون أن ينظروا نظرة إلى ساندريجو لشدة إعجابهم برولاند .

وقد أراد ساندريجو أن يقتدي بهم وينصرف ولكن رولاند أشار إشارة إلى سكانا برينو فدنا منه وقال له : إبقى ، فإن الرئيس يريد أن يكللك .

غير أن ساندريجو قهقه ضاحكاً وأسرع إلى الهرب فاندفع إلى الهاوية فنزل إليها بطريق خطر فأدركه سكانا برينو وهو يزبد من الغيظ فرآه نزل إلى تلك الهاوية متمسكاً بجدارتها البارزة فقال : لو كان لديّ بندقيّة لمّا نجما مني هذا الخائن .

أما رولاند فقد كان مطرق الرأس مسترسلاً إلى التفكير كأنه لم ير شيئاً مما كان ، وبعد هنيهة دخل إلى تلك المغارة التي كان آريتان الشاعر ينتظره فيها . فلما رآه آريتان على نور المشعل صاح صيحة دهش وقال : ألسنت أنت الرجل الغريب الذي لقيته منذ بضعة أيام في ميستر وبعته جوادين ؟ قال : نعم ، أنا هو . قال الشاعر : لو تعلم يا سيدي ما أصابني ! ألا لعن الله تلك الساعة التي خطرت لي فيها أن أزور هذه المغاور ، فقد نهب اللصوص أمتعتي وهرب جميع خدامي وكاد الخوف يقضي عليّ

إلى أن أتيت فأنتقتني ...

فقاطعه رولاند قائلاً: ألمحسب أنني سأطلق سراحك؟ فاصفر

وجه الشاعر وقال: أليست هذه نيتك؟

— إن ذلك خاص بك وموقوف عليك .

— ماذا تريد أن أفعل يا سيدي؟ فإن آريتان معروف بحفظ

الجميل .

— يجب أن تعلم قبل كل شيء أنك في قبضة يدي ، وأني

أستطيع أن أردك إلى هؤلاء اللصوص الذين سلبتهم ثروة بإنقاذك

من بين أيديهم .

— إذن ماذا تريد مني؟ قل يا سيدي وإني أقسم بشفة

مرغربتا أنك تخيفني بكرمك فوق ما كان يخيفني ذلك اللص

بإذاره .

— إن الذي أريده هو أن أعقد محالفة معك ، فقد عرفت

فيك صفات لا تدل عليها ظواهرك فهل أنا مخطف؟ إن جفنيك

المضطربين وفمك الذي يشبه فم السرطان ورأسك الذي يشبه

رأس الذئب كل ذلك يدل على أنك من أهل التهتك والاسترسال

إلى الملاذ التي لا تستطيع أن تعيش إلا بها . فإذا كنت يا بيار

آريتان كما يتوهم الناس شاعراً تقتصر على نظم الأشعار وبما تبرزه

من جميل الأفكار ، فاذهب إلى حيث تشاء فأني أطلق سراحك

في الحال . وإذا كنت ذلك الرجل الذي وصفته فابق... والآن

هل تريد أن تذهب أم تؤثر البقاء؟

قال: بل أبقى!

بيار آريتان

*

كان بيار آريتان من الشعراء المشهورين في ذلك العهد حتى

لقد صنعوا له تشالاً . وقد تناولته أقلام الكتاب المعاصرين فكان

من الذين كتبوا عنه فيلاروت شاسل الذي كتب عنه فصلاً

مسهياً سنة ١٨٨٤ في «مجلة العالمين» ولكنه لم يأت به على حقيقة

أوصافه لاختلاف المؤرخين في حقيقة هذا الشاعر . ولكننا

سنمثله للقراء بما لم يمثله سوانا من الكتاب علتنا نحيط الحجاب عما

يحيط به من الألغاز .

ظهر وجه آريتان في المغارة السوداء على نور المشعل الذي

أناره سكالابرينو فتبينت للأنظار أنه رجل عالي القامة أسود

اللحية أبيض شديد العناية بلباسه وبلحيته على الأخص . وكانت

هيئته يحملتها تدل على أنه جواب آفاق جسور يعرف أن

يعبت بالناس .

فكان سكالابرينو ينظر إليه وإلى رولاند ويوازن بين

الاثنتين فيرى رأس الشاعر يشبه رأس الذئب ورأس رولاند

يشبه رأس الأسد وأن الفرق بين الرجلين بالأخلاق بعيد كبعده

بين هذين الحيوانين .

وقد بدأ الشاعر الحديث فنظر إلى رولاند وقال : إني أحترمك لأنك عرفت مني ما لم يعرفه أحد سواك ، وعلمت أن لي من الصفات غير صفة الشاعرية . فاسمح لي أن أقول لك أيضاً إني حين رأيتك المرة الأولى في مدينة ميستر رأيت فيك رجلاً شديد البأس ثابت الجنان ، غير أنني وثقت بك لفوري ثقة لا حد لها . والآن فإنني أقول لك من أنا وماذا أريد أن أكون فاسمع :
إني هي بن بي ، أي أنني رجل مجهول النسب ادعى باسم القرية الصغيرة التي ولدت فيها . ولا ثروة لي ، إذ ليس لدي درهم يزيد عن حاجاتي . وليس لي أب يُعرف ، فقد يكون أبي من أمراء الكنيسة وقد يكون من صعاليك الناس . وكانت أمي من المومسات وقد ماتت في المستشفى بين كثيرات من أمثالها . أما أنا فقد امتهنت مهناً مختلفة حقيرة حتى أنني كنت في مصاف الخدم . نعم لقد كنت خادماً ولا تزال آثار الضرب بادية على ظهري .

هذا أنا يا سيدي فاسمع ما أريد أن أكون : إني أشعر بأن نفسي العظيمة تسع كل الوجود وأحس بضميري يتوقد ذكاءً في رأسي ، وأعتبر أن من الحيف والظلم أن أقف وقوف الخدم في تلك الوليمة الكبرى ، وليمة سعادة الحياة ، لأنني مجهول النسب . وأرى من الحرق والبلاهة أن ينقلد الأحكام والسيادة على الناس أولئك الذين يعدونهم نبلاء لأن آباءهم كلوا يلقبون باللقاب النبيل الموضوعة المتناقفة .

نعم إني ليس لي لقب ولكني أريد نصيبي من هذه الحياة . فإن الشمس تشرق على جميع الناس دون تفریق وأريد أن يكون نصيبي عظيماً موافقاً لنفسي العظيمة . أريد أن أكون غنياً قوياً قادراً يهابني الأغنياء ويخافني النبلاء ويعاملني الملوك والأمرء معاملة الأكفاء . ولا أستطيع بلوغ هذه الأمنية إلا بسلاح واحد لا تأثير له بيد سواي ، وأما بيدي فهو السلاح القاتل ...

وعند ذلك أخذ قلماً عن المائدة ولم يمسه بأصابعه بل قبض عليه كما يقبضون على الخنجر وهزه بيده كما هز الفارس الرمح وقال : هذا هو سلاحي . نعم هذا هو سلاحي ، وباطلما سحقت به الكبراء والأغنياء وذلت به نفوس النبلاء وقتلت بنفقات هجائه كما يقتلون باسم أو الخنجر !
إني أمد هذا القلم إلى الدواة فلا يلتقط حبراً بل سحاً نقيعاً ركبت مواد من القذف والوشايات والنائم التي تطوف جميع أنحاء العالم فتقتضي على المقتدوف به القضاء المبرم . وهذه هي قوتي التي لا يستطيع أن يتغلب عليها أحد .

إني لا أبغض الناس ولكني أحب ذاتي حباً لا يقتهى عند حد ، فإنني أريد السعادة المطلقة لهذا الحي الممتاز وهو أنا .
وإني أريد لنفسني كل هناء مادي لا أستطيع بلوغه إلا بالقوة .
ثم إني ليس لي أعداء ولا أعجب بأحد في العالمين إلا بنفسني ، فإذا أساء إليّ قدير أو أمير يكون أول همي أن أستخدمه في سبيل هنائي فإذا فزت بذلك بات من أصدقائي .

وإذا غرني رجل بإحسانه يكون كل ممي أن أبحث إذا كان يستطيع يوماً أن ينغص صفاتي بهذا الإحسان ، فإذا كان ذلك بات عدواً لي . أي أنني أستجلب الأول بالتخليق وأتقي الثاني بالخذر وأنا متأهب في كل لحظة لتغيير الحاليتين .

هذا أنا يا سيدي وهذا الذي أريد أن أكونه فمن أنت ؟ فلم يجبه رولاند لفوره على سؤاله وقال له : إنك تبحث بمكونات صدرك لرجل غريب وحادثه كما كنت تتاجي نفسك . وهذا خطأ لا ينطبق على خطتك وخذرك . فأبتسم الشاعر وقال :

— إنني يا سيدي من أشد أهل الأرض كسلاً حتى لقد بلغ من كسلي أنني أتقى لو أحاط بي الخدم ساعة الطعام ففتح أحدهم فمي ووضع غيره اللقمة فيه وحرك آخر فكنتي كي تمضغ أسناني الطعام . ولو بحثت بحثاً فلسفياً لوافقتني على امتداح هذا الكسل فما هو في تحديد الفلاسفة غير الامتناع عن كل عمل متعب والراحة مطلب كل إنسان ، فمن استطاع أن لا يعمل فقد بلغ قمة المجد الإنساني .

ولكنني على فرط كسلي اضطررت إلى اختراع وسائل تسهل لي الكسب ، فاضطررت مكرهاً إلى العمل وأجهدت نفسي فيه جهداً غنياً عشرة أعوام .

والآن فقد وجدت هاتين الوسيلتين إذ ليس لي سواهما . أما الوسيلة الأولى فهي حفظ الأفعال والقوافي وجميع تعابير المدح والثناء والقدف والهجاء . وأما الثانية فهي معرفة دخائل القلوب

بالنظر إلى الوجوه فأكون في الأولى كاتباً وفي الثانية قارئاً . ولذلك وثقت بك وكشفت لك أسراري دون أن أعرفك لأنني قرأت دخائل نفسك .

— ماذا قرأت ؟

— قرأت الإخلاص والبحث والوفاء المحض . على أنني وإنت كنت أعدت الإخلاص ضعفاً فإن ثقفي بك لا حدة لها ولا أخشى أن تحتقرني لما سمعته من كلامي .

فقال له رولاند : لقد سمعت من كلامك ما دلّني على أن لديك كثيراً من الصفات التي تعينك على تنفيذ الحطة التي رسمتها لنفسك . ولكنني أنا أعرف مثلك دخائل القلوب وقد تبين لي أنه ينقصك صفة لا بد لك منها لتنفيذ ما أربك .

— ما هي ؟

— الشجاعة .

فأصفر وجه آريتان وقال : الشجاعة ؟ قال : نعم ، فإنك جبان وخوفك يحول دون تحقيق رجائك ، فإن من يريد أن يخرج عن أطوار الإنسانية يجب أن يكون متأهباً لاستقبال الموت وهو الكسل الأكبر .

— قد عرفت لأول وهلة موضع ضعفي . نعم إنني جبان ، وما ذلك إلا لإفراطي في حب الحياة وملاذمتها حتى أن خاطر الموت وحده يقلق راحتي وقد بذلت كل ما يمكن بذله لأشفي نفسي من هذا الداء فذهب جهدي عبثاً وأيقنت أنني لا أبلغ ما أري ما زلت مريضاً بهذه العلة .

فوضع رولاند يده على كتفه وقال له : أعتقد أنني شجاع ؟
قال : بل أعتقد أن الشجاعة لو صورت لمثلت برسمك وأنت
تستقبل الموت كمن يجد الراحة فيه . بل إنني توسمت فيك أنك
تكبر الحياة وأنها باتت ثقيلة عليك فأعجب كيف أنك لم تتخلص
منها إلى الآن . فاصفر وجه رولاند وقال :

- إنك ما زلت على هذا الخوف وقد عرفت شجاعتي . أفلم
يخطر لك مرة أن تلمس حماية أحد الشجعان ؟

- قل يا سيدي ما تعنيه ، فإنني لا أجسر على فهم ما تقول .
- ذلك أنك ستذهب إلى فينيسيا فلا يطول مقامك فيها حتى
يكثر المبغضون من حولك فلا تستطيع الخوفك أن تتمتع بهذا
الهناء ، وتكثر هواجسك فتبتت تحسب أن الطعام الذي يقدم
لك مسموم ، وأن نساءك يترقبن رقادك لخنقك ، وأن الخادم
الذي يأتيك بلباسك يراقب غفلة منك ليطعنك بخنجره ، فكيف
تستطيع أن تكون سعيداً إذا لم تكن آمناً وكنت تخاف هذا
الخوف ؟

- الحق يا سيدي أنك زدت رعيي وأنت قلت لي أقوالاً ما
كنت أجسر أن أقولها لنفسي .

- ولكنه لو وجد رجل يراقبك الليل والنهار ويحرص على
حياتك ويؤمنك من خوفك ويجعلك تتمتع بكل ما تشتهي
من الملاذ ...

فقاطعه آرستان وقد برقت عيناه بأشعة الفرح فقال : أواه
يا سيدي ، إنك تفتح لي أبواب النعم فهذا كل ما أتمناه وأشتهيه ،

ولكن من لي بهذا الرجل ؟
- هو أنا .

فوثب آرستان من موضعه وهو يكاد يطير سروراً وقال :
إحذر يا سيدي أن تعلقني بهذا الرجاء ولا تكون صادقاً فيه .
قال : ألم تقل إنك تقرأ دخائل القلوب ؟ فهل قرأت في وجهي
ما يدل على أنني أقول ولا أفعل ؟

- نعم نعم ، إنك عظيم وإني معتمد عليك .
- إذن إطمئن منذ الآن ولا تخش أحداً في الأرض . إذهب
إلى فينيسيا فاعش فيها كما تشاء واعلم أنني ساهر عليك وعلى
منزلك لا فرق بين أن أكون حاضراً أو غائباً وبين أن تراني أو
لا تراني فإنني أكون بقربك وسيكون أعداؤك أعدائي .

- ولكن ماذا تسألني مقابل ذلك ؟ فإنني لا أجد جزاء
يفي بهذه الحماية ، وإني أكافئ ملك فرنسا بقصيدة وأجازي
الأمبراطور بموشح فيحسبان أنني كافأتهما خير مكافأة . وأما
أنت ... أنت يا سيدي فإنني أشعر بأنك أعظم من الملك وأرفع
من الأمبراطور فهاذا أجازيك ؟

- إنني لا أسألك عن هذه الحماية التي ستعيش بها أسعد إنسان
غير أن تصادق أربعة رجال . ولكن يجب أن تصادقهم مصادقة
شديدة لا يرايون فيها فتحملهم على أن يشقوا بك ساء الثقة
فتكون نديمهم وصفيتهم ومستودع أسرارهم فلا يكتمنونك سراً
بما خفي وظهر من أمورهم .

- إنني أفكر بصير هؤلاء الرجال الأربعة فيتولاني الرعب .

- أترضى بما أقترحت عليه ؟

قال : أترضى . ثم نهض وقال : والآن قل لي أسماء هؤلاء الأربعة . قال رولاند : أولهم دندولو رئيس مجلس التفتيش . واصفرت حين ذكر هذا الاسم . فقال الشاعر : حسناً ، والثاني ؟

- الكردينال بيبو .

- والثالث ؟

- القائد ألتاري .

- والرابع ؟

- فوسكاري دوج فينيسيا .

رئيس مجلس التفتيش

*

لقد تركنا رولاند في الفصل السابق في معاورة بيافا وقد عقد محالفة مع الشاعر آريتان مألها أن رولاند يحمي الشاعر من أعدائه وأن الشاعر يسافر إلى فينيسيا فيعقد صلوات الصداقة المتينة مع أعداء رولاند الأربعة وهم فوسكاري حاكم فينيسيا وألتاري القائد العام ودندولو رئيس مجلس التفتيش وبيبو

كردينال وأسقف فينيسيا بنعمة الله ...

فتعهد الشاعر أن يستطلع أسرار هؤلاء الأربعة ، وأقام رولاند في تلك المغاور ينتظر اجتماع اللصوص الذين عاهدتم على الملتقى عند انتصاف الليل .

والآن فلنعد إلى فينيسيا حيث نعود إلى سياق الحديث منذ تلك الليلة التي ثارت فيها العواصف الهائلة فأصاب فينيسيا بما لم تُصَبَّ به منذ زمان ، وهي تلك الليلة التي لبس فيها رولاند الكيس الأسود وأقام في سجن سكالابرينو ينتظر قدوم الجلاد ليسير به إلى موقف الإعدام .

وقد غرق في تلك الليلة ثلاث سفن من أسطول الحكومة في مرفأ ليدو وتحطم نحو مائتي قارب وأصاب الصاعقة جسر التنهدات فامتدت النار إلى سراي الدوج وانقضت صواعق كثيرة على أمكنة مختلفة منها قصر جميل مبني على شاطئ الترعة الكبرى وهو قصر دندولو ، فان والديونور لما تقلد منصب رئاسة ديوان التفتيش وزوج بنته ألتاري القائد العام ، بنى هذا القصر الجميل على شاطئ الترعة فكان يستقبل نبلاء فينيسيا مرة كل شهر في قاعاته الرحبية .

ففي تلك الليلة التي غضبت فيها السماء على الأرض كان خدم دندولو قد صعدوا إلى غرف رقادم ولم يبقَ غير دندولو وحده ساهراً فكان يسير ذهاباً وإياباً في غرفة متسعة تشرف على الترعة الكبرى وقد اشتد اضطرابه حتى أنه لم يرم لحظة وبقي يسير في غرفته إلى الصباح فإذا سمع صوت انقضاء الصاعقة وهزيم

الرعود وقف فوضع يده على جبينه وقال :

أبتها الصواعق انقضت ويا رياح اعصفي فإنك مها بلسغ من شدتك لا تعادلين البراكين التي تثور في نفسي .

ثم يعود إلى السير بخطوات غير موزونة فينسى تلك العواصف الشائرة كأنما السماء في سكون .

وفيما هو على ذلك أبرقت السماء برقاً خاطفاً ودوت الرعد دوتاً قاصفاً اهتزت له الغرفة التي كان فيها حتى خيل له أن الأرض قد زلزلت تحت قدميه ، وسمع صوت تهدم جدار فلم أن الصاعقة قد انقضت على جانب من قصره ... فقال : ما كان أحرق هذه الصاعقة أن تنقض على رأسي فأستريح . وعند ذلك جلس على كرسي واهي القوة وهو يحدث نفسه فيقول :

هوذا ليلة أبيت فيها أيضاً من غير رقاد فأسير في غرفتي سير المجانين وأحاول أن لا أسمع ذلك الصوت الذي يقرع نفسي فلا أستطيع لأن ذلك الصوت أشد من صوت الصاعقة فهو أنين صادر من السجن الرهيب ! هو أنين ذلك المنكود ... إني حين أذهب إلى سراي الدوج أخاف أن أدخل تلك القاعة التي رأيت فيها آخر مرة . وإذا ركبت قاربي خشيت أن يمر بي من تحت جسر التهيدات ...

ثم وقف وقد جعل وجهه ينضح بالعرق فقال : لقد مضت ستة أعوام وهذا المنكود يتعذب في آبار السجن وما ذنبه إلا أن ابنة رجل طماع أحبته وهي ابنتي .

ثم نظر إلى ما حوالبه وقال : أية فائدة لي من هذه الرياض

الفاخرة ؟ بل أية فائدة لي من تشييد قصر أجدادي وأنا فيه الآن أشقى مما كنت في بيتي القديم في جزيرة أوليفو ؟ أولئك أجدادي الذين سفكوا دماءهم في سبيل أوطانهم ونالوا أرفع منزلة بين قومي فلم يحدث في تاريخ أسرهم غير زلّة واحدة وأنا مرتكب هذه الزلّة .

ويح لنفسي مما جنيت به على هذا المنكود وعلى ابنتي ، فلو خامرها الشك في يوماً وجاءتني فصرخت بي تقول :

- أيتها الجبان ، لقد عرفت الحقيقة ، فإن رولاند لم يبرح فينيسيا بل إنه يموت في آبار السجن ...

إنها إذا قالت لي هذا القول فماذا أجيب ؟

وكان الصباح قد أشرق ، وصحا الخدم ونهضوا إلى أعمالهم في القصر ، ففتح دذدولو الباب المطل على البحر وخرج إليه وهو يكاد يحنقنقن مما أصابه من تقرير الضمير فرأى سراي الدوج تحترق من الصاعقة فلم يكثر لها وقال : لتحرق فينيسيا بأسرها فإن النار الملتهبة في قلبي أشد سعيراً من نار الصاعقة .

وقد نظر عند ذلك إلى جهة البحر فلم تكن غير هنيهة حتى اصفر وجهه وفتحت شفتاه وجحظت عيناه فإنه رأى رأسي رجلين من تحت الأمواج ثم رأى أن هذين الرجلين قد صعدا إلى قارب وأمعنا بالفرار غير مكترئين للعواصف الشائرة فصاح صيحة رعب وأغمي عليه .

فلما صحا من إغمائه وجد نفسه في سريريه وقد أحاط به

*

الخدم فنهض لفروره وقال لهم : لا تفلقوا عليّ ، فقد أصبت بدوّار
بسيط فدعوني وحدي . فامتثل الخدم . وقام دندولو إلى إحدى
الموائد فجلس قريبا وأسند رأسه إلى يديه وجعل يتعمّم مردداً
هذا القول :

— رياه ماذا أعمل ؟ بل هو ماذا يعمل ؟

ذلك أنه رأى الرجلين الهارين وعرف أن أحدهما رولاند ،
فاذا لم يعد إلى سجنه كان دندولو من المهالكين .

وعند ذلك دخل إليه خادم فقال : مولاي ، إن القائد العام
يريد مقابلتك في شأن خطير . فأمره بإدخاله . وبعد هنيهة
دخل إليه ألتيساري فقال له :

— إني أتيت بنبأ عظيم أرويه دون مقدمات وهو أن رولاند
كانديانو قد هرب من السجن .

فتظاهر دندولو بدهشة عظيمة وقال : هرب من السجن ؟
لقد أضعت رشدي دون شك إذ لا يمكن الفرار من سجون
فينيسيا . قال : ولكنه هرب فقد كان اليوم موعد إعدام اللص
سكالا برينو فهرب وإياه كما يظهر . وقد ثبت بعد البحث أن
رولاند نخب في جدار السجن وفتح منفذاً إلى سجن سكالا برينو
فالتقيا دون شك . ولما وصلوا باللص إلى جسر التنهدات عرف
رئيس الحراس أن هذا الرجل الذي كانوا يسرون به إلى ساحة
الإعدام لم يكن سكالا برينو ولا ريب أنه كان رولاند .

— إن ذلك لا يحتمل التصديق !

— ولكنه حدث ، وقد حدث عند ذلك أمرٌ هائل ، فانه

بينما كان الحراس منذهلين من تأثير الصاعقة ظهر اللص سكالا
برينو وهو يحمل حجراً لا يستطيع أربعة رجال حمله ، فاعتنم
فرصة ذهول الحراس فضربهم ضربة هائلة زادتهم رعباً على رعب ،
ثم أخذ الحجر أيضاً وضرب به حديد النافذة المشرفة على البحر
فتحطم ، وعند ذلك ألقى الاثنان بنفسيهما إلى البحر ونجا
رولاند .

— نجا رولاند ؟

— نعم إنه نجا ، وقد أسرعت إليك حين تلقيت هذا الخبر
لأسألك ، وأنت والد ليونور ورئيس ديوان التفتيش ورئيس
بوليسنا الأكبر ، ماذا عزمتم أن تفعل ؟

فارتعش دندولو لأنه لم يكن في تلك الساعة يتناجي نفسه بل
كان يجاد رجلًا بشأن رولاند ، وأي رجل ! إنه زوج ليونور
خطيبة رولاند ! فقال بلهجة المضطرب : ماذا أعمل ؟ قال :
أرى أنك متردد في الأمر !

قال دندولو : كلا ، ولكنني اضطربت لهذا الخبر الغريب
الذي لو لم أعلمه منك لمأصدقته . فقال ألتيساري : نعم إنه
خبر غريب شديد الخطر وذلك يفيدني في أن لا أشفق على أحد
بعد الآن ، فقد كان يجب أن نقفأ عينيه كما فعلنا بأبيه أمّا
الآن فإن المصيبة قد حدثت وبقي علينا أن نتلافها وذلك منوط
بك ، فأرسل جواسيسك وبوليسك يبحثون في جميع منازل
فينيسيا دون استثناء ، وأقبل ميناء ليدو كي لا يستطيع الخروج
منها ، وعين الرقباء لمراقبة السفن التي تتوغل في الترعّة ، وخذ

كل ما ينبغي اتخاذه من وسائل الاحتياط لأنه إذا تمكن من الفرار ثارت حرب هائلة بيننا وبينه فأسرع ما استطعت .
قال : اطمنن ، فلن يضي يومان حتى يعود إلى تلك الآبار التي كان فيها .

وعند ذلك انصرف ألتباري فبقي دندولو وحده فحمل رأسه بين يديه وقال : رياه ، لا بد لي من القبض عليه ولا مندوحة عن ارتكاب هذه الجناية الجديدة ، وأنا الذي يجب علي أن أقبض على رولاند !

وقد بقي على هذه الحالة نحو ساعة تتنازعه الأفكار وتتخاطف نفسه العواصف المؤلمة إلى أن تمكن من تسكين اضطرابه فدخل إلى غرفة أعماله وأمر سكرتيره أن يرسل من يدعو إليه رئيس البوليس . فقال له السكرتير : إنه هنا يا سيدي . قال : إذن أدخله إلي .

ودخل رئيس البوليس فقال له دندولو : أتعلم ماذا حدث ؟ قال : نعم يا سيدي ، فإن اثنين من المسجونين قد هربا ، وقد علمت أن أحدهما كان مقضياً عليه أن يعدم اليوم فأسرعت إليك لتلقني أوامرك . قال : أخبرني بما علمته من تفاصيل هذا الفرار . وبينما كان رئيس البوليس يروي هذه التفاصيل كان دندولو يقول في نفسه : ويلاه ، لا بد لي من القبض عليه . ولكنه قد يكون نجاً ورح فينيسيا .

ولما سكت رئيس البوليس قال له دندولو : أتم حديثك . قال : لم يبق علي إلا أن ألتقي أوامرك . قال أوامري؟ قال :

نعم يا سيدي إلا إذا أمرت أن تطلق يدي في العمل .
قال دندولو : إنني أطلق يدك بشرط أن تخبرني كل ساعة عما فعلت ، فإن الأمر خطير وهذان الرجلان شديدا الخطر وأنت تعرفها فيما أظن . قال رئيس البوليس : إن أحدهما هو اللص الشهير الذي قبضنا عليه منذ ستة أعوام .

— والآخر ؟

— إنه رولاند كانديانو .

— إذت إذهب ولا تتس أن تسرع إلى إخباري بكل

ما تعلمه .

فانصرف رئيس البوليس وهو يعتقد أنه ظفر بكل ما يتمناه وأن أبواب الثروة قد فتحت له .

*

كانت الأيام الثلاثة الأولى هائلة على دندولو فإنه لم تكن تضي به ساعة حتى يأتيه جاسوس بتقرير شفاهي أو كتابي وقد جعل هؤلاء الجواسيس يتسابقون في وضع التقارير طمعاً بما يرجون نياله من رضى الرئيس عنهم .

وكان دندولو كلما جاءه جاسوس يسيل العرق البارد من جبينه فقد كبر عليه أن يكون الساعي في القبض على رولاند حتى أنه لو تمكن هو في تلك الأيام الثلاثة الأولى لأخرجه بيده من فينيسيا .

على أن رجال البوليس بحثوا أدق الأبحاث فلم يعثروا على

المبارين الى أن أجمع الرأي العام على أنها غرقا وأن جثتها أصبحتا طعاما للأسماك. وقد شاركهم التياراتي نفسه بهذا الرأي في البدء .

وفي إحدى الليالي كان دندولو ساهراً أرقاً كما كان يتفق له ذلك منذ بضعة أعوام ، فإن إشاعة موت رولاند قد أراحت باله وأعادت اليه شيئاً من السكينة ، فالذي كان يخافه إنما هو تقرير ضميره على ما كان يلقاه رولاند في سجنه من العذاب . فلما وقع من موته استراح ضميره لاعتقاده أن العذاب قد انتهى بالموت . وجعل يعزي نفسه عن إسامته بقوله إنه ليس هو الذي جنى عليه بل إنه تركهم ينجون وهو غير قادر على صدقهم . فاستراح بعد ذلك وكان كل مساءه جاسوس بتقرير عن غرق رولاند بشرق وجهه بنور البشر .

ففي تلك الليلة دخل خادمه وأخبره بقدم جاسوس فأمر بإدخاله فلما دخل هذا الجاسوس بادره بقوله : مولاي ، إني وقفت على أثر سكالابرينو ورولاند كانديانو .

فاصفر وجه دندولو وقال له بصوت أجش : أخبرني بما علمت . قال : ولكنني قبل أن أخبر مولاي بما علمت ألتبس منه أن يذكر بأني فعلت ما لم يستطع فعله بوليس فينيسيا .

قال : سأذكر هذا ، فقل ما علمت وكيف وقفت على أثرهما؟ قال : إن الأمر بسيط يا مولاي ، وهو أني ذكرت أن سكالابرينو كان يتردد قبل سجنه إلى فتاة ربما كانت خليلته وهي تدعى جواثا فذهبت إلى منزل تلك الفتاة واستأجرت غرفة

محاذاة لغرفتها فنقبت في جدارها فتبأ رأيت منه وسمعت .

- ماذا رأيت وسمعت ؟

- رأيت سكالابرينو وسمعت يتحدث مع الفتاة وذلك أمر

لا ريب فيه .

- والآخر ؟

- لم أراه يا مولاي ، فإنه كان مسافراً ولكنني علمت بما

سمعت من الحديث أنه سيعود قريباً . وعلى ذلك فإن القبض عليها بات سهلاً ميسوراً فإننا نقبض على سكالابرينو وعلى الفتاة ونقيم الجنود متتكرين في ذلك المنزل فتمتى عاد رولاند يقبضون عليه .

فذعر دندولو ذعراً عظيماً وقال : نعم ، إن ذلك سهل كما

تقول .

قال الجاسوس : هو ذاك يا مولاي ، ولكن مهما يكن من

سهولته فأنا الذي اهتديت اليه دون سواي .

- نعم ، فإني سأذكر ذلك ولا أنساه ورجائي أن تكون

أخبرت رئيسك وأن يكون قد طوق منزل هذه الفتاة . فانمحي

الجاسوس وقال :

- مولاي ، إن رجلاً فقيراً مثلي قد يقضي العمر دون أن

تتفق له مثل هذه الفرصة في خدمة الحكومة ، فلو أخبرت

رئيسي بما فعلت لكان له الفضل دوني ولكان قتلني كي يخفي

أمري ويستأجر وحده بهذا الفضل . فسمح دندولو عرق جبينه

وقال : إذن لم تخبر رئيس البوليس ؟

- كلا !

- ولا أحداً من رفاقك ؟

- كلا !

- أنت وحدك العارف بهذا السر دون سواك ؟

- نعم يا مولاي فلا يعرفه إلا أنا وأنت .

فنهض دندولو وجعل يسير في غرفته بخطوات غير متوازنة
تدل على شدة اضطرابه ثم وقف أمام الجاسوس وقال له : هلم
وأرشدني إلى هذا المنزل .

وعند ذلك خرج دندولو من المنزل يتبعه الجاسوس حتى
وصلا إلى الشاطئ ، فركبا قارباً وأمر دندولو الجاسوس أن
يهدف ، فامتثل الجاسوس للأمر حتى إذا توغلا قليلاً أمره أن
يسير إلى جهة ليدو . فقال له الجاسوس : ولكن المنزل ليس في
هذه الجهة يا سيدي ؟

- لا بأس ، فإني أريد أن أتفقد هذه الجهة .

فامتثل وسار حتى بلغ إلى ميناء ليدو فقال له : لقد وصلنا .

قال : توغل أيضاً .

فاخترق الجاسوس بقاربه تلك الميناء الغاصة بالسفن
والقوارب وما زال يسير حتى تواری عن الأنظار . وعندئذ
أمره دندولو بالوقوف وقال له : تعال واجلس يجاني .

فأكبر الجاسوس هذه المنة وقال : أنا أجلس يجانبك يا
مولاي ؟ قال : امثل لِمَا أمرتك به .

فلم يسع الجاسوس غير الإمتثال ، فقال له دندولو بصوت

منخفض : أعد عليّ ما قلته فهل أنت واثق كل الثقة بأنه ليس
أحد سواك يعلم أين هو رولاند كانديانو ؟ قال : كل الثقة يا
مولاي .

- ألم يتبعك أحد حين كنت تبحث ؟

- إن مهنتي تقضي عليّ أن أتبع الناس وأنا أعلم كيف أسير
متى أردت أن لا يتبعني أحد .

- حسناً فأصغ إليّ الآن ... ماذا تقول إذا اقترحت عليك

أن تنسى كل النسيان أنك رأيت رولاند ؟

فدهش الجاسوس واعتقد لغوره أنه وقف على سر عظيم وأن
هذا يفيد رئيس ديوان التفتيش فائدة كبرى وأنه سيفهم غمماً
عظيماً فقال له : ماذا تريد بذلك يا مولاي ؟ فابتسم دندولو
ابتسام هياج وقال : أريد أن تنسى أنك رأيت سكالابرينو
وأنك تعرف المنزل الذي سيأتي إليه رولاند .

- كيف ذلك يا مولاي ؟ ألم تقل لي إنك أنت نفسك تريد

أن ترى هذا المنزل ؟

أجبتني أيها الأبله ولا تسأل . أتوافق على ما أقترحه عليك ؟

فأجاب الجاسوس بجرأة قائلاً :

ماذا يكون جزائي إذا قبلت ؟ قال : إن سؤالك معقول
فاعلم إذن أنك تبرح فينيسيا فتذهب إلى روما ولي تفوذ كبير في
تلك العاصمة فتجد فيها بواسطقي منصباً أرفع من منصبك الحاضر
ثم أنقذك خمسين ديناراً ساعة رحيلك غداً .

قال : إني يا مولاي لا أريد أن أبرح فينيسيا على الإطلاق

مها أعطيني ، وفوق ذلك فإن ما تسألني إياه خطير يقتضي الإمعان والتفكير . فقال دندولو : متى تستطيع مجاوبتي ؟ فقال الجاسوس في نفسه : لقد بلغت منه ما أريد كما يظهر ، ثم قال له :

— أسألك يا مولاي أن تهمني إلى الغد ومسا هي بجهة طويلة في جنب فوائد هذه المهمة .

فابتسم دندولو وقال : ليست هذه المهمة قليلة فقط بل إنها غير كافية فافتكر أسأ الشقي إلى الأبد . وعند ذلك جرد خنجره وانقض عليه فأغمده في صدره فسقط الجاسوس صريعا دون أن يصيح .

أما دندولو فإنه جعل يتمعن في وجه هذا الرجل الذي قتله على ضوء القمر ثم نظر إلى ما حوالبه كي يستوثق أنه لم يره أحد ثم ألقى جثة القتيل إلى المياه وعاد بقاربه .

فلما دخل قصره وخلا بنفسه تنفس الصعداء وقال : لقد خدمت رولاند الآن خدمة تحفف جرمي الماضي . أما وقد اطمانت إلى رولاند فقد بت أستطيع الرقاد .

الحزن الدائم

*

كان قصر ألتباري على مسافة مائتي خطوة من قصر دندولو وفي نفس الشارع . وكان بين هذين القصرين قصر أمباريا بحيث أن هذه المخطئة كانت إذا وقفت في شرفة قصرها ونظرت إلى الشمال ترى ما يجري في قصر دندولو ، وإذا نظرت إلى اليمين ترى ما يحدث في قصر ألتباري ، أي ما يحدث عند ليونور .

فلما جاء ألتباري في صباح يوم الصاعقة لإخبار دندولو بفرار رولاند لم يكن لديه غير بضع خطوات البلوغ إلى قصره ، ذلك القصر الفخم الذي كانت قاعاته غاصة بالقواد وكان عشرون جنديا يحرسون أبوابه في الليل والنهار . وذلك لأن منصبه في فينيسيا كان أرفع المناصب ولم يكن نفوذه أقل من نفوذ الدوج نفسه . فإن العادة تقضي بأن يكون الدوج رئيس الجيش الأكبر .

غير أنهم حين ضربوا كلنديانو تلك الضربة الكبرى اتفقوا على اقتسام السلطة ، فتولى فوسكاري السلطة السياسية واستقل ألتباري بالسلطة العسكرية . ولكن فوسكاري كان يراقبه مراقبة دائمة لاعتقاده أن القوة العسكرية يجب أن تكون آلة

تنفيذ أغراض السياسة .

وفي مثل هذه البلاد التي تقتل فيها إرادة الشعب لا بد من اتفاق هاتين القوتين . فهل كان فوسكاري وألتباري متفقين هذا الاتفاق ؟ ذلك ما سنظرة في ختام هذه الرواية دون شك .

*

ولنعد الآن إلى ليونور ، فإنها بعد زواجها بألتباري ، أي بعد عامين ، كانت تقيم في جناح من ذلك القصر الفخم . فكانت تقفل أبوابه على الدوام وتعيش فيه مع نساؤها عيش العزلة . فلما عاد ألتباري من عند أبيها أرسل إليها يخبرها بأنه قادم إليها ، فاستقبلته دون أن تطلق سراح خادمته كانتا عندها . ولكن ألتباري صرفها بإشارة ، فخلا الزوجان وجلس كل منهما على كرسي .

وكان ألتباري قد اضطرب اضطراباً عظيماً لفرار رولاند . ورات ليونور ما كان من اضطرابه حين دخوله فتوقعت حدوث خصام جديد ، وصبرت ساكنة حسب عادتها فإنها لم تكن تكلمه إلا حين تضطر إلى إجابته على سؤال .

وكذلك ألتباري فإنه سكت إذ لم يكن يجد ما يقوله فإنه إنما جاء إليها وهو يخشى أن لا يجدها في المنزل بعد فرار رولاند ، لا اعتقاده الراسخ أنها تهواه . أما وقد وجدها في القصر فلم يعد يعلم ما يقول . غير أن فرار رولاند هاج غضبه على ليونور فابتسم ابتسامة غريبة وقال : أرى أنك لا تزالين تعملين في خدمة المنزل

كأنه لا يوجد فيه خدم وكانك تريد أن تكوني قدوة النساء . وإنما جعل هذا القول مقدمة للخصام ، فلما رآها لم تجبه قال لها : نعم ، إن أبك لم يعطني زوجة بل أنعم علي بمذرة منزل . فأصفي لي يا ليونور : إن هذا العيش يتعبني . قالت : بماذا تؤنبنني ؟ فليس بين أهل فينيسيا من يعرف شيئاً عن حقيقة أحوالنا .

— لقد أصبت ، فلا يحق أن أتألم إذا كان ألمي لا يعرفه أحد .

— إنني أحضر جميع الحفلات التي تحييها في قصرك ولي عناية خاصة بداخلتلك ، وأذهب أكثر الأحيان معك إلى الحفلات كي لا يعلم أحد شيئاً من اتفاقنا ، فإني حين عقد بيننا عقد الزواج كان أول ما اشترطته عليك أن لا أكون امرأتك إلا بالاسم فقط ، وقلت لك : أترضى بهذا الشرط وتمتنع عن اضطهاد أبي ، فرضيت . والذي أراه هو أنه كان يجب عليك في ذلك اليوم ، حين كان كلاً حراً ، أن تقترح علي ما تشاء من الشروط ، ولكنك أقسمت يومئذ أن تحترم جسدي ونفسي ، وأقسمت أنا أيضاً أني لا أدعك تشكو مني ، وقد وفيت بقسمي فبماذا تؤنبنني ؟

قل مما تشكو ، فإني أعير نوع معيشتي على ما تريد ولا أدع للشكوى أقل مجال . فإنك تذكر أنك شكوت مرة أني لا أصعبك في زهاتك فتزهد وإياك في قاربك في ذلك اليوم ، وقد خطر لك ان تسيروني تحت جسر التهديدات فامتثلت لك ولم

أقل لك إن ذلك الأذن الذي سمعناه كان يقطع قلبي ، وما سألتني يوماً أن أصعبك إلا وجدته مستعدة للامثال ، فماذا تريد اليوم؟ فاصفر وجه ألتباري واتقدت عيناه وقال بصوت أجش : أريد أن تكوفي امرأتي . قالت : سكتي يا سيدي ، فانك تعلم يقيناً ما فطرت عليه أسرة دندولو من البسالة وصحة العزيمة ... إني أرى في خطنك ما يدل على الإنذار وهو خير من احترامك للكاذب اليمين التي أقسمتها ... إن إحدى بنات دندولو أنقذت يوماً الجمهورية بقتلها ذلك القائد الذي كان زاحقاً إلى سراي الدوج . وما فعلته ابنة دندولو لحرية الجمهورية تفعله قريبتها لحرية نفسها .

— تريدن بذلك أنك تقتلينني إذا لجأت إلى العنف ؟

— دون تردد .

— وإذا حاولت التنكيل بأبيك .

— أدعك تفعل فقد ضحيت في سبيل أبي آخر ما يمكن أن أضحيه ، فافعل به ما تشاء فإنه لم يعد أبي منذ ذلك اليوم الذي أراد فيه أن يزوجني بك وهو يعلم أن هذا الزواج يقضي علي بالجزن الدائم .

فارتعش ألتباري لغضبه ولعجزه ، فقد تثلت له ليونور مثل عذارى العهد القديم اللواتي يندرن نفوسهن لفسنا إلهة الطهارة فكان أعظم مجلاتهن من الملوك بسلطانهم ، ولكن ذلك لم يكن إلا ليزيده تعلقاً بها .

أما ليونور فإنها أشارت إلى انتهاء المقابلة فأيقن ألتباري أن

مخاطبتها عبث وأن كل ما يبذله من الرجاء والوعيد لا يفيد شيئاً في التغلب على إرادة هذه الزوجة العذراء التي لا تزال تحن إلى خطيبها القديم وقد نذرت في سبيله نفسها فنهض وقال :

— هذه هي المرة الثانية التي أسألك فيها يا ليونور أن تكوفي زوجتي . أما المرة الأولى فقد كانت في ذلك اليوم الذي مررنا فيه تحت جسر التنهدات والمرة الثانية اليوم . وقد دفعتنني إلى تجديده هذه المباحثة حادثة خطيرة حدثت فيه .

ثم ابتسم ألتباري ابتسامة هائلة وقال : نعم ، وهي حادثة قد تثنيك عن عزمك وتغير نهجك معي فإن الوفاء محمود ولكنه لا يجب بعد الموت .

— ماذا تعني بذلك ؟

— أعني به أنه وردنا نعي رولاند كانديانو .

فلبثت ليونور واقفة ولم يظهر عليها شيء من علائم الاضطراب فإنها كانت تعتقد أن رولاند هجرها وأنه ميت منذ ذلك العهد فبقي حزنها في نفسها على ما كان عليه . أما ألتباري فإنه انصرف وهو يقول في نفسه :

« إني أكاد أن لا أكون كذبت في ما أخبرتها ، فإن رولاند إما أن يكون قد غرق أو يكون باقياً في قيد الحياة . فإذا كان غرق كنت صادقاً في نقل خبر موته وإذا كان حياً فلا بد لي من قتله في أقرب حين فأكون صادقاً في الحالتين » .

وأما ليونور فإنها لما خلت إلى نفسها سقطت على ركبتيها

وجعلت تبكي بكاء أليماً كأنها لم تبك منذ ستة أعوام حين
أخبرها أبوها بأن رولاند هجرها وبرح فينيسيا .

سكرتير الشاعر آريتان

*

نذهب بذهن القارئ بعد هذه الحوادث بشهرين إلى قصر
الشاعر بيار آريتان فقد كان له قصر صكدندولو والتيارى
وأمباريا ، وكان قصره على شاطئ البحر الكبرى كسائر
القصور .

وكانت شهرته قد ملأت محافل فينيسيا مع أنه لم يكن فيها
إلا منذ عشرين يوماً ، وذلك أنه أعد حفلة عظيمة دعا إليها
أكابر الشعراء والمصورين والموسيقيين فخرجوا يشنون على كرمه
وحسن ضيافته ويمجّبون بفرش قصره وهو لم يكن قد دفع
درهماً من ثمنه إذ اشتراه كله بالدين !

ففي ليلة من الليالي دخل اثنان إلى ردهة هذا القصر وكان
أحدهما شاباً نشيطاً يبلغ السابعة والثلاثين من العمر وهو لابس
ملابس أهل فلورنسا ، وكان الآخر رجلاً طويل القامة عريض
الأكتاف وخطّ الشيب شعره فسار وراء الفتى وهو مطرق

الرأس . وجلسا في هذه الردهة وأقاما ينتظران دور مقابلتها ،
فإن شاعرنا قد قلّد الحكام في المقابلات فجعل يقابل كل زائر
حسب مركزه واستحقاقه .

وما زال صابرين إلى أن جاءهما خادم ودخل بها إلى غرفة
كان فيها امرأتان تعزفان على القيثارة وفي هذه الغرفة باب دخل
منه الرجل إلى قاعة جديدة فوجدا فيها كثيراً من الرجال
وأربع نساء كنّ يسقين الرجال أفخر الخمر بأجمل الكؤوس .
وكان أحدهما متكئاً على المقعد فنظر إلى الرجلين وقال لهما:
ماذا تريدان ؟ فنظر الفتى إلى ما حوالبه نظرة اطمئنان وأجابته
دون أن يتردد قائلاً : إني أريد أن أرى الشاعر المقيم في هذا
القصر .

— هو أنا ، وأنت واقف بحضرة آريتان ، فقل ما تريد .
— إني أتيت خصيصاً من فلورنسا لأظهر إعجابي بشاعر
إيطاليا العظيم .

فاهتز آريتان لهذا الثناء وصاح بنفسائه قائلاً :

— أين أنتين ؟ وكيف لا تقدمن كرسيّاً لهذا الفتى وتسقينه
من شرابنا ؟

وقد نظر عند ذلك إلى كيس الفتى المعلق في منطقتة فوجد
أنه محشو بالدنانير ففرغ المائدة بيده وقال : لقد أعجبتني كثيراً
أيها النبيل ولا بد لي أن أنظّم فيك قصيدة . فأجابته الفتى قائلاً :
اسمح لي يا سيدي قبل ذلك أن أقول لك قولين أحدهما أي غير
ظمآن إلى الشراب والثاني أي لست من النبلاء .

- ذن أنت من ؟

- إني من الشعراء ، أو إني أحاول أن أكون منهم .

فقطب آريتان حاجبيه وقال : لا فرق في المنزلة بين القلم
والسيف ، فقل بما أستطيع أن أفعلك .

- إني أتيت إلى فيليسيا على رجاء أن أكون سكرتيراً لك .

- يظهر أنك شديد المطامع يا ابني ، فماذا خطمت وبماذا

تستحق هذا المنصب ؟

- إني أستطيع ، إذا أحببت ، أن أنظم الآن ما تريد .

فنظر آريتان إلى الفتى نظرة الفاحص والتفت إلى النبلاء

المحيطين به وقال : إني أود ذلك بشرط ان يوافق عليه ضيوفي .

فأجابهم أحدهم ، وكان جالساً وراء فرقة من النبلاء قائلاً : إن

ذلك أقصى ما تتمناه . فشكر الفتى ذلك الرجل بابتسامة وأجابه

آريتان قائلاً :

- ليكن ما تريد أيها الصديق بمبو ، ولكن ما عسى أنت

يقول عنك المؤمنون إذا رأوك بين الكؤوس ؟ ثم التفت إلى الفتى

وقال له : إبدأ يا بني . فقال الفتى : إني سأنظم لكم حادثة

جرت قرب تريغيز في مغاور بيافا فوق آريتان وقال له : ما

هو عنوان قصيدتك ؟ قال : الشاعر واللص !

فاضطرب آريتان وقال : إنه عنوان جميل ، غير أنني لا

أستطيع سماع قصيدتك الآن فقد ضربت موعداً لصديقي في هذه

الساعة ولم أذكره إلا الآن ، فعد إلي غداً واقرأ هذه القصيدة .

والآن تعال من هنا كي لا تضطر إلى المرور بالردهة .

ثم فتح له باباً وهمس في أذنه قائلاً : إنتظري في هذه الغرفة .

وعاد إلى ضيوفه وقال :

- أسألكم العفو أيها السادة فإن الدوق دي فرّار سألني نظم

قصيدة منذ ثمانية أيام فلم أتمكن من نظمها بعد ، وإني مضطر

إلى نظم قصة أريد إرسالها إلى الامبراطور شارل . فقال له

بمبو : إن حالتك تحمل على الإشفاق أيها الصديق . قال : لا بد

لي من العمل للارتزاق إذ لست كـردينالاً ينفق عن سعة كما يشاء . . .

فابتسم بمبو وقال : إني كـردينال بفضل آريتان ! قال

آريتان : نعم ، إن لي شيئاً من النفوذ لدى قداسة البابا فإنه شديد

البخل بالمال ولكنه كثير الكرم بمنح الألقاب .

ويعد هنيئة انصرف الزائرون فأسرع آريتان بالدخول إلى

الغرفة التي كان ينتظره فيها الفتى وقال له : لماذا اخترت أن

يكون عنوان قصيدتك اللص والشاعر ؟ وما هي هذه الحادثة

التي جرت لها في مغاور بيافا ؟

أما الفتى فإنه أسرع إلى نزع شعر مستعار كان على رأسه

فظهر من تحته رأس رولاند كانديانو وصاح آريتان قائلاً : أهذا

أنت ؟ قال : نعم ، فإني موفٍ بمهدي على رجاء أن تكون

موفياً بمهدك . وفي هذا المقام لا بد أن أكون سكرتيرك إلى

حين ، ثم إني أحب أن أحضر وإياك الحفلة التي سيحيونها

بعد غد .

- عند أمباريا ؟

- هو ذاك . فقل لي الآن كيف تعيش هذه المرأة ، فقد

علمت أن لها بنتاً فهل هذا أكيد ؟

- نعم ، ولكن لا يعرف ذلك غير القليل من الناس !

- ماذا تدعى ؟

- بيانكا .

- وعمرها ؟

- نحو أربعة عشر عاماً .

- إذن يجب أن تتدبر الأمر بشكل تجعل فيه لأمباريا ثقة

عظيمة بسكرتيرك ، فإني أحب أن أرى بيانكا .

- أهذا كل ما تريد أيها الرئيس ؟

- هذا كل ما أريده الآن . وغداً سأحضر إليك وأقترح عليك

أن أكون سكرتيراً لك فتجيبني الى طلي ، وبعد غد أصطحبك

إلى حفلة أمباريا وسنرى ما يكون . والآن أخرجني من هذا

القصر دون أن يراني أحد .. واعلم أيضاً أن هذا الرجل الذي

جاء معي سيكون خادمك وسيذهب وإيانا أيضاً إلى حفلة

أمباريا .

وعند ذلك لبس رولاند الشعر المستعار فسار به الشاعر إلى

باب خفي كائن خلف القصر فأخرجه منه وعاد إلى الرجل

الأشيب الذي كان ينتظره وهو مضطرب لزيارة رولاند وجعل

يقول في نفسه : إن لهذا الرجل قوة غريبة . وأما أنا الذي لا

أخاف إلا أن يفاجئني عدو فقد بتت أخاف هذا الرجل ، فماذا

يريد أن يعمل في فينيسيا ومن هو ؟

وعند ذلك رأى الرجل الأشيب الذي ينتظره فقال له : أهو

أنت الذي تريد الدخول في خدمتي ؟ قال : نعم ، وفي

أقرب حين .

- إنك تدخل الآن إذا أردت .

- إذن يجب أن يكون لي ثوب خاص يُنجز غداً .

- لماذا ؟ الحضور حفلة المحظية ؟

- لا أعلم ، ولكن هذه هي الأوامر التي تلقيتها . وهنالك

أمر آخر وهو أنني أحب أن لا أبيت مع الخدم .

- سيكون لك غرفة خاصة !

- يحسن أن تكون مشرفة على القرعة .

- تعال وانظر إذا كانت موافقة .

وقد عرف القراء دون شك أن هذا الرجل الأشيب كان

سكالا برينو خلافاً للشاعر فإنه لم يعرفه ، وقد ذهب به الى تلك

الغرفة فأراه إيها ووافق عليها .

وفي اليوم التالي قدم الشاعر رولاند لأهل منزله وأخبرهم أنه

سكرتيره وأن صديقه الدوق جان دي مديس الشهر أرسله

إليه فأقام رولاند في ذلك القصر بصفة سكرتير كما أقام سكالا

برينو بصفة خادم .

وفي الساعة التاسعة من مساء اليوم الذي تلاه كان آرينات

الشاعر راكباً في زورق جميل وقد ركب معه فيه سكرتيره

الجديد وثلاثة خدم بينهم سكالا برينو . ولم يصحب معه أولئك

الخدم للزينة والافتخار بل للحذر والدفاع عنه حين الاقتضاء ،

فإنهم كانوا مدججين بالسلاح وسار بهم الزورق بنحر في القرعة

الكبرى ، وبعد هنيهة وقف أمام قصر أمباريا الفخم .
وكان هذا القصر في تلك الساعة يتلألأ بالأنوار والألحان
الموسيقية تحيي القادمين إليه بأشجى الأنغام وقد اصطف نحو
عشرين خادماً من شاطئ الترعَة إلى سلم القصر وهم يلبس
وسئيت بالذهب ، فكان عامة الناس ينظرون إليهم وقد أعجبوا
بهم فوق إعجابهم بالأسياء . فلما مر بهم سكالابرينو أشار إلى
أحدهم إشارة معنوية أجيب عليها بثلمها ، وسار في أثر الشاعر .
أما الشاعر فقد كان لابساً أفخر ملابسه فإنه اتشح بوشاح
من المحمل أهداه إياه المركيز دي جاست ، ولبس في رأسه
قلنسوة رصعت جوائنها بالماس وهي مهداة إليه من الدوق دي
أربين ، ولبس في عنقه سلسلة طويلة من الذهب أهداها إليه البابا
لاوون العاشر .

فصعد السلام إلى ردهة متسعة ودخل منها إلى القاعة الكبرى
حيث كان المدعوون ومعظمهم من ظرفاء أهل الفن وجميلات
النساء اللواتي لا مقام لهن بين العائلات .

وكان في إحدى زوايا القاعة جوقة موسيقية تعزف على
آلاتها ألحاناً ترددها المغنيات ، والحدم يطيفون بالشراب على
الحضور .

وقد أخذت الخلاعة حدها وفازت دولة المجون وطافت
أمباريا بين ضيقها تجامل هذه بكلمة وذلك بابتسامه وهي مشرقة
الوجه طلقة الحميا لوقوفها في هذه الحفلة موقف الملكات .

فلما دخل آريتان الشاعر كثرت المعس بين المدعوين كما يحدث

عادة حين دخول أحد المشاهير إلى حفلة كثر فيها اجتماع الناس ،
وسار الشاعر تَوّاً إلى أمباريا فأشار رولاند إلى سكالابرينو أن
يتبعه وتوارى بين تلك الجموع .

*

لم يكن آريتان وأمباريا قد عرف أحدهما الآخر قبل هذه
المرّة فجعل كل منهما ينظر إلى صاحبه نظرة الفاحص ليعلم هل
يستحق ما ناله من الشهرة ، وقد اجتمعت فرقة من الرجال والنساء
حولهما في الحال فبدأ الشاعر الحديث فقال :

أقسم بأمي يا سيدي أنه لم تتل امرأة من شهرات الجمال ما
نلته ، فإنك فينيس إلهة الجمال نفسها ، بل إنك فوق مرتبة هذه
الإلهة ، فإن جسمك وأعضائك أكثر تناسباً من جسم فينيس
التحيفة الشقراء . إذن أعد نفسي الآن مائلاً بحضرة جينون ملكة
الأولمب وسيدة الآلهة !

فمدت أمباريا يدها إليه وهي تقول :

لأرب أني جميلة ، ولكنك شاعر مبدع تخلق الكلام الساحر
والقوافي المذهبة . فأنت أحق مني برضى الآلهة التي تتكلم عنها .
على أني أؤثر أن أكون أنا كرينو على أن أكون جينون ، ومن
كانت مثلي لا تسرّ بيها لها إلا على رجاء أن يمدح شاعرٌ مثلك
هذا الجمال !

١ - شاعر يوناني قديم كان مجونياً غزلاً لا ينظم الشعر إلا في أوصاف
النساء .

فتبادل الاثنسان ابتسامة دلت على أن كلا منهما قد عرف صاحبه حق العرفان . وجلس الشاعر بجانب أمباريا فجعلا يتحدثان بأحاديث كان محورها الغرام . واختلطت بهما الفتيات والفتيات واقترحت الفتيات أن يتلو الشاعر على الحاضرين شيئاً مما نظمه في الحب ، فقبول الاقتراح بالتصفيق ، ونهض الشاعر وتلا قصيدة رشيقة في هذا الموضوع .

وفيما هو على إنشاده دخل فتى يدعى كريماني وهو ابن كريماني الشيخ أحد أعضاء مجلس العشرة .

حتى إذا قرغ آريتان من قصيدته وفرغ الناس من التصفيق والتهافت للشاعر وقف كريماني وصاح قائلاً بصوت مرتفع :

— أتصفقون وتهتفون لهذا المتمرد العاصي الذي يهجو أبي ويتهمه بالظلم والفساد ومصائب العباد ؟

فقالت له أمباريا : أرجو أن لا تنسى يا سيدي كريماني أن الشاعر ضيفي .

فظهرت علائم الاستياء على جميع الوجوه من كريماني الذي أفرط في الشراب هذه الليلة فلم يحترم تلك المهظية التي يجلسها الجميع ولم يحترم الشاعر آريتان الذي هابه حتى البابا !

أما كريماني فإنه أجابها بملء الفم قائلاً : لا جرم إذا كان ضيف محظية فهو ابن محظية !

فرفع آريتان قبضته احتراماً لذكر أمته وقال : إنك تهين أبا الفتى امرأة ماتت في المستشفى وقد سحت عارها تلك القصيدة الشهيرة التي نظمها فيها . أما أنا فإذا كنت ابن محظية فإن بين

جني قلب أسد نبيل . ولكنك ابن رجل من مجلس العشرة وليس في صدرك غير قلب جاسوس حقير . ولذلك لا أتداني إلى معاقبتك بل أدع أمر تأديبك إلى خدمي .

قال الشاعر آريتان هذا القول يجرأة نادرة ، فتلهّب كريماني حقدًا وصاح به قائلاً :

— ويح لك أيها الشقي ! إني سأدعك تموت في المستشفى كما ماتت أمك . فحاول عند ذلك كثير من المدعويين أن يتدخلوا في أمرهما فدفمهم كريماني بعنف وهجم على الشاعر . ولكنه قبل أن يصل إليه شعر أن يبدأ من حديد قد قبضت عليه . ذلك أن سكالا برينو كان قد أسرع إليه فقبض عليه وسأل آريتان قائلاً :

— أين تريد يا سيدي أن ألقى هذا الرجل ؟ فقال له آريتان : — ضعه في قاربه واجتهد أن لا تسيء إليه .

فضحك الجميع وحمل سكالا برينو ذلك الفتى الهائج كما يعملون طفلًا وخرج به بينما كان آريتان يقول لأمباريا :

— لقد أحسنت يا سيدي بتدريب خدمي ، فلو اضطرتت إلى أن أؤدب بنفسي هذا الوقح لحزمت هنيئة من مشاهدة جمالك ولما غفرت لنفسي هذا الذنب العظيم !

وجرت الحفلة في مجراها وعاد الفتيان والفتيات إلى الرقص على الحان الموسيقى واستأنفت أمباريا الحديث مع الشاعر فقالت : ما الذي جاء بك إلى فينسيا يا سيدي ؟ قال : أولاً رغبتني في مشاهدة جمالك الفتان ووصفه بما يوحيه إلى قريحتي ، ثم

رسالة وردت من صديقي الكردينال بيمو .

فارتعشت أمباريا وقالت : أعلتك تعرف الكردينال الجديد ؟ قال : كيف لا أعرفه وأنا الذي سميت لتعيينه في هذا المنصب ؟ فهل تعريفه أنت يا سيدتي ؟ فقالت بلهجة دلّت على الحقد والرعب معا : نعم ، أعرفه فهو من أصدقائي .

وعند ذلك أشارت إلى خادم أن يدنو منها فقالت له : ادع لي ماريا ... وكأنما خطر لها خاطر أخافها حين ذكرت بيمو . ثم عادت إلى معادئة آريتان فقالت له :

- أفي نيتك الإقامة في فينيسيا ؟ فقد علمت أنك استأجرت قصرأ فخيماً وفرشته بأيدع الرياش ؟

- نعم يا سيدتي ، وأرجو أن تطول إقامتي فيها لِمَا أراه من جمالها الساحر .

- وفوق ذلك فإن هذا القصر الذي أنت فيه يشبه الحصون المنيعة بحيث تكون آمناً فيه وتناضل أشد الناس .

- يظهر يا سيدتي أنك مجيد في قراءة الأفكار فإذا أحببت أن تتحد فإننا نسود على فينيسيا .

فضحكت أمباريا وقالت : إني أرضى بهذه المحالفة ولكل قل لي من هو هذا الرجل الذي كان يسير معك حين أتيت ؟

- أتعتين سكرتيري باولو ؟

فأطرقت مفكرة وقالت : هو سكرتيرك ؟

وعند ذلك جاءت امرأة طاعنة في السن وقالت لها : أدعوتيني إليك يا سيدتي ؟ قالت : نعم يا ماريا ، فإذا تصنع

بيانكا ؟ إني أريد أن تسهرني عليها هذه الليلة وأرجو أن لا يصل إليها ضجيج الموسيقى فيقلقها .

- كلا يا سيدتي إنها لا تصل إليها ، وهي الآن نائمة نوم الملائكة ولكنها كانت منحرفة قليلاً قبل الرقاد .

فاصفر وجه أمباريا وقالت : كيف لم تقولي لي ؟

- إني لم أجسر على ذلك بسبب الحفلة .

- وماذا تهمني الحفلة أيتها البلهاء ؟ قولي الحقيقة ، إنها لا تزال مريضة ، أليس كذلك ؟

فتمتمت العجوز قائلة : إنها متوعكة نوعكاً خفيفاً لا يذكر . فالتفتت أمباريا إلى آريتان وقالت له بصوت يرتجف : أرجوك

المعذرة يا سيدتي ، فسأغيب عنك لحظة . قال : يظهر يا سيدتي أن صحة هذه الفتاة عزيزة عندك . قالت : إني أحبها فوق ما

أحب حياتي .

- أعلتك متصلة بها بصلة قربي ؟

- إنها ابنتي !

- إنك أصبت دون شك ما دمت تحبين ابنتك هذا الحب . فهزت أمباريا كتفها وقالت : إني أحببت مرة في حياتي ،

فلقيت عذاباً لا يلاقيه الكافرون في جهنم . غير أن هذه الفتاة لا دخل لها في الحب وأنا أحبها من أجلها حباً مجرداً .

- مهما كان الأمر فإنك تسرّين أن يكون لديك الآن طبيب ماهر !

- إذا كانت بيانكا مريضة فإنني أدفع لهذا الطبيب ما يقنيه .

- إني أقدم لك طبيباً من أصدق الأطباء دون أن تدفعي له شيئاً ، فإنه سكرتيري الذي سألتني عنه منذ حين .
فارتفعت أيضاً أمباريا للذكر هذا السكرتير وقالت : إذن تعال معي .

ثم قامت وسارت وإياه تحترق القاعات وهي تبتسم للراقصين والراقصات بالرغم عنها حتى وصلت إلى غرفة صغيرة لم يكن يصل إليها ضجيج المحتفلين فقالت لأريتان : إنتظري هنا ، فإذا كانت بيانكا مريضة دعوتك إلي . قال : حسناً ، وأنا سأبحث في خلال ذلك عن سكرتيري .

وغابت أمباريا بضع دقائق فلما عادت وجدت أريتان مع السكرتير ومع ذلك الخادم المهائل الجثة الذي حمل ابن كريماني إلى القارب . فلما رأت السكرتير أسرعت إليه وقالت له : هل أنت طبيب يا مسيو باولو ؟ قال : نعم يا سيدي . فاهتزت أمباريا لهذا الصوت وقالت له : تعال معي .

ثم دخلت به فاجتازت ثلاث غرف حتى انتهت إلى غرفة كانت بنتها منطرحة على مقعد فيها وهي بملابسها . ولم يكن هذا السكرتير طبيباً فإنه كان رولاند ومع ذلك فإنه لم يفته أن الفتاة غير مريضة . أما أمباريا فإنها أخذت يسد بنتها وجعلت تقبلها وتقول : ماذا أصابك يا ابنتي وماذا تشعرين؟ لا تكتمي عني شيئاً فإن هذا الرجل الواقف أمامك من مشاهير الأطباء وقد أتى ليشفيك . فقالت لها : إني لا أشكو شيئاً يا أمي ولست مريضة .

ومن الغريب أنها كانت تقول لها هذا القول وهي تحاول الهرب من قبلاتها وتتشهد . فقالت أمباريا :

- ألا تتألمين من معدتك ؟

- كلا !

- ألا تشعرين بدوار في رأسك ؟

- كلا يا أماء !

وكان رولاند ينظر إلى الأم والبنات ثم سار بأمباريا إلى آخر الغرفة وقال لها : أملك تخشين أن تكون ابنتك مسمومة ؟

فدعرت أمباريا ذعراً عظيماً وقالت : إفحصها ، بالله !

قال : اطمني يا سيدي ، فهل أنت واثقة بي ؟ قالت : نعم

نعم ، ولا أعلم ما الذي يدعوني إلى هذه الثقة التامة . قال : إذن

تفضلي بالخروج من هذه الغرفة ومرري الخادومات أن يخرجن أيضاً .

فظهرت على أمباريا علائم الخوف فقال لها : إذا لم يكن لك

بي ثقة تخليت عن موضعي لطبيب آخر .

- كلا ، كلا ، فإن ثقتي بك عظيمة .

وعند ذلك أشارت إلى الخادومات فانصرفن ثم عانقت بنتها

عناقاً طويلاً وانصرفت ، فقال لها رولاند قبل أن تتوارى عنه :

تفضلي يا سيدي وقولي لخادم المولى أريتان أن يبقى قريباً مني

حتى إذا احتجت إليه تاديبه فإنه متعود علي .

فلما انصرفت أمباريا نظرت بيانكا إليها نظرات تشف عن

الغضب وتمتت قائلة :

- إذهي . عودي إلى حفلتك واتركي بنتك وحدها . وقد

سمع رولاند قولها ففهم علتها وقال لها برفق :

— أتريدين يا ابنتي أن نتحدث قليلا ؟

فأجابته بنبرات دلت على تهيج عصبي قائلة : إنني أود أن أكون وحدي ... إنني لست مريضة .

— إنني أعلم يقيناً أنك لست مريضة في جسمك بل في نفسك أيتها الطاهرة البريئة ، فقولي لي كل شيء وثقي في قلبي صديق .. إنك حزينة جداً أليس كذلك ؟ أنظري إلي يا ابنتي وتعتني بوجهي تعلمي أنني شديد الإخلاص وأني لا أريد لك إلا الخير .

وكانت بيانكا مغطية وجهها بيدها فنظرت إلى ذلك الرجل الذي يكلمها بهذا الحنو فدهش رولاند لهذا الجمال النادر إذ كان لها جمال أمها ولكنها كانت تزيد عليها تأثيراً في النفوس لما كان يظهر بين عينيها من دلائل الطهارة والسلامة . وقد كانت تربت خير تربية وتعلمت معظم العلوم كبنات النبلاء في ذلك العهد .

وقد كانت أمها أبعدها عنها زمناً طويلاً إشفاقاً عليها من أن تفسد أخلاقها بإقامتها معها ، ثم تغلبت عواطف الأمومة على ذلك الإشفاق ولم تعد تطيق فراقها فذهبت إليها وعادت بها إلى قصرها فأقامتها في جانب معتزل منه . وكانت كل ليلة تخرج وإياها إلى النزهة فلا تظهر عند ذلك بظهور المحظيات وأهل الخلاعة بل تتأدب كل التأدب بلبسها ومشيتها ونظراتها فإذا اتفق أنها لم تصحبها إلى النزهة أبقمتها في القصر وبلغت في الحرص عليها كي لا يراها أحد من الرجال .

وعلى الجملة فلم يكن هنالك غير القليل يعلمون أن

لامباريا بنتاً .

وقد لبثت بيانكا هنيئة تنظر إلى رولاند نظرة الفاحص إلى أن قالت : نعم ، أرى أنني أستطيع أن أعاملك معاملة الصديق فإنك لا تشبه أولئك الرجال الذين يزورون أمي ، وإن نظراتك ليس لها قحة نظراتهم حتى أنني طالما تمنيت أن أعيش وإياها منفردين في بيت صغير .

— إذن أنت لا تودين أن تحضري هذه الحفلات التي تجري في

هذا القصر ؟

— بل إنني أذعر منها ، وأمس توصلت إلى أمي أن تمتنع عن هذه الحفلات فأبوت وتركتني شقية .

وهنا جعلت تشقق بالبكاء . فتوجع رولاند لمصاها وتركها تبكي إلى أن سكن تأثرها ومسحت دموعها فقال لها : ومع ذلك فإنك تحبين أمك ؟ قالت : نعم ، إنني أحبها وأشفق عليها لأنه كان يخيّل لي مراراً أنها هي نفسها غير سعيدة ! إنني أحب أمي حباً شديداً حتى أنه إذا وجب أن أضحي نفسي في سبيلها لما تأخرت ، ومع ذلك أرى أنه خير لي لو تركتها وبرحت هذا القصر .

فارتعش رولاند وقال : ولكن لماذا تؤثرين فراقها وهي تعبدك كما رأيت وأنت تحبينها أصدق حب كما تقولين ؟

— لا أعلم ، ولكنني أختنق هنا .

— ربما كان ذلك لأنك مقيدة !

— كلا ليس هذا ، فإني لو عشت سجينة لما باليت ، ولكنني

أكاد أحتسب لأنني أشعر هنا بأنه تجري أمور سافلة يضيق صدري لها ولا أفهمها .

- إطمئني يا ابنتي وتعزّزي فلا تجري هنا أمور يمكن أن تحزنك .

فنظرت إليه ببانكا محدقة وقالت : إنك لا تقول لي كل ما تقتكر به وقد عرفت ذلك من اضطراب صوتك ومن عينيك ، فلماذا لا تقول لي الحقيقة ؟

- لأن هذه الحقيقة يجب أن تبقى مكتومة عنك فإذا فُتِح باب فابتعدني ، وإذا سمعت ضجيجاً فضمي إصبعيك في أذنك ، وإذا رأيت خيالاً فأغمضي عينيك .

- لقد ثبت لي الآن أنك صديق صادق .

- نعم ، وإني خير صديق فتقي بي .

- إنك وصفت لي بكلمات موجزة جميع ما ألقاه هنا ، وإن كل ما أوصيتني به كنت أجريه هنا من تلقاء نفسي بالسليقة دون أن أعلم إذا كان ذلك يقيني الأخطار أو يعرضني لها . وحبذا يا سيدي لو تمكنت أن تقنع أمي بأن تغادر فينيسيا فإني قبل أن أكون هنا كنت من أسعد الفتيات .

- أين كنت من قبل ؟

- كنت مقيمة عند عائلة من الفلاحين في قرية ماتو فكانت أمي لا تزورني إلا مرتين في كل عام ، فكنا نلعب سوية كأختين وكنا سعيدتين إلى حد أنها حين كانت تسافر أشعر أن قلبي قد انتزع من صدري ، فهذه هي الحياة التي أريد أن أعود إليها .

- تأملي خيراً يا ابنتي ، فإني سأبذل جهدي كي أتمكن من إقناع أمك . فضمّت ببانكا يديها وقالت :

- إنك تنقذنا معاً يا سيدي إذا فعلت . فتى مخاطب أمي ؟ - عندما تسنح الفرصة ، وربما خاطبتها الليلة بل غداً فإني في حاجة إلى التمعّن .

- إنك كريم القلب يا سيدي ولا أحب أن تنقصني شيء من الثقة بك .

- وما الذي ينقصك يا ابنتي ؟

فاحمرّ وجه ببانكا وقالت : إني لم أقبل لك كل شيء يا سيدي ، ولكن يجب أن أخبرك بكل أمري ولا سيما لتعلقه برجل يأتي إلى هنا .

- أخبريني بأمر هذا الرجل .

- اتفق يوماً أن أمي ذهبت بي إلى التزهة فتوغّلت في القرعة حتى بلغت إلى « بيدو » وهناك لقيها رجل عرفها بالرغم عن تبرقع وجهها . أما أنا فإني ذعرت ذعراً شديداً لنظراته .

- هل تستطيعين أن تصفي لي هذا الرجل ؟

- إنه شديد الفحج وقد كان في ذلك اليوم يلبس ملابس الرهبان ، ولكن ملابسه كانت بنفسجية ...

فتمتم رولاند قائلاً : إنه يميؤ !

قالت : وبعد ذلك بشهر رأيت باب هذه القرعة قد فُتِح ودخل منه هذا الرجل وكانت عيناه تتقدان فجعل يقول لي أفواهاً لم أفهمها لفرط اضطرابي وقد ذعرت منه فصرخت

مستغنية، وأقبلت الخادما فخرج الرجل وهو يمتدح بأنه كان
مخطئاً .

— وماذا قالت أمك حين عرفت ذلك ؟

— لم أجسر على إخبارها بهذه الحادثة . وفوق ذلك فإني
كنت أرتجف حينما كنت أفكر بها .

— إطمئني يا سيدي فسامحك من هذا الرجل .

— أتعرفه إذن ؟

— نعم أعرفه . والآن أستودعك الله يا ابنتي فلا تخشي

خطراً بعد الآن واشكري الله الذي سهّل لك الاجتماع بي واعلمي
يقيناً أنني سأقولي حمايتك منذ الآن .

فأخضت بيانكا وقد بدت عليها علائم الامتنان . أما رولاند
فإنه فتح الباب ونادى سكالا برينو فقال له بصوت منخفض :

أنظر إلى هذه الفتاة . قال : إني أراها أيها الرئيس .

— حدثني يا فتاة . قال : إني أراها أيها الرئيس .

— إن رسمها لا يغيّب عن ذا كرتي .

فلما أيقن رولاند أن سكالا برينو تعرفس بوجهها قال له
بصوت مرتفع : إذهب الآن واتمني بالحاجات التي ذكرتها لك .

فانصرف سكالا برينو وأشار رولاند إلى بيانكا إشارة
وداع وانصرف أيضاً . فلما صار خارج الباب لقيته أمباريا

فقالته له : ماذا رأيت ؟ قال : لا شيء يشغل البال يا سيدي ،
وإذا شئت أن تتحققني من ذلك فادخلي إليها .

فأسرعت أمباريا إلى غرفة بنتها وخلا رولاند بآريتان

الشاعر فقال له : أريد أن تدعو صديقك ببو إلى مأدبة لا
يحضرها إلا أنت وهو وأنا .

قال له هذا القول واسترسل إلى التفكير فجعل يقول في
نفسه : ما هذا القدر الغريب ؟ فإن هذه المحظية السافلة قضت

عليّ بالشقاء الدائم لحرمانني إياها من لذة ساعة ، إذ لا شك لديّ
بأن يدها قد انغمست في تلك الجريمة ، جرعة الوشاية بي . وهي

دوت شك قد كانت آله في أيدي ألتباري وفوسكاري وببو
لإلقائي في هوة لا حد لها من اليأس !

وقد علمت الآن أن لها بنتاً وأنها تحب بنتها فقلت في نفسي :

لقد دنت ساعة الانتقام الرهيبة ! ولكنني حين خلوت بها سررت
الشفقة إلى قلبي ورأيت هذه الفتاة تشبه الملائكة الأطهار وأنها

جديرة بالرحمة والإعجاب ، وقد أتيت خصيصاً لأفجع أمها بها
وأحرق قلبها عليها وعدت ولا هم لي إلا إنقاذها ... فكيف

أستطيع الانتقام من أعدائي إذا لم أنتزع هذا القلب الرقيق الذي
بين جنبي ؟

وعند ذلك خرجت أمباريا من غرفة بنتها فأسرعت إلى
رولاند وأخذت يده بيدها وقالت : إنك حقيقة من أروع

الأطباء ، فإني لم أجد بنتي قبل الآن على ما هي عليه من الصحة
والعافية .

ثم التفتت إلى الشاعر آريتان وقالت له : إسمح لي يا سيدي
أن أهنتك بسكرتيرك فإنه كنز ثمين . قال : ألم أقل لك يا
سيدي إنه من أحذق الأطباء ؟

أما رولاند فإنه حين شعر بلمس يد أمباريا هاج الحقد
والنفور في صدره ولكنه كتم ما به وقال لها : أعلّك اطمانت
يا سيدي ؟ قالت : كيف لا أطمئن يا سيدي ؟
- وإذا قلت لك إن ظواهر هذه الصحة كاذبة وإن ابنتك
حقيقة مريضة ؟

فاصفرّ وجه المحظية وقالت : إنك ترعبي يا سيدي . قال :
أتأذنين لي بخلوة ؟

- دون شك ، فلم بنا !

- كلا ، فلنرجى ذلك إلى الغد فإن ضجيج الحفلة يزعجني .
- إن الغد بعيد ولا أظن أي أعيش إلى الغد ، فإن القلق
يقتلني ، فقد عند انتصاف الليل فإني أجد وسية لفضّ هذه
الحفلة وإطلاق سراح الناس .

- حسناً فسأحضر عند انتصاف الليل .

ثم تركها وانصرف . فوقفت أمباريا تقول في نفسها : عجبا !
أذكر أنني سمعت هذا الصوت ... ولكن أين سمعته ؟ وما بال
نظرات هذا الرجل تثير في قلبي تذكارات هائلة ؟

*

وعند انتصاف الليل تفرّق جميع المدعوين وأمرت أمباريا
بإطفاء الأنوار وانصرف الخدم فساد السكون في هذا القصر .
وذهبت فجلست عند الباب الأكبر كي تفتح الباب بنفسها عند
قدوم الطبيب الذي كانت تنتظره .

وبعد هنيهة أقبل رولاند ، أو الطبيب باولو ، فأخذت بيده
ودخلت به إلى إحدى الغرف فجلست على كرسي وأشارت إليه
أن يجلس بجانبها .

فأحسن رولاند باضطراب لم يشعر مثله إلا ساعة فراره من
السجن ، وذلك أن هذه الغرفة التي أدخلته إليها كانت نفس
الغرفة التي قادته إليها في تلك الليلة الهائلة التي كانت سبب شقائه
الدائم . فاصفرّ وجهه تحت ذلك البرقع الرفيع الذي كان
متكرراً به وهاج الانتقام في صدره فخطر له أن يبطش بها
لفوره وضم يديه وحاول أن يهجم عليها ...

ولكنها لم تر شيئاً من اضطرابه فقالت له برفق : تفضل يا
سيدي الطبيب وحدثني عن بنتي . فضم رولاند يديه وتهدأ
تنهداً عميقاً كاد يتمزق به صدره وقد ذهب من نفسه خاطر
الانتقام ولم يعد يرى في تلك المرأة غير الأم التي تذوب حناناً على
بنتها ، فبدل جهداً عنيفاً كي يترك تلك الذاكرة القديمة وقال :
ماذا تخافين يا سيدي ؟ قالت : لا أعلم ! فإني أحب ابنتي حباً
لا تصفه الألسن حتى إذا أصيبت بأقل عارض أصبت بما يشبه
الجنون ... وبلاء ، إنني لا أدري ما يكون إذا فقدتها .

- يستحيل أن يكون هذا كل الذي تخافينه !

فارتعشت أمباريا وقالت : ماذا تعني بما تقول :

- إن بيانكا قوية البنية سليمة الجسم ولكنها بارعة الجمال .
ألست تؤثرون يا سيدي أن تجذب عيناها الجميلتان قلب أحد من
الرجال ؟

فاصفر وجهها وقالت : ولكن يجب مع ذلك أن تزوج .
- ليس هذا الذي تخافينه ! فلو جاءها كريم الأخلاق حلو
الشائل يجيبها وتجنبه وسألك أن تزوجه بها لما رفضت طلبه ،
ولكنك تخافين أن يكون قد رأها أحد أولئك اللصوص
الضواري الذين ليس لهم من صفات الإنسانية غير وجوه بني
الإنسان !

- إنك ترعبني يا سيدي !

- ربما تكون عينها قد جذبت قلب واحد من أولئك
الكواسر ، فإذا كان ذلك فالويل لابنتك فإن ذلك الوحش
يراقب بنتك وهو شديد الظمأ إلى دماغها يعلم يقيناً أن هذه
الفريسة لا يمكنها النجاة منه ويتأهب للانتقاض عليها . فإذا
كان ذلك يا سيدي فاحذري قبل أن يفوت الأوان .

فأجفلت أمباريا منزعرة وصاحت صيحة رعب فقال لها
رولاند : ما هذا الاضطراب الذي تولاك ؟ فإني لم أقل ما قلته
إلا على سبيل الافتراض والظن . وفوق ذلك فانك مقبلة مع
بنتك تسهرين عليها وتراقبينها أشد المراقبة . ومن يحسر على
مهاجمة فتاة أمام أمها إلا إذا كانت الأم تحالفت شرراً مع ذلك
السيء . أو كانت تلك الأم قد اقترفت مع ذلك المسيء جريمة
قيّمتها به وجعلتها عاجزة عن صد إرادته ؟!

فوثبت أمباريا إلى الباب كي تستوثق أنه لا يوجد من يسمعا
وعادت إلى رولاند فقالت له بصوت يتلجلج : من أنباك بما
تقول؟ وكيف عرفت هذا الاتفاق المقود بيني وبين هذا الوحش

الكاسر بل هذا الأفعى الذي يدعونه بالكردينال ؟
- لا أفهم ما تقولين يا سيدي ، وإنما قلت ما قلته على سبيل
الظن . ويظهر أنني قلت الحقيقة دون أن أريد .
- إذن أنت لا تعلم شيئاً ؟
- كلا !

فتنهدت أمباريا تنهد المنفرج بعد ضيق وعناد رولاند إلى
الحديث فقال : ولكن يجب أن أعلم كل شيء إذا أردت أن
أضمن سلامة بنتك من الأخطار التي تتهددها .

فارتعدت أمباريا وأرخت عينيها وشعرت أن لصوت هذا
الرجل سلطاناً عليها فقالت له : سأخبرك بكل شيء .
- إذا كان ذلك فتفضلي يا سيدي بلإقناني على الحقيقة وثقي
أنه لم يكن يخطر لي أن أقف على هذه الأسرار المحزنة حين
عهدت إلي أن أفحص بنتك البريئة .

- البريئة ؟

- نعم إنها بريئة دون شك من الجرائم التي ارتكبتها سواها ،
وربما قضي عليها أن تتحمل تبعاتها .

فأنت أمباريا أنيناً حزيناً وقالت :

من أنت أيها الرجل ؟ فإني بحياقي لم يكلفني أحد بمثل هذا
السلطان ولم يسهر أحد قبلك غور أفكاري كما تسهرها فمن أنت ؟
إني أريد أن أعرف من أنت !

وقد قالت له ذلك وحدقت به كي تفحص ملامحه لترى إذا
كانت تنطبق على ملامح الرجل الذي كان ممثلاً في ضميرها في

تلك الساعة . فأجابها رولاند قائلاً :

— إنني يا سيدتي كما تعلمين سكرتير الشاعر آرثان تلقيت دروسي في فلورنسا وقضيت شبابي في درس العلوم الفلسفية وربما كانت هذه العلوم هي التي ترشدني إلى خفايا القلوب . وقد كنت قبلاً عند الدوق جان مدسيس ولولا صداقته العظيمة مع آرثان الشاعر لما تخلى عني . فتكلمي يا سيدتي فأني مصغ إلى بك وامسحي لي أن أسألك .

قالت : سل يا سيدي ما تشاء فإني مستعدة لإجابتك . قال : لقد خطر لي خاطر يا سيدتي وهو أنه إذا كان هناك خطر يهدد بيانكا فلا بد من وجود رجل يشترك معك بالدفاع عنها .

— من هو هذا الرجل ؟

— أبوها !

— أبوها ؟

— وما الذي أذهلك؟ فأني واثق أنه إذا بلغه ما يهدد بنته من الخطر يسرع لفره إلى نجدها وهذا طبيعي معقول . وامسحي لي يا سيدتي أن أتكلم ببله الحرية والجلاء كي لا يكون بيننا سوء تفاهم ، فإنك مشهورة بالظرف وسلامة الذوق فلا يمكن أن يكون والد بيانكا من أوضاع الناس وهو دون شك من كبارهم وله بسطة ونفوذ .

فعاد الرعب إلى قلب أمباريا لما كانت تجده في لهجة رولاند من دلائل التهكم وقالت له : وأنا أحب أيضاً أن أأكلك ببله الحرية فإن المسألة خاصة ببنتي .

— تكلمي يا سيدتي وثقي أنني لا أظلمك بحكم .

— إذن فأعلم إنني لا أعرف والد بيانكا .

— إنني أشفق عليك يا سيدتي إذ كيف يمكن عدم معرفة ذلك الرجل الذي أحببته والذي تمثلت صورته في ضميرك وتسلطت عليك بشكل مولود تحببته إلى حد العبادة ؟ فإذا كان ذلك فأنت شديدة المهـم دون شك . وقد ذكرتني حكايتك بحكاية امرأة قالت لي في بدء الحكاية ما تقولين ، وذلك حين لقيتها منذ عامين في ضواحي تريفيز بقرية تدعى فيا أظن تريفيرا قرب مغاور بيافا .

فوقفت أمباريا وجعلت تنتظر إلى رولاند نظرات تتوهج ! فقال رولاند : وحكاية هذه المرأة يا سيدتي أنها ضلت الطريق حتى انتهت إلى مغاور بيافا فلقيتها هناك وأمنتها من خوفها وأقنا نتحدث . وكانت جميلة مثلك وهي مثلك أيضاً تحب الأمور الغريبة فحكيت لي حكايتها .

— ما هي حكايتها ؟

— هي أن هذه المرأة كانت مسافرة إلى روما من عهد طويل فأحاط بها فريق من اللصوص وجاؤوا بها إلى مكان مقفر مخيف يُدعى المغارة السوداء ...

فاحمر وجه أمباريا ثم اصفر ، وكان رولاند يراقبها فمضى في حديثه فقال : وقد خطر لهذه المرأة الغريبة الأطوار أن تسرى بأحد هؤلاء اللصوص فاختارت من بينهم واحداً ... فصاحت أمباريا صيحة دهش تظاهر رولاند أنه لم يسمعها ،

وتابع يقول :

وقد أراد الله يا سيدتي أن يُنعم على هذه المرأة بمولود من ذلك اللص وهي عاقر لم تسد على طول صحبتها الأمراء والتبلاء فولدت بنتاً .

فوقفت أمباريا عند ذلك وقالت له : كفى ، كفى ! فان اجتماعك بهذه المرأة في المغارة السوداء لم يكن إلا من مخترعاتك وأنت لا تريد إلا أن تعينني بهذه الحكاية ...

— أعنيك أنت يا سيدتي ؟

— نعم أنا ، ولكني لا أعلم كيف اتصلت بك هذه الحكاية ولا أعلم غرضك من قصها عليّ !

قال : إنك مخطفة يا سيدتي ، فإذا كانت هذه الحكاية قد اتفقت لك ألا يمكن أن تتفق لسواك ؟ فهزت أمباريا رأسها وقالت : إنك حاولت أن تعرف والد بيانكا فعرفته الآن وعرفت أنه من اللصوص ، ولكنني لم أعرف اسم هذا اللص ولا حاولت مرة أن أعرفه ولو لقيته لما ذكرته ، فأنت ترى الآن أنني لم أكن كاذبة حين قلت لك بأنني لا أعرف والد بيانكا .

— إذن لنضع الأمل بالاعتماد على والد بيانكا في سبيل إنقاذها من يعبو ...

فظهرت عند ذلك علائم اليأس على وجه المخطفة وقالت : يبو ؟ ومن الذي كلمك عن يعبو ؟ ومن أنباك أنه هو ذلك الرجل الذي أخافه ؟

— أنت يا سيدتي ! نعم إنك لم تذكرني اسم يعبو ولعلك

قلت لي منذ حين إن هذا الوحش بل هذا الأفعى الذي تقيدت معه إنما هو الكردينال فعلمت أنك تريدني به كردينال فينيسيا وهو يعبو ... أعلستي مخطيء ...

— كلا إنك غير مخطيء ، ولكنني بت أخافك الآن !

— ولماذا تخافينني ؟ لأنني أعرض عليك مساعدتك في إنقاذ بنتك ؟ إذا كان ذلك يا سيدتي فلم يبق عليّ إلا أن أنصرف .

— كلا ، كلا ، بل ابق . وإذا رأيت ما يخامرني من الرعب فلا تهتم له . وبعد ، فإني لا أبالي بما قد يصيبني من الكوارث بشرط أن تأمن بنتي الأخطار ! نعم يا سيدي ، إن الذي أخافه هو الكردينال يعبو أسقف فينيسيا ، فإنه هو الذي رأى بيانكا ، وهو الذي هام بها وجعل يتردد كل ليلة حول القصر ، وهو الذي عقدت معه ذلك الوقاق الذي أشرت إليه !

فأيقن رولاند أن هذه المخطفة قد باتت طوع يده فقال لها : ما هذا الرفاق الذي تذكرينه ؟ أذكري يا سيدتي أنك قد جريت شوطاً بعيداً في القول بحيث لم تمودي قسادة على كتابان ما بقي من تلك الحقيقة الهائلة ، فأحذري أن تكنمها فاني قد أعرفها وقد تندمين لكتنمها .

— إنني سأمثل لك . ولكن من أنت وماذا تريد ؟ إنني لا أعلم ... ولكن الذي أعلمه أنك مزود بمعلومات عجيبة .

— إذن تكلمي فاني مصغ إليك !

قالت : إنني كنت أحب رجلاً في سنة ١٥٠٩ وهو الرجل الوحيد الذي أحببته . وحين أسأل نفسي إلى الآن أشعر بأنني لا

أزال أحبه ! على أنني أحبه وأكرهه في حين واحد ، وذلك أني عرضت نفسي عليه فاحتقرني وصدتني لأنه كان يجب فتاة عاملتي لأجلها بهذا الاحتقار .

— ماذا كان يدعى هذا الرجل ؟

— رولاند كانديانو !

— والفتاة التي يحبها ؟

— ليونور دندولو !

فغرس رولاند أظافره في باطن كفه حتى كاد يدميه ثم قال :
أمتي حديثك ! قالت : وقد عولت على الانتقام منه ، وكان لي عشيق يدعى دافيليا فرآني هذا الرجل خلصة وأنا مع رولاند ، فلما انصرف رولاند قتلت ذلك العشيق . وفيما أنا واقفة أنظر لهذا القاتل وقد تمكن مني الرعب رأيت رجلاً قد دنا مني وكان قد رأى كل ما حدث ... وكان هذا الرجل بعبو ... فأخذ بيدي وسار بي إلى غرفة أخرى فلكيت فيها ألتباري الذي كان في ذلك العهد من أعضاء مجلس العشرة وهو اليوم قائد الجيش العام .

وتوقفت عن الكلام هنيهة وهي تعجب في نفسها كيف أنها تبوح بمثل هذه الأسرار الهائلة لرجل تكاد لا تعرفه ... ولكنها كانت تنتظر إليه نظرات فتضطرب وتشعر بنفوذ نظراته إلى قلبها وتحس بقوة عظيمة خفية تدفعها إلى الكلام ولذلك لم تجد بداً من العودة إلى الحديث فقالت :

— إن ألتباري وبعبو أجلساني بينها فبدأ بعبو الحديث

فقال : إنك يا سيدتي قد قتلت أحد أعضاء مجلس العشرة ، فسوف يشقونك ويقطعون هذا الرأس الجميل .

فارتعشت عند ذلك وافتكرت بانقي بيانكا التي أرببها بعيدة عني في إحدى القرى فسال العرق البارد من جبينني حين تمثل لي قطع رأسي وجزعت جزعاً شديداً من الموت فقال لي بعبو :

— على أنه يوجد طريقة واحدة لإنقاذك .

فبرقت عيناي ببارق من الفرح وقلت : ما هي ؟ قال : هي أنت تهمني سواك يقتل دافيليا ، وإذا اقتضى الأمر إلى إثبات التهمة بالشهادة وكلنا شاهدين على صدق ما تقولين . قلت : من هذا الذي أتمه ؟ قال : رولاند كانديانو ! قلت : معاذ الله أن أفعل ! — إذن أنت تتزوجين المشنقة ورولاند يتزوج ليونور !

فشعرت لهذا القول أن الرعب قد زال من قلبي وحل محله الحقد فلمتسني عقارب الغيرة حين تصورت أن ليونور ستكون سعيدة بقربه فصحت به قائلة : إني أرضى !

فأملى عليّ عند ذلك ألتباري الوشاية فكتبتها وأخذها بعبو فألغاها في صندوق الوشايات ... وهو أمر هائل أليس كذلك ؟ فقال رولاند : نعم إنه أمر هائل ! أما أنت فقد دفعتك الغيرة إلى ارتكاب هذه الجناية . وأما بعبو فما الذي دفعه إلى ذلك ؟

— لا أعلم ، فربما كان حاسداً لرولاند !

— وألتباري ؟

— إنه كان يحب ليونور !

- وماذا صنعوا بولاند ؟

- ألقوه في الآبار ؟

- وهو لا يزال فيها دون شك ؟

- كلا ، فقد مات !

- كيف عرفت خبر موته ؟

- إنه حاول الفرار مع سجين آخر فألقيا بنفسيهما إلى للترعة وغرقا فيها . وكان الموت خيراً له مما كان يقاسيه من العذاب .

- ذلك لا ريب فيه . ولكن كيف استطعت أن تعيشي في

خلال إقامة هذا المنكود في سجنه الرهيب !

- لقد تعذبتُ أكثر مما تعذب . فإني كنت تارة أحاول أن

أخبر القضاة بالحقيقة ولكنني كنت أخاف الجلاد ، وتارة كان

يخطر لي أن أحاول إنقاذه ولكنني أجد ذلك محالاً ، فكنت

ألقى عذاباً لم يلق مثله الشهداء ولا ساء في ليالي الشتاء فإني

كنت أحسب عصف الرياح فيها أنين رولاند في سجنه . ولكنه

مات لحسن الحظ !

- نعم لحسن حظه ، وبعد ذلك ؟

- أنت تعلم الآن أنني مقيدة بهذه الجريمة مع الكردينا

بمبو ، وأنه منذ ستة أعوام يأمرني فأطيع ، وفي كل مرة

أحاول الإفلات من قيده يندرنني بقول الحقيقة فأخاف الموت

ولذلك بتّ أخاف الآن أن يأتيني ليلة فيقول لي : اختاري بين

أن تمتعيني ببنتك أو أمتع بعنقك سيف الجلاد !

وعند ذلك جعلتُ تشقق بالبيكاه بينما كان رولاند مطرفاً

برأسه يحدث نفسه فيقول : لقد عرفتُ السبب الذي دفع أمباريا
وبمبو والتياري إلى الكيد بي . أما دندولو وفوسكاري فبماذا

أسأت إليهما ؟ صبراً ، فستنجلي الحقيقة !

ثم التفت إلى أمباريا وقال لها : لا تبكي ولا تجزعي فسأنتقد

بنتك . قالت : لا شك أنك ملك أيتيتني بالصفح عن جرمي .

- إني لم أقل لك غير أنني سأنتقد بنتك .

- وأنا واثقة بك كل الثقة .

وعند ذلك نهض رولاند يحاول الانصراف فركعت أمباريا

وقبّلت يده فجذب رولاند يده من يدها وأسرع بالخروج من

ذلك القصر تاركاً أمباريا عرضة لهياج شديد كاد يقتلها .

حب أبوي

*

عندما خرج رولاند وبلغ الشاطئ ، نظر إلى ما حواليه فرأى

رجلاً مختبئاً وراء شجرة فذهب إليه وقال له :

- أهذا أنت يا سكالابرينو ؟

قال : نعم يا سيدي وإني واقف في موقف المراقبة . وقد

كان خلسع ملابس الحدم ولبس ملابس تجار فينيسيا فقال له

رولاند : وأين رفاقنا !

- لقد جاء أكثرهم وهم ينتظرون أوامرك .

- إذن فاصبر الى أن يتكامل عددم هناك فأخبرني .

ثم فلك رباط قارب ونزل إليه فقال له سكالا برينو : هل يجب أن أصحبك يا مولاي؟ قال : إذا أحببت أن تتنزه فتعال .

فوثب سكالا برينو الى القارب واستلم المجدافين فقال : الى أين

بأمر الرئيس أن يسير ؟

- إلى « ليدو » في عرض البحر حيث نأمن الرقباء .

وعند ذلك جلس في القارب واسترسل الى التفكير ، وكان

السكون سائداً في فينيسيا لا يقلقه غير صوت المجداف فلما وصل

القارب الى ميناء ليدو أشار رولاند الى سكالا برينو أن ينقطع

عن التجديف ثم قال له فجأة : لقد قلت لي إنك لم تعد ترى تلك

المرأة ...

فذهل سكالا برينو وقال : أية امرأة تعني يا مولاي ؟

- تلك المرأة التي حدثتني بما اتفق لك معها في مغاور بيافا حين فضلتك على ساندريجو .

- كلا ، فإنني لم أرها بعد ذلك العهد !

- أتعمنت في وجه تلك الفتاة التي رأيتها في قصر أمباريا ؟

- نعم ، وهي لا تزال ممثلة في ذهني .

- أتعرف اسمها ؟

- كلا !

- إذن فاعلم أنها تدعى بيانكا .

- سأحفظ هذا الاسم ولا أنساه .

- وإنك تكون مصيباً بحفظه كما أنت مصيب بطبع رسمها على صفحات ذهنك .

- دون شك ما زال قد صدر إلي أمرك بذلك .

- إنني لم أصدر إليك أمراً بهذا الشأن فهو خاص بك .

فنظر سكالا برينو نظرة الاندهال دون أن يجسر على سؤاله ، فقال له رولاند : لقد قاتني أن أخبرك أن لهذه الفتاة أمماً

تدعى أمباريا .

- تلك المحظية ؟

- نعم تلك المحظية التي أغرتك مرة على القبض عليّ في تلك

الليلة التي كانت بدء شغافتي . ولكن لئدع هذا الآن فقد قلت

لك إن لبيانكا أمماً وهي أمباريا ، فهل تعرف ماذا يدعى أبوها؟

- كلا يا حضرة الرئيس .

- إذن فاعلم أن والد بيانكا يدعى سكالا برينو !

فارتعش سكالا برينو ارتعاشاً عنيفاً حتى أوثك المجداف

أن يسقط من يده فقال له رولاند : ما هذا الاضطراب وماذا

أصابك ؟ فقال : سألك المعذرة يا مولاي فقد أسأت فهم ما

قلته لي ، أليس كذلك ؟ قال : كلا يا سكالا برينو فان

بيانكا بنتك .

- أنا لي بنت ؟

- نعم وهي من أمباريا !

- رباه ! ماذا أصنع ؟ أهذه الفتاة التي يأخذ جمالها

بمجامع القلوب ..

- إنها بنتك .

- أنتكون هذه الملاك ابنتي ؟ أسألك المغذرة يا مولاي فإن

ذلك فوق مقدرتي .

ثم وضع رأسه بين يديه وجعلت الدموع تذرف من عينيه فأخذ رولاند الجذاف ودفع القارب الى الشاطئ . وهناك وثب سكالابرينو منه الى البر وهرب في ذلك الليل الساكن لحاجته الى الاختلاء كمن يصاب بحزن عظيم أو بسرور كبير ، فكان رولاند يشيعه بالنظر وهو يقول : إبلك أها الرجل الحنون ونأجر الليل بأفراح قلبك فان سرور ساعة أنساك عذاب أعوام .

وعند ذلك سار وهو مطرق الرأس حتى انتهى الى قصر عظيم فوقف تحت نوافذه المظلمة ثم نظر الى تلك النوافذ وأن أنين الموجع ! فإن هذا القصر كان قصر ألتباري . وكان ينظر إلى تلك النوافذ وعيناه تتقدان ، وبعد أن وقف هنيهة طاف حول القصر ثم مشى ببطء الى الرصيف فجلس في موضع يشرف على القصر وجعل يحدث نفسه فيقول :

تري ماذا أتيت أعمل هنا ؟ في هذا القصر ينسام من أبغضه أكثر مما أحب من أحبها . وفي هذا القصر تنام من أحبها أكثر مما أبغض من أبغضه ! هناك ألتباري وهناك ليونور ! هناك اجتمع لدي الحب والكراهة واليأس والرجاء ! اني أنظر الى هذه النوافذ كي أمتع الطرف في المكان الذي تبئت فيه ليونور ثم أنزل الى أعماق نفسي فلا أجد فيها غير المحقد الدفين .

- وعند ذلك أطرق هنيهة ثم غادر مكانه وسار مسرعاً الى

الشاطئ . ففك قيود قاربه وسار به الى رصيف آخر قرب سراي الدوج ، وهناك نزل إلى البر وجعل يسير بين الأشجار وهو مطرق الرأس تنور في صدره البراكين ويتمثل خطيبته ليونور تجالس ألتباري وتنادمه وتناغيه فيطير فؤاده شعاعاً ويسير مسرعاً كأنه يريد الفرار من هذه الذكرى .

وفيا هو على ذلك سمع صوت اثنين يتحدثان فوقف منصتاً إذ تبين وخيل له أنه عرف صاحبي الصوتين . ولكن الصوت كان يصل إليه بما يشبه الهمس فلم يفهم الحديث ، ولذلك تقدم مستتراً بالأشجار الى حيث كان الرجلان فوجدهما جالسين على حجر قرب جسر التتهيدات وعرف أنها فوسكارى وبمو .

فاختبأ وراء شجرة وأصغى الى الحديث فسمع فوسكارى يقول : لماذا لم تنفذ فيه العقاب الذي أنفذهه بأبيه ؟ بل لماذا لم تأمر الجلاد بقتله يومئذ ؟ إننا أخطأنا يا بعبو خطأ لا يغتفر !

فلم رولاند أنها يتحدثان عنه . فوضع يده على قبضة خنجره وهم أن ينقض عليها فيقتلها شر قتيل ، ولكنه ارتد لفوره وقال في نفسه : كلا ، فإن هذا القتل سهل وهو دون ما يستحقان إذ يموتان في الحال .

أما بعبو فإنه أجاب فوسكارى قائلاً : لا فائدة من القلق يا سيدي فإن رولاند كانديانو قد مات . فحذق فوسكارى في بعبو وقال :

- ولكنهم لم يحدوا الجثة ، فإني أقتلت فم الترة وصبرت

خمسة عشر يوماً فلم يمدوا الجنة ، فإذا كان قد مات غريقاً فأين ذهبت جسثه ؟ قال الكردينال بمبو : إنك تعلم أن تيار القرعة يقذف الجثث إلى ميناء ليدو وهناك تدفنها الأسماك في بطونها . فاطمئن ، فإن الأموات لا يخرجون من القبور .

فهب فوسكارى رأسه وقال : ثق يا بمبو أن رجلاً مثله لا يموت غرقاً . وقد زرت السجن الذي كان فيه ورأيت ذلك المنفذ الذي فتحه فرأيت عملاً هائلاً لا يقدم عليه الرجال العاديين ، وكذلك فراره فإنه أعجب من عمله . كلا إنه لم يمت ، فإن لديه كثيراً من الأعمال بعد حريرته تعيقه عن الموت .

قال الكردينال بمبو : لا أفهم يا مولاي ما تقول . فقبض فوسكارى على يده بمبو وقال : بل إنك فهمت كما فهمت أنا ، والويل لك ولي !

ثم أراد أن يغير مجرى الحديث فقال : ما جرى للشاعر صديق جان مدسيس الذي عزمت على إحضاره ؟
- إنه يدعى بيار آريتان وقد حضر وأدهش سكان المدينة بجراته وبذخه .

- لقد سمعت شيئاً من ذلك . أتحسب أنه يقضي مهمتنا لدى جان مدسيس بما تقتضيه من الدقة والذكاء ؟

- إنه مشهور بذكائه ، وأما إخلاصه فإننا نستطيع شراءه بالثمن ، وإننا نبلغ منه بالمال ما نشاء .

- إذن انتني به في أقرب وقت .
وعند ذلك افترقا فدخل فوسكارى الى قصره وسار بمبو

على شاطئه القرعة فبعه رولاند وقد سمع كل الحديث دون أن يكون له قصد معين ، فإن المشروعات كانت تزدهم في رأسه ازدهام الغيوم المتلبدة في سماء ممطرة .

أما بمبو فإنه لم يذهب إلى منزله بالرغم عن دنو ساعة الفجر بل ظل يسير وهو يقف من حين إلى حين ويتمم بأقوال لا تصل إلى سمع رولاند حتى وقف أخيراً أمام قصر أمباريا . فعلم رولاند أن هذا الوحش جاء ليوقف تحت نوافذ بيانكا كما وقف هو تحت نوافذ ليونور ومشى إليه فلم يسمع بمبو صوت خطواته إلا حين اقترب منه فاشمأز ودنا من الجدار كي يقسح له مجالاً للورور .

غير أن رولاند وقف وقال بلهجة المازي . التهكم : أرى أيي لست العاشق الوحيد الذي يأتي ليتنهد تحت نوافذ هذه الحسنة . ثم التفت إلى بمبو وقال : أملك يا سيدي من عشاق أمباريا ! وإذا كان ذلك فكيف اتفق وجودك هنا في هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟ لقد كنت أحسب أن الشعراء مثل رئيسي أو المتمرزين مثلي يقفون في هذا الموقف الخيالي ويناجون القمر بغرامهم .

فقال بمبو في نفسه : إنه مكربير الشاعر آريتان ، ثم قال له : مرّ بطريقك يا سيدي . فأجاب رولاند قائلاً : كيف أذهب من هنا وإنما أتيت لأنك في هذا السكون قصيدة تفتتها في وصف بيانكا الفاتنة .

فأصفر وجه الكردينال بمبو حين سمع اسم بيانكا ودنا من

رولاند وهو يحاول أن يقبض على يده ، فدفعه رولاند بعنف وقال له بصوت الناquam : إحذر أن تلمسني .

فترجع بمبو منذعراً وهو يقول في نفسه : رباه ! ما هذا الصوت ؟

أما رولاند فإنه ضبط نفسه في الحال وقال له : ماذا تبغي من الإساءة إلى شاعر فقير مثلي ؟ قال : إنك لفظت اسماً ...

— نعم وهو اسم بيانكا .

— ولكن كيف اتفق أنك تتكلم عنها من غير كلفة ؟

— وأنت ، كيف اتفق أنك تسألني بمثل هذه القمحة ؟

— أتعرف أيها الرجل من أنا ؟

— نعم أعرفك حق العرفان فإنك الكردينال بمبو أسقف فيليسيا . والذي أراه أنه خير لك أن تحادثني فقد أقول لك أقوالاً تفيدك .

— في أي شأن ؟

— بشأن بيانكا . أليس هذا الشأن الذي تهتم له أكثر من

كل الشؤون ؟

فوضع بمبو يده على قبضة خنجره ونظر إلى رولاند نظرة الذئب يتحفز للانقضاض على الفريسة ، فقال له رولاند : لا تجهد نفسك في ارتكاب جريمة قتل لا تفيدك ، وفوق ذلك فإني لا أدعك تقتلني دون دفاع بل إني قد أخنقك قبل أن يصل خنجرك إلى صدري .

— أنك مجنون دون شك ، فإنك تكلم كردينال فيليسيا

وأسقفها كما تكلم حثالاً من حثالي الميناء .

— إنك تبالغ يا حضرة الكردينال بالتفاخر والمباهاة ،

ولكن ليس هذا المراد . فدعني أتمم فكري فأقول لك : كفاك

قتلاً لا يفيدك . وقد هبطت منزلتك في نفسي حين رأيتك تضع

يدك على خنجرك إذ لا أعلم كيف يحظر لك في الحال قتل رجل

مثلي . ثم إني أرى على نور القمر وجهك الدميم فأتبين منه أنك

تكرهني كرهاً هائلاً في حين أنني لم أسيء إليك أقل إساءة .

— إذن ماذا تريد مني فإني أسمعك منذ حين وأحسب أنني

أسمع مجنوناً .

— لا تكذب أيها الكردينال ، فإنك تعلم أن الكذب محرّمه

الكنيسة . ولو كنت تعتقد حقيقة أنني من المجانين لتركنتني

وانصرفت ، ولكنك لبثت وأنت تذوب شوقاً إلى سؤالي .

— نعم ، أيها الشيطان الرجيم ، فلا أعلم من أعطاك سلطان

القراءة في النفوس ولكنك تقرأ في نفسي كما يقرأ الناس في كتاب

مفتوح .

— وأي عجب في ذلك إذا كانت عينك تترجمان عن دخائل

قلبك ؟ ولكن مسألنا ولهذا المباحث العقيمة ، فلسني بحرية

وجلاء وقل ما الذي تريد أن تعرفه .

فاضطرب بمبو من الغيظ والحقد وقرر في باله قتل هذا الرجل

قراراً لا يُنقض . ولم يهجم عليه في تلك الساعة لسببين ، الأول

أنه لم يكن واثقاً من مقدرته عليه ، والثاني أنه أراد أن يعلم

نيات هذا الرجل ولماذا اقتضى أثره وتعرض له ، فملك نفسه

جهد ما يستطيع وقال له : إني أريد أن أعرف قبل كل شيء
من أنت ، فإنك تدعي أنك شاعر وأنت كسكرتير آريتان .
ونعم إني رأيتك عنده ولكنني واثق بأنك تتستر بهذا المنصب ،
فأنت غير ما تدعيه وأنا أريد أن أعرف من أنت .
أجابه رولاند : لقد دعوتني منذ هنيهة شيطاناً ، فافترض
أني شيطان !

- شيطان ؟

- ولماذا لا أكونه ؟ إنك بصفتك كرهينالاً وأسقفاً ، يجب
أن تعتقد بوجود الشياطين ، ولكنك قد تكون مخطئاً .

فنظر بيبو إلى ما حواليه نظرة رعب وهلع .

ولا بد لنا هنا من الإشارة إلى أن ذلك العصر كان عصر
خرافات ، وأن الأوهام كانت تتسلط على أعظم الرجال ذكاءً
ولا سيما الأمراء ورجال الدين ، فإنهم كانوا أكثر تعلقاً من العامة
بالخرافات وحكايات الجن والأبالسة . ولذلك ذعر بيبو ذعراً لا
يوصف وتراجع إلى الورا وهو يقول :

- إذا كنت من رسل جهنم فإني آمرك بالله أن تعترف لي
بذلك .

فابتسم رولاند ابتسام الاحتقار وعلم أن بيبو أضعف مما كان
يتوسم فيه فقال له : إذا كنت تخاف من الشياطين فافترض أنني
من الملائكة . وفوق ذلك فإني أدع لك الخيار بين أن تحسبني
ملاكاً أو شيطاناً أو إنساناً ، على أن كل ذلك لا فائدة فيه
فلنبحث في المهم .

- حسناً ، فقل لي كيف عرفت ما عرفته عني ؟

- ذلك بسيط سهل ، وهو أنني قفوت أثرك فعلمت ما أريد
أن أعلمه عنك .

- ولماذا حدثتني عن بيانكا وعمما افنكرته بشأنها فإن
ذلك سر من أسراري لم يقف عليه أحد ؟

- لقد وصلنا الآن إلى المسألة الحقيقية ، فإنك تعتقد يا

حضرة الكرهينال أن غرامك ببيانكا سر من أسرارك فكان
مشكلتك بذلك مثل سائر العشاق الذين يتوهمون أن سر غرامهم

لا يعلمه غير النجوم التي يرقبونها ، وهو باء في عيونهم وفي كل ما
يقولون ويفعلون فلا يخفى على الذين يجشوا في الغرام ، وإني

أعرف فتى مثلك كان يرود حول منزل من يجب وكان مثلك
يسترسل إلى نجواه فلا ينتبه إلى من يراقبه في حبه ولكن المنكود

لم يكن سعيداً في حبه .

- ماذا حدث له ؟

- إنه قتل لنكد طالعه . وأما أنت فإنك موفق في

غرامك فإن الذي يقفو أثرك لا يريد قتلك ولو أراد لفعل من
زمان ولكنه يريد أن يساعدك . فالفرق بعيد كما ترى بينك وبين

ذلك المنكود .

- أنت تريد مساعدتي ؟ ولماذا ؟

- وآية فائدة لك من معرفة حقيقة أفكاري ؟ ألا يمكن أن

يكون لي صالح بأن أرى ابنة أمباريا خليلتك ؟

فارتعش بيبو سروراً وقال في نفسه : إذا كان هذا الرجل

يريد الانتقام من أمباريا فقد اتضح الأمر وذلك معقول ، فقد يكون اتفق له مع أمباريا ما دعاه إلى الانتقام منها . ثم التفت إلى رولاند وقال : لننظر الآن كيف تستطيع مساعدتي ، وما تسألني مقابل هذه المساعدة .

- سأجيبك عن المسألتين ، ولكنني أختصر فأجيبك عن المسألة الثانية : إنني لا أريد منك شيئاً .

- ذلك كثير .

- إطمئن ، فقد أكون نلت جزائي من موضع آخر . ولنبحث الآن في طريقة مساعدتك .

- إنني مصغٍ إليك .

- إذن فاعلم أنني أستطيع اختطاف بيانكا وتسليمها إليك . فكاد الكردينال يطير سروراً وقد تمثل له في تلك اللحظة أنه قد ضم تلك الفتاة إلى صدره وسار بها وهي تحفق خفوق أجنحة الطائر دون أن تستطيع الدفاع عن نفسها ، فقال رولاند : ما بالك لا تعجب ؟ أم يعجبك هذا الاقتراح ؟ قال : بل إنني أمنحك كل ما تطلبه إذا فعلت ذلك .

- أم أقل لك إنني كوفئت من موضع آخر ؟ فقل ، أترضى بهذا المشروع ؟

- نعم !

- إذن تعال في الساعة التاسعة من مساء غدٍ إلى نفس هذا الموقف الذي أنت فيه الآن أمام قصر أمباريا .

- وإذا رأيتني ؟

- لا بأس من ذلك فإني أؤثر أن يروك كي أقنع بعض رجالي . وعلى ذلك فإن بيانكا تكون لك في الساعة الحادية عشرة .

- كيف تصنع ؟

- ذلك منوطي ، فأحرص على أن تكون غداً في الموعد الذي عينته لك .

- ولكن ما الذي يضمن أنك لا تنصب لي شركاً ؟

- وأية فائدة لي من نصب الشرك ؟ فإني لو كنت أريد قتلك لقتلتك منذ ساعة فقد تيسر لي مائة مرة أن أهاجمك على غرة .

- ذلك أكيد .

- إذن ستحضر في الموعد المعين .

- أحضر .

وعند ذلك افترق الاثنان فصار ييمو مسرعاً ووقف رولاند يشيعه بالنظر وقد تبين الحقد في عينيه حتى إذا توارى عن أنظاره سار إلى جهة الميناء إلى أن وصل إلى منزل عليه ظواهر الفقر ، ففرغ يابه ففتح له رجل وكان هذا الرجل سكالابرينو . وكانت علائم الهم والكآبة بادية على وجه سكالابرينو فتنهدحين رأى رولاند وقال له : أسألك العفو أيها الرئيس ، فقد تركتك دون استئذان لأنني كنت شبه المجانين لهذا النبا الذي أخبرتني به فولدت في نفسي أفكاراً كثيرة . ولكن كل ذلك قد انتهى الآن . فأجابه رولاند برفق وحنان :

- قل يا سكالابرينو ما هذه الأفكار ولا تكتم عني أمراً
فإن ذلك يريحني من عناء محادثة جرت لي منذ قليل .

فهب سكالابرينو رأسه وعاد إلى التهدد دون أن يجيب فقال
له رولاند : ألملكت تؤثر أن تكتم عني أفرحك وأحزانك ؟
- كلا ، كلا يا مولاي ، ولكن هذا الحاطر الذي خطر لي
علت أنه حلم باطل لا يمكن تحقيقه .

- ماذا حملت ؟ أحملت أنك أخذت بيانكا وخرجت بها
من فينيسيا فابتعدت بها عن تلك الوحوش الضارية التي ترود
حول منزلها كي تنشب برائتها فيها ؟ أم حملت أنك تريد إبعادها
عن تلك الأم الفاسدة التي قد يفتني بها الضعف والخوف أو
الطمع إلى بيع ابنتها ببيع السلع ؟ قل ، أليس هذا الذي خطر
لك ؟

فضم سكالابرينو يديه الكبيرتين وأشار برأسه إشارة
إيجاب . فقال رولاند : وقد حملت أيضاً أنك ابتعدت ببيانكا
وجعلت تعاملها بجنون ورفق إلى أن أحبتك وقالت إنك كريم
الأخلاق رقيق القلب فلماذا لم تكن أبي ؟ فضممتها إلى صدرك
وقلت لها ودموع الفرح تنهل من عينيك : نعم إنني أبوك الحقيقي
وإنك ابنتي العزيزة !

- هذا أكيد يا مولاي ، فقد خطرت لي هذه الأفكار .
- ثم قلت في نفسك إن ذلك مستحيل ، وإن تلك المحظية
تراقب بنتها أشد المراقبة ، وإنك ترضي عليك أن تعيش بعيداً
عنها .

- اليست هي الحقيقة أيا الرئيس ؟

- كلا ، فإننا سنختطف بيانكا في الساعة الحادية عشرة من
مساء غد .

فوثب سكالابرينو من موضعه وقال : مولاي ، إنه عمل
عظيم ! فقال رولاند : لقد عملنا أعظم منه يا سكالابرينو فثق
بأننا سنختطف بنتت غداً .

- إنك تقفح لي أبواب السماء يا مولاي !

- هل جاء رفاقنا كلهم إلى فينيسيا ؟

- لقد جاء معظمهم ومن تأخر منهم يحضر غداً دون شك .

- إذنت إتفق معهم على الاجتماع عند قصر أمباريا ، وفي
الساعة العاشرة أذهب إليهم فألقي عليهم التعليمات اللازمة .

أأكون أنا معهم يا مولاي ؟

- كلا !

- كيف ذلك ؟ ألا أحضر اختطاف بنتي فأحملها ؟

- كلا ، بل يجب أن تنتظر في قارب سريع إلى أن آتي بها

إليك فتسير بها إلى السفينة التي تنتظرنها في الميناء . وعندما تصل
بها إلى ظهر السفينة دعها هناك وتعال إلي ، وأنت تتق بي كما
أظن فتعلم أي ساع إلى سعادة بنتك .

- إنني أثق بك يا مولاي كما يثق المؤمنون بالله .

أما يبدو فإنه ذهب إلى منزله القريب من سانت مارك وكانت
الساعة قد اقتربت من الرابعة بعد انتصاف الليل وانبتق الفجر ،
ففتح نافذة غرفته وجعل يسير ذهاباً وإياباً في تلك الغرفة .

وكانت بيانكا تعتقد أنه لم يرها غير مرة أو مرتين ، ولكن الحقيقة أنه رآها منذ جاءت بها أمها إلى فينيسيا وبدأ غرامه بها منذ ذلك اليوم .

ولقد يعجب القراء كيف تسري عاطفة الحب إلى قلب مثل هذا الوحش الضاري ، ولكن بمبو قد ترك رسائل تثبت هذا الحب ، فإنه لم يحب أحد ولم يحب أحداً قبل أن يعرف بيانكا فعرف عند ذلك جور الحب وسلطان الغرام . وقد كان يحسب في البدء أن الظفر بها سهل ميسور ، وأنه سينالها من أمباريا بأجنس الأمان . ولكن ما لقيه من مقاومة أمباريا العنيفة أثار هياجه . ثم قال في نفسه إنه يجدر به الرجوع عن حب هذه الفتاة . ولكنه لم يكذب بماهد نفسه على سلوانها حتى باتت تتمتع له في كل تخيل وشعر أن هذا الغرام سيورده موارد الحنث إذا لم يخرج منه ظافراً غانماً .

وقد عرف في هذا الحب جميع أنواع الشقاء ، من الأرق إلى اليأس إلى البكاء . فلما لقيه رولاند في تلك الليلة تحت نوافذ بيانكا كان قد أتى بضع خطة جريئة يرجو أن يظفر بهمد تنفيذها ببيانكا وهي خطة تشبه الخطة التي اقترحها عليه رولاند غير أنها كانت لا تزال مبهمة في أفكاره حتى جلاها رولاند .

وقد أخذ يسير في غرفته وهو لا يفكر إلا بذلك الرجل وبأقواله التي كانت لا تزال ترن في أذنه فجعل يقول : لا بد لي من قتل هذا الرجل فإنه واقف دون شك على أعماله وعارف

بنياتي . فمن هو هذا الرجل ومن أين أتى وماذا يريد ولماذا ينبغي أن يسلمني بيانكا ؟ نعم يجب أن أعرف غايته من ذلك . إن هذا الرجل لا يزال في مستقبل الشباب ، ألا يمكن أن يكون عاشقاً مثلي ؟

نعم إن الغرام قد يكون دفعه إلى ذلك ... ولكن ترى من يجب ؟ أعلت يجب بيانكا وأنها صدته فحاول أن ينتقم منها ! كلا ، إن ذلك غير معقول . وكيف يسلم من يجبهها إلى مزاحه فيها ؟ أم لعل يجب أمباريا ! إن ذلك بعيد أيضاً فإن أمباريا من المحظيات وقد رأيت في وجه هذا الرجل وتبينت من لهجته أنه لا يتداني إلى صغار الأمور فلا شك أنه يضمر وراء هذه الظواهر أموراً خفية . وما هذا الذي يضمره ؟ ثم إنه عرف غرامي ببيانكا وأدرك مقاصدي ، فهو إذن يراقبني ويحتم بي منذ عهد بعيد فما هو قصده يا ترى ؟

إني قتلت كثيراً من الناس ، فإن من يسير في طريق السلطة والأثرة ويكون له مطامعي فلا بد له أن يكون فائقاً ظالماً منزهاً عن تلك العاطفة التي يدعونها الرحمة . ومن اجتمعت لديه هذه الصفات كان قوياً . إذن أنا من الأقوياء ما زلت قد انتزعت من قلبي كل عدالة ورفق وإشفاق !

نعم ، ولكن من بفتك بالناس هذا الفتك يجب عليه أن يسحقهم سحقاً ، فهل أبقيت سهواً على عدو يحاول الآن ... وعند ذلك ضم يديه إلى صدره ووقف هنيهة يتأمل ثم عاد إلى مناجاة نفسه فقال : نعم ، لا بد لي من قتل هذا الرجل ا

- ما هي هذه القصة ؟
 - إنها قصة صحيحة إذ لا يوجد من ينقضها . وهي أن أم
 الملك أحببت في شبها رجلاً يستحق الحب ...
 - أنتظن أن الملك يخاف من طبع هذه القصة ؟ وأية ملكة
 من أسرته لم تمسح ؟
 - هو ذلك . ولكن هذا الرجل الذي أحبته كان من خدام
 الإسطبل ، فيكون جلالته الملك ابن سائس ...
 - إذا كان ذلك فهو يخاف دون شك . ولكن ما الذي
 يدعوك إلى ولوج مثل هذه الأبواب ؟ أعلتلك في حاجة شديدة
 إلى المال ؟
 - وأية حاجة ! فإني ليس لي حتى ثمن الخمر .
 - مسكين !
 - ولا بد لي في هذا العام أن أكسب اثني عشر ألف ريال ،
 فقد وضعت الضرائب وفرضت على الامبراطور شارل ثلاثة
 آلاف ريال ، وعلى الملك فرنسوا ألف ريال ، وعلى الدوق دي
 فرارا خمسمائة ...
 - وأتأ كم ينالني من هذه الضرائب ؟
 - أنت ؟
 - نعم أنا ، أو الذين أستطيع أن أدعهم يتحملون ضرائبك .
 فدأ الشاعر من بعبو وقال ؟ هل تستطيع أنت أن تتقدني
 شيئاً ؟
 - إني أستطيع أن أعطيك أربعة آلاف ريال .

فلأستخدمه في البدء ثم أقتله . والآن فلأبحث عن وسيلة ، فإنه
 في هذه الليلة سيدلني بيانكا فيجب أن أمتن منه أعظم امتنان ،
 ولكي أظهر له امتناني أدعوه إلى العشاء عندي ، وهو سيحضر
 دون شك . ولكن أترأه يقبل أن يأكل من طعامي ؟ نعم ، إنه
 يقبل بشرط أن أحمده على الثقة بي وذلك سهل علي ، ومتى رضي
 أن يأكل من طعامي قضي الأمر ووفيته حقه من الجميل .
 وقد ظهرت عليه عند ذلك علائم الرضى لوثوقه من أنه
 سيقتله بالسلم وأنه سينال بيانكا . فجعل يفكر بترتيب حياته
 السعيدة القادمة إلى أن نادى رئيس قصره فقال له : أريد أن
 تخصص مكاناً أيقف في القصر لإقامة امرأة فيه بضعة أيام ، وبعد
 ذلك تبحت لي عن منزل موافق يكون معتزلاً تسهل مراقبته
 فتقم فيه .

قال رئيس القصر : سأفعل يا مولاي . ثم انصرف . وبعد
 ذلك بساعة لبس الكردينال بعبو ملابس النهار ، أي ملابس
 الأسقفية ، وذهب إلى آرستان الشاعر فوجده جالساً يكتب .
 فأحسن الشاعر استقباله وقال له : أترى كيف أبكر إلى العمل
 بكور الطيور ؟ قال : ماذا تصنع ؟
 - إني أنظم قصة لملك فرنسا .
 - كم ترجو أن تنال منه ؟
 - ألف ريال على الأقل لأنني توعدته سلفاً . فضحك بعبو
 وقال : بماذا أذكرك الملك ؟
 - بطبع القصة التي أنظمتها له .

- متى ؟

- إني أعطيك نصفها اليوم إذا شئت .

- إذا كنت أريد ؟ قسماً بشعر مرغبتنا ...

- إذن تعالّ معي .

- إلى أين ؟

- تعالّ فسوف ترى . وأسرع بلبس ملابسك فتسير معي

في مركبتي .

فأسرع الشاعر إلى لبس ملابسه وبعد هنيئة عسّاد إلى بمبو

فقال له : هلمّ بنا . قال : إلى أين تذهب بي ؟ قال بمبو :

إلى الدوج .

- الدوج ؟

- نعم ، فهل ترعبك مقابلته ؟

- كلا ، فإن أمثالنا لا يخافون أحداً .

*

وبعد هنيئة كان الكردينال يمتاز قاعة في سراي الدوج
غصّت بالقواد والأسياد ، فإن فوسكاري كان قد جعل بلاطه
شبه بلاط الملوك . وقد قمل ذلك تباغاً بحيث لم ينتبه له مجلس
العشرة إلا بعد أن قات أوان الاعتراض وباتت السلطة المطلقة
بيده . فإنه قد استأثر بقوة الكنيسة والجيش ، فكان يستولي
بقوة الكنيسة على عقول الأحداث والنساء ، ويستولي على الرجال
بالنساء والأحداث ، بحيث لم يبق رئيس عائلة لم ينته أمره

بالخضوع لامراته وبنيه . وكان بقوة الجيش يستولي على الثاثيرين
ومنّ يمنح إلى الثورة .

وكان رئيس الجيش ألتباري ورئيس الكنيسة بمبو . فكان
الأول سائداً على الضباط والجنود والثاني على الكهنة بحيث كان
فوسكاري يقمع الثورات ويخمد العصيان يخمد ألتباري ويضغط
على الأفكار ويستولي على القلوب بقوة بمبو .

هذه كانت خطة فوسكاري . وقد لبث يعمل ستة أعوام حتى
تمكن من الاستيلاء على هاتين السلطتين بحيث بات قادراً الآن على
استخدامهما في سبيل نفسه .

الدوج

*

مرّ الكردينال والشاعر بقاعة كان الناس فيها عصابات
يتحدثون وكلهم ينتظرون أن يجيء دوره في مقابلة الدوج . فلما
مرّ بهم الكردينال جعل الجميع يحيمونه بملء الاحترام فشعر
آريتان بنفوذ صديقه وقال في نفسه :
يا ليتني انتظمت في سلك الكهنة وأرحت نفسي من عناء
البحث عن المال ، فهذا الكردينال يقبل الناس بده ويعطونه ما

يحتاج إليه صاغرين . وأخْلِقْ بمن خُلِقَ كسولاً مثلي أن يلبس
لباس الكهننة ويمتنع هذه المهنة فقد باتت وظائف الكهنوت في
هذه الأيام مهنة من المهن الراجحة ...

وقد قطع الكردينال عليه حديث نفسه ودعاه إلى الجلوس
يجانبه على كرسي . ثم أشار إشارة إلى أحد الحجاب وعاد إلى
محادثة آريتان فقال له بصوت منخفض: إن الدوج سيستقبلنا في
الحال لأنه ينتظرنا وفي خلال ذلك نستطيع أن نتحدث .

— بماذا ؟ ما الذي سنقوله ؟

— إنني أريد أن أسألك عن رجل تعرفه .

— من هو ؟

— إنه رجل حاذق يجيد نظم الشعر وقد عينته في المنصب

الذي أراده ، فهل يهتمك أمره ؟

— كثيراً .

— إذا كان ذلك فلني سأرقتيه .

— من هو هذا الرجل ؟

— كنت أوقع أن يخبرني شيئاً عنه ما زلت تريد خبره .

أما أنا فلاني لم أعرفه إلا برسالة جاءني بها من الشيطان الأكبر .

— الشيطان الأكبر ؟

— نعم ، أي من جان دي مديسيس .

١ - كان جان دي مديسيس يلقبه جنوده بالشيطان لشدته دهائه في
الحرب .

— إذن لا تعرفه ؟

— كلا !

— ولكن يجب أن تعرف من هو ومن أين أتى وماذا يريد .

— ذلك سهل معرفته فإنه شاعر وقد أتى من فلورنسا وهو

يريد الثروة .

— كل ذلك ظواهر يضمرواها دون شك مقاصد خفية

أريد أن أعرقها .

— حسناً ، فسأله عن كل ما تريد معرفته .

وعند ذلك جاء الحجاب وأخبر الكردينال والشاعر أن

الدوج ينتظرهما فدخلا إليه .

*

لما مثل آريتان بحضرة فوسكاري نظر إليه الدوج نظرة

الفاحص ثم قال له فجأة : إنك صديق جان دي مديسيس ؟ قال :

نعم يا سيدي الدوج ، فإنه شرفني بصداقته منذ عهد بعيد ولم

يرضَ فراقني إلا مكرهاً .

— إذن لماذا فارقته ، فإن رضى مثله خير من رضى الملوك !

— هو ذاك يا سيدي ما خلا رضاك .

— ولكني لست من الملوك !

— لقد سمعت أهل فينيسيا يتكلمون عن فوسكاري باحترام

كان له عليّ تأثير أعظم . ورأيت قصرك الفخم يحيط به الحراس

فشيته بقصر اللوفر الملكي الذي رأيت في باريس وبقصر سانت

أتج في روما . ودخلت إلى قصرك فما شبهت بلاطك إلا ببلاط
مدريد ، ثم رأيتك ورأيت قصرك ورأيت شعبك فعلت أنهم
خير أبطال يقيمون في أمنع حصن ويخضعون لأعظم أمبراطور .
فاهتز فوسكاري لهذا الثناء ولا سياً لكلمة أمبراطور فقال في
نفسه :

— لا شك أن هذا الشاعر غير أبله كما يتوهم بمبو ، فإنه عرف
عني لأول وهلة ما لا يعرفه هو طيلة حياته ، بل ما لا يعرفه
سواي . ثم قال للشاعر :

— لا يوجد ملك في فينيسيا ولن يوجد فيها ملوك . ولكن
لنعد إلى جان دي مديسيس الشهير فإني أظن أنك فارقته لسبب
آخر غير السبب الذي ذكرته .

— إن السبب شخصي محض يا سيدي ، فإن جان دي مديسيس
النبيل لا يعيش إلا في ساحات المعارك ولا يتنشق المرء من حوله
غير رائحة البارود ولا يسمع غير دوي الطلقات بحيث يكون
معرضاً في عشرته لأشد الأخطار في كل يوم .

— تريد أن تقول إنك لا تحب الحروب ؟
— ليس هذا الذي أعنيه يا سيدي فإني لست من الجبناء ،
ولكن الحروب لا تروق لي .

— وعلى ذلك فلو طلبت إليك أن تعود إلى جان دي مديسيس
ألا تكون راضياً ؟

— دون شك يا مولاي ، ومن يروق له أن يبرح مدينة الماء
الساحرة إلى معامع القتال ، إلا إذا أراد مولاي أن يبعثني

بهمة فإني أعده نفسي عند ذلك سعيداً بأن أكون سفير الدوج
فوسكاري إلى جان دي مديسيس .

فنظر الدوج إلى بمبو نظرة خفية أجابه عليها بمبو بهز رأسه ،
فأطرق الدوج هنيئة مفكراً ثم التفت إلى آريتان وقال له :

— ماذا أتيت تعمل في فينيسيا ؟

— أتيت لأتمل بعشرة قومها وأتمتع بظرفهم وأدبهم .

— أهذا كل قصدك ؟

— كلا ، بل أتيت أيضاً للتماس الثروة .

— إني أستطيع أن أعينك على قصدك .

— يا له من عمل صالح !

وعند ذلك تدخل بمبو فقال مخاطباً الدوج : إسمع لي يا
مولاي أن أقول لك إن صديقي بيار آريتان لا يقدر أن يقول
عن نفسه ما أقوله عنه ، فهو لم يقتصر على أنه الشاعر المجيد الناخب
في كل مطلب بل هو الفيلسوف المفكر والذكي الحاذق والمجرب
الخبير ، وهو يفهم بالإشارة وينقل الأفكار دون أن يضطر
صاحبها إلى تدوينها بالأوراق . وقد امتاز بسلاسة التعبير وبقوة
الإقناع وبمخاطبة الناس على قدر عقولهم .

قال فوسكاري : إني أعلم ما تقول ودليل ذلك أني سأعهد
إليه بهمة خطيرة . ومثل هذه المهمة ما كنت أعهد بها إلى سواك
لولا أن أعمالك تقضي ببقائك في فينيسيا . وكفى بذلك دليلاً
على مبلغ ثقتي به .

فأجابه آريتان قائلاً : لك يا سيد أن تعتبرني رسالة محتومة

لا يستطيع فضتها غير صاحبها ، فإن ما تقوله لي ينقش على صفحات قلبي ويصل إلى المرسل اليه . فابتسم الدوج وقال : إذن لم يبق إلا أن نعرف تكاليف شحن الرسالة . فأجابته الكردينال قائلاً : لقد شغل الشعر صديقي عن الاهتمام بهذه الدنيا ، فهو يعلم أن ما سيناله من المجد بقضاء هذه المهمة لا يقابل معه جزاء ولا يذكر في جانبه مال . فهلج قلب الشاعر من الخوف وقال : ولكن إسمح لي يا سيدي ...

فقاطعه الكردينال قائلًا : نعم ، إن صديقي لا يبحث إلا عن المجد وخلود الذكر . فأجابته الشاعر قائلاً وهو يبتسم : هو ذلك ، ولكنني قبل أن أخلد أريد أن أعيش ! فقال الكردينال مخاطبًا الدوج : ولكن إذا كان شاعرنا الشهير لا يحفل بالمال وبضروريات الحياة المادية فإن الصداقة تقضي عليّ بأن أتولى عنه هذا الشأن ، ولذلك رأيت أن يعطى ألفي ريال قبل سفره ومثلها عند عودته .

فوافق الدوج على ذلك وكتب حوالة بالفين وخمسمائة ريال دفعها إلى الشاعر وقال له : سيكون لك مثلها عند الرجوع . فأخذها الشاعر وقد أبرقت عيناه بأشعة الفرح وقال : إني لا أستطيع مكافأتك على ثقتك بي .

— إنك ستذهب إلى جان دي مديس . وأسرع في سيرك ما أمكنت السرعة .

— سأسير الليل والنهار .

— كم تبلغ قوات الشيطان الأكبر ؟

— خمسة عشر ألفاً من حملة البنادق وأربعة آلاف فارس وعشرة مدافع .

فابتسم فوسكاراي وقال : إذن قل له من قبل فوسكاراي ، دوج فينيسيا ، إنه يستخدم جيشه وقواه الحربية في أمور هي دون استحقاقه بمراحل . وإني أقترح عليه أن يكون بيننا محالفة ، فأقدم له عشرين ألف جندي بحيث يصبح عدد جنده مضاعفاً وإنا نستطيع بمثل هذه القوة العظيمة أن ...

وهنا تردّد وتوقف عن إتمام جملته فأتمها آربتان عنه وقال : إنك تشبه يا سيدي بهذه القوة سيد إيطاليا بجملتها ، أليس هذا الذي تمنيه ؟ ثم أقول له إن الحروب ناشئة بين الولايات الإيطالية وإنها لا تستطيع مقاومة جيشك إذا اتفقا ...

— إنك لا محالة شديد الذكاء .. نعم قل له هذا القول وأضف إلى ذلك أنني أنا فوسكاراي دوج فينيسيا أخجل من أن أرى الولايات الإيطالية يمزق بعضها بعضاً، وأن وادي بو الخصب معرض للنهب في كل يوم ، وأن الأنهار الإيطالية تصبغ مياهها بدماء الرجال ، وأني قد خطر لي خاطر عظيم أحب أن أطلعك عليه ...

— إنك ستكون يا سيدي في مأمن عليه .

— إن هذا الخاطر العظيم جدير بقائد عظيم مثل القائد مديس وجدير بأن أسهر عليه الليل والنهار ، فإني أريد توحيد البلاد الإيطالية .

— أتجعل يا سيدي البلاد الإيطالية مملكة واحدة ؟ الله

ما أشرف هذا الرأي وما أعظمه ، فإنه إذا تحقق اضطرب له العالم .

- إن فينيسيا سيدة إيطاليا لا يمكن توحيد البلاد إلا بها . وقد كفانا خدمة لأغراض الغير وإرسال أساطيلنا لمساعدة الملوك ! إنه يجب بعد الآن أن نحارب بهذه الأساطيل في سبيل نهضتنا ، فإن فينيسيا سيدة البحار ولا بد لها أن تغدو سيدة إيطاليا وتنتزع من روما تلك السلطة . وما هي روما ؟ إنها ليست عظيمة إلا بآبائها ، فهي تشبه ذلك الشفق الذي يظهر قبل ظهور الشمس . وما هي فينيسيا ؟ إنها المستقبل ، نور الشمس الذي يتلو ذلك الشفق ! إنها هي التي تستطيع أن توقف رحى الحروب فتستولي على إيطاليا العليا ثم على إيطاليا بأكملها ثم تقف في وجه أوروبا فتقول :

- لقد كان لي من قبل الشعر وسائر الفنون ! وأما الآن فلي القوة أيضاً . فلتبجح فرنسا والمانيا عن فريسة في غير بلادنا . أما إيطاليا فإنها تستطيع الدفاع عن نفسها . هذا هو الخطر الذي خطر لي فما تقول فيه ؟
- أقول إنه أشرف خطاير وأعظم فكر سيقم إيطاليا ويقعدها .

- هو ذلك . غير أن الأمراء سيكونون من أخصامنا ، ولذلك يجب أن يدير هذا المشروع رجل مثلي وأن يتولى تنفيذه رجل حربي مثل مدسيس .
- بماذا يجب أن أعده ؟

- بالقسمة بعد الفوز . فهو يكون سيد روما وأنا أكو سيد فينيسيا فيكون له الجنوب ولي الشمال ويكون البابا بيننا . هذا هو مجمل خطتي . وأما تفصيلها فسنبحث فيه فيما بعد . إنما يجب أن أعلم قبل كل شيء ، إذا كانت الشيطان الأكبر يوافق على هذه المحاولة التي أقترحها عليه . وهنا دقة مهمتك ، إذ يجب أن تسبر غوره في البدء وتخرجه عن هذه الحطة بطريقة الألغاز بحيث لا تكون قد كشفت له كل الحقيقة إذا لم تجد منه رغبة في قبول المشروع .

- إنني أخمن لك يا سيدي فوز المشروع ، فقد عرفت جان مدسيس حق العرفان فتمت وإياه في خيمة واحدة وأكلت وإياه على مائدة واحدة وكان يكاشفني بكل ما يحول بأفكاره ، وفوق ذلك فإن هذا الرجل سليم النية بسيط القلب ليس له غير لذة واحدة وهي لذة الحروب . وما زلت سائراً إليه بمشروع حربي كبير فهو يقبله دون شك .

- إذن سافر بأقرب حين واعلم أن سعادة إيطاليا قد أصبحت بين يديك . فقال آريشات : بل في يدي ويدك . ثم انحنى وخرج مع يمي !

فلما برحا القصر قال له يمي : ماذا تقول في هذه الحادثة ؟ قال : أقول إن السر يساوي أكثر من خمسة آلاف ريال .
- صبراً أيها الصديق ، فإنك لا تزال في البدء .
- ليكن ما تريد فإنني معتمد عليك .

أمباريا ولكنه وجد أن الوقت المعين لم بأزف بعد فركب قارباً
وأمر النوتي قائلاً : سرّ بي إلى حيث تريد وعُدّ بي إلى هنا في
الساعة التاسعة تماماً . قال النوتي : حسناً يا سيدي .

فارتعش بمبو لصوت ذلك البحّار وجعل يتمعن فراه
يحذف دون اكتراث فاطمأنّ دون شك إذ جعل ينظر إلى المياه
وإنما ينظر في الحقيقة إلى بيانكا بعين الخيال .

وفي الساعة التاسعة عاد به النوتي فصعد بمبو من القارب
وذهب فوقف تحت نوافذ أمباريا وهو يقول في نفسه : ترى
لمأذا أراد هذا الرجل أن أكون هنا في الساعة التاسعة ؟

*

في الساعة التاسعة والنصف كان سكرتير الشاعر آربرتان ،
أي رولاند ، يتحدث مع أمباريا . وقد سارها إلى النافذة
المشرقة على المكان الذي كان الكردينال واقفاً فيه فدلّتها على
بمبو وهو يسير ذهاباً وإياباً على الرصيف . فارتعشت أمباريا
وقالت : أهذا هو ؟ قال : نعم فهو يرود في كل ليلة تحت نوافذ
بيتك ويترقب الفرصة المناسبة . قالت : أواه ، إنك وعدتني
أن تنقذ ابنتي منه .

- سأنقذها إذا لم يكن قد فات الأوان .

فحمد الدم في عروق المحطية وقالت : ماذا تعني بذلك ؟
قال : أحسب أنه يرود حول المنزل ليتاجي بقرامه النجوم ...
كلا ، بل إنه بعد خطّة أخاف أن يتمكن من إنقاذها بعد يومين

المغارة السوداء

*

عندما عاد بمبو إلى قصره لم ينتبه لرجلين كانا قد تبعاه إلى
مراي الدوج ثم اقتفيا أثره إلى باب منزله وهناك لقيها رجل
كان لابساً ملابس البحارة فاستوقفها وسأل أحدهما قائلاً : ماذا
حدث ؟ قال : إنه ذهب إلى قصر الدوج !

- وحده ؟

- كلا ، بل كان يصحبه الشاعر ولكنه حين عاد عاد وحده .
- يجب أن تبالغا في مراقبته ولا تنسب الساعة الحادية عشرة
والعلامة المتفق عليها . والآن أين السفينة ؟
- إنها راسية أمام قصر أمباريا .

فأظهر البحّار إشارة رضى وانصرف عنها .
وقد مرّ ذلك النهار على بمبو دون حادث ، ولكن ساعاته
لديه كانت تشبه الأيام بطولها ، إذ لم يكن يحول في خاطره غير
فكر واحد وهو بيانكا .

وفي الساعة الثامنة من المساء لبس بمبو ملابسه وتدجج
بالسلاح ثم اتشح بوشاح وخرج من القصر فسار توجاً إلى قصر

أو ثلاثة أيام . ولكن سأبدأ منذ الغد . فضمت يديها وقالت له
بلهجة المتوسل : أنقذ ابنتي .

قال : لقد قلت لك يا سيدي إن ابنتك ستنجو غداً فرجائي
أن لا يكون قد فات الأوان ، فإن مثل الكردينال قد يأتي بها
لا يكون في الحسبان .

وعند ذلك دقت الساعة العاشرة فاستأذن رولاند من أمباريا
وذهب إلى القارب فارتدى ثوب التوقي الذي كان يلبسه حين
سار بالكردينال منذ ساعة . وعند ذلك طاف حوالى القصر
فوجد أن جميع نوافذه مقفلة ورأى بيبو واقفاً تحت إحدىها وهو
جامد جمود الأصنام .

أما أمباريا فإنها بعد أن ذهب رولاند عادت إلى تلك
النافذة ورأت بيبو لا يزال متربصاً في مكانه وقد وقف وقفة
الوحش الضاري يتربص الفريسة ، فلهج قلبها من الخوف وقالت
في نفسها : لمن عساي أشكو ؟ ألفوسكارى وألتيارى وقد طالما
أخافاني كما أخافني هذا الكردينال ؟ وعند ذلك أخذت مصباحاً
وذهبت إلى حيث تقيم بنتها .

ولم تكن بيانكا نامت بعد فلما رأت أمها داخلة أسرع
إليها فعاقتها أمها وهي تقول لها : ألا تخافين يا ابنتي أن تبعبك
السرير ؟ قالت : إني كنت أنتظر أن تأتي إلي كما كنت تأتيين في
كل مساء .

— إذن أنت غير حاقدة عليّ ؟

— كيف أحقد عليك يا أماء ؟ ولكنك لو أصغيت إليّ
لسافرتا في الحال .

فقطبت أمباريا حاجبها ثم قالت : نعم يا ابنتي سنسافر في
أقرب حين .

وعند ذلك كسر زجاج النافذة فجاءة ودخل منها رجلان
فوثبا إلى الغرفة ثم وثب إليها إنسان آخران فصاحت أمباريا
صيحة رعب وهرولت إلى الباب لمناداة الخدم ولكن الباب كان
مقفلاً من الخارج . فهتت أن تصيح ولكن قيل أن يخرج الكلام
من فمها انتفض عليها رجلان فوضعا كمامة في فمها وأحكما وثاقها .
أما بيانكا فإنها صاحت صيحة رعب هائلة ، ولما رأت ما
حلّ بأمها جعلت تصيح مستقيمة فحملها الرجال الأربعة
وخرجوا بها من النافذة فأنت أمباريا أنين المومع إذ لم تكن
تستطيع أن تستغيث وأغمي عليها . ولما عادت إلى رشدها بعد
هنيهة ورأت خادمتها بنتها قد فككن قيودها ، لم تعجب بنتها ،
فنادتها نداء يفتت الأكياد وأسرعت إلى تلك النافذة قرأت سلفاً
معلّقا وهو السلم الذي علّمه أولئك الذين اختطفوا ابنتها فصاحت
صيحة منكرة خرج بها اسم بيبو وحده من فمها .

*

كان رولاند عند أسفل ذلك السلم حاملاً بيانكا وهي تكاد
تجنّ من رعبها وهو يقول لها :
— لا تخشي يا ابنتي فقد وعدتك أن أنقذك وقد أنقذتك .

فعرفت بيانكا صوت ذلك الرجل الحنون واطمأنت إليه
وقالت : وأمي ؟ فارتعش رولاند وقال لها : تقني يا ابنتي فلا
خوف عليك ولا على أمك .

وعند ذلك سار بها إلى قارب فوضعها تحت خيمة وقال لها :
سأعود إليك قريباً فلا تجزعي . فضمت يديها وقالت له : آواه !
لا تتركني . قال : ذلك لا بد منه يا ابنتي ، وسنجتمع قريباً .
أما الآن فإني أعهد بك إلى هذا الرجل الذي ترينه فثقي به كما
تثقين بأبيك . قالت : بآبي ؟ ثم نظرت إلى ذلك الرجل فوجدت
رجلاً هائلاً الخلفة كان ينظر إليها نظرات مأوفا الحنو .

وعند ذلك سار القارب مسرعاً وكان رولاند قد وثب إلى
قارب مجاور وأمر النوتيّة أن يقفوا به إثر قارب بيانكا فسار
به ذلك القارب ، ولما مرّ بقصر أمباريا سمع في ذلك الليل
السكن صوت أمباريا تقول بلهجة اليأس « بيبو » فابتسم ابتسامة
هائلة ونظر إلى قعر السفينة فقال لرجل كان مقيداً فيها :

— أسمعتم يا بيبو ؟ إن هذا صوت أمباريا تلعنك وتنقم
عليك .. إنه صوت أم تبعث عن بلتها التي اختطفتها ، والويل
لك إذا اجتمعت بك بعد الآن .

وكان هذا الرجل المقيد الكردينال بيبو نفسه ، فأجابه
بصوت لم يعلم إذا كان أنيناً أو إنداراً ، فسان الكلمات كانت في
فه . ولكن رولاند لم يجه . واستمر القارب مسرعاً في سيره
إلى أن وصل إلى ميناء ليدو والتصق بسفينة كبرى كانت تنتظر
فيها .

وبعد هنيهة كان رولاند والكردينال وبيانكا وسكالا برينو
على ظهر تلك السفينة . فقال رولاند لسكالا برينو : يجب الآن
أن تعود إلى فينيسيا فتذهب إلى بيار آريتان وتقول له إنه يجب
أن ينتظري فيها حدث . فتنظر سكالا برينو نظرة وداع إلى
بيانكا وعاد إلى القارب .

أما بيبو فإنهم ألقوه وهو مقيد في عنبر السفينة فأطبق عينيه
ولم يعد يتحرك حتى خيل للناظر إليه أنه مغمي عليه . ولكن
الحقيقة أنه كان يفكر بمصيره .

وأما رولاند فإنه أدخل بيانكا إلى غرفة الريان وأخذ يدها
بين يديه وقال لها بلهجة الأب الحنون : لقد اضطررت يا ابنتي
إلى استعمال هذه الوسيلة العنيفة لإنتقاذك من الخطر الذي كان
يتهددك أما الآن فقد زال الخطر بإذن الله . قالت : وهذا الرجل
الذي لقيته ؟ قال : اطمنني فقد نجوت منه . فإن هذا الرجل ذو
سلطة عظيمة فلم أجد بداً من إخراجك من فينيسيا لمحايتك منه
دون أن يعلم أحد ما جرى لك .

— حق أمي ؟

— حتى أمك !

فسالت الدموع من عيني الفتاة لأنها لم تكن تفهم شيئاً مما
كان يقال لها ولكنها كانت واثقة بأن أمها لا تستطيع إنتقاذها
من الخطر الذي كان يتهددها كما أنقذها هذا الرجل الذي كانت
كل كلمة منه تزيدها به وثوقاً .

أما رولاند فإنه خرج من عندها إلى ظهر السفينة التي كانت

قد خرجت من الميناء وسارت إلى جهة الشمال فجعل يسير ذهاباً وإياباً وعلائم الاضطراب بادية عليه فيقول : إذن ، هذه الفتاة بل هذه الملاك تحب أمها حباً عظيماً ، فهل يحق لي أن أقلق راحتها للانتقام من أمها ؟ وهل يحق لي أن أفترق بين الأم وبناتها لأن الأم أئيمة ؟ وهل يحق لي أن أبكي البنت لأني أريد أن تبكي الأم ؟

ثم جعل ينظر إلى أمواج الأديرياتيك التي كانت تتكسر على السفينة وهي تشق عباب البحر فقال : ولكن ألمئتم أشفقوا عليّ عندما انتزعوني لبسة خطبتي من نيمي وألقوني في سجن تقضه جهنم . وعندما أرادت أمباريا أن تبكيني ، ألمئتها أشفقت وخطر لها أنه يوجد أيضاً من يبكي لبكائي ؟ وهل خطر هؤلاء حين انتقموا مني أنهم ينتقمون أيضاً من أبي وأمي ؟

وهنا أن أنين الموجع وقال : ولا أقول شيئاً عن تلك .. فإنها تعزت بالسوان وبزواجها سواي ... وقد تهتد عند ذلك تنهداً تمزق له صدره والتفت إلى جهة فينيسيا فرأى أنها قد توارت عن الأنظار فعاد إلى السير فوق ظهر تلك السفينة وقد خفق قلبه فوق خوفها واضطرب عقله أكثر من اضطراب الأمواج المزبدة حولها .

ومما زال على ذلك حتى انبثق الفجر فجاء ربان السفينة وقال له : أيجب أن تظهر تلك العلامة أمها الرئيس ؟ قال : نعم . فأسرع الربان فوضع نوراً في أعلى الصاري ثم أطلق من بندقيته ثلاث طلقات في الهواء فلم تكن غير لحظة حتى أجب

بمثلها من البرّ فقال : إذن نستطيع أن نزل إلى البر . وعند ذلك أمر بإلقاء المراسي وحلّ القلوع وعاد إلى رولاند فقال له : أيجب أن أنتظر هنا يا سيدي الرئيس ؟ قال : كلا ، بل تعود إلى فينيسيا .

وبعد هنيهة أنزلوا قارباً إلى البر فأنزلوا إليه بيبو وهو مكوم الفم مكتوف اليدين والرجلين وذهبوا به إلى البر . وكان هناك مركبة يجوادين تنتظر فحملوه إلى المركبة وانطلقت به تسابق الرياح .

وعند ذلك عاد القارب إلى السفينة فأنزلوا بيانكا ونزل رولاند فجلس يجانبا فسار بها إلى البر ، وهناك كانت مركبة أيضاً تنتظر فسارت المركبة معها وعند الساعة التاسعة من الصباح دخلت معها إلى مدينة صغيرة ووقفت بأمر رولاند عند باب منزل صغير .

وكان هذا المنزل نفس المنزل الذي وضع فيه رولاند جوانا وأباه ، فأقام فيه ساعتين وغادره تاركاً فيه بيانكا وجوانا وأباه . وقد امتطى جواداً وسار في طريق تريفيز ثم في طريق تريفيزا حتى وصل إلى مغاور بيافا .

وكان يمر خلال مسيره تارة براع يرمي خرافه وتارة بفلاح يظهر أنه يعالج زرعه فيشير لمن يراه منها إشارة فيقف لها مسرعاً فيظهر أنه مدجج بالسلاح .

وما زال على ذلك إلى أن ترجل عن جواده عند باب المغارة السوداء ودخل إليها فوجد فلاحاً مسلحاً يحرس بابها فقال له :

هل جاؤوا بالرجل؟ قال : نعم أيها الرئيس !

- أوضعوه في القاعة التي أرشدتهم إليها ؟

- نعم !

- ألم يحدث شيء جديد في الضواحي ؟

- كلا ، سوى أن ساندرينو عاد إلى الظهور فيها وقد أفلت

أيضاً هذه المرة .

فتركه رولاند ودخل إلى المفارة فسار فيها بضع خطوات

ثم نزل في سلم إلى باطن الأرض وهناك أسرع حارسٌ إلى إنارة

مصباح فقال له رولاند : هل أتى الزعماء ؟ قال : نعم أيها

الرئيس ! قال : حسناً ، فقل لهم أن يحضروا .

فامتثل الحارس وأخذ رولاند المصباح بيده وتفقد في اليد

الأخرى خنجره ثم فتح باباً ودخل منه إلى قاعة مظلمة تشبه

السجون ففحصها وهو يبتسم وقال : لقد أتقنت صنع هذا السجن

حتى بات يشبه سجني القديم أتم الشبه ، وهذا بابهُ فقد صفحته

بالحديد كما كان ذلك الباب الذي طالما أدميتُ يدي في محاولة

فتحه . وهذا الخبز الأسود .. وهذا إبريق الماء .. وهذا السيرير

الحجري الذي كنت أنام عليه .. وهذه الجدران المظلمة الرهيبة ..

إن كل ذلك يشبه السجن الذي كنت فيه !

وعند ذلك دخل ستة رجال إلى السجن فعلق رولاند

المصباح في جداره وقال : هاؤوا الأسير !

وبعد هنيهة أقبل اثنتان يحملان ذلك الأسير وألقياه فوق

السيرير الحجري وهو ينظر إلى ما حواليه نظرات ذعر لا توصف

وقد كاد يمينُ من الرعب . ولكنه ما لبث أن استأنس بالظلام

فقال لأولئك المحيطين به : ماذا تريدون مني ؟ فأجابه رولاند

قائلاً : سوف تعلم يا يمي !

فتلثم لسان يمي من الخوف وقال : سكرتير آريتان ...

أواه ! لقد حدثني قلبي بأن هذا الرجل شوّم عليّ .

وقد رفع عينيه إلى السماء كأنه يلتمس عون الله ثم نظر إلى

سكرتير آريتان وهو واقف قرب المصباح فلم يكدر براه هذه

المرّة حتى وقف شعر رأسه وجد الدم في عروقه وصاح صيحة

تمثل بها الرعب فقال : وبلاء إنه هو !

فقال رولاند لرفاقه : فكوا الآن قيوده .

فامتثلوا . وتراجع يمي إلى زاوية السجن كأنه يريد الفرار

من نظرات رولاند . ولكن رولاند سار إليه وقال بلهجة كثيفة :

- أتعرفني يا يمي ؟

فأجابه بصوت أجش :

- رولاند كانديانو !

وعند ذلك سقط جاثياً على ركبتيه وبسط يديه أمامه

وهو يقول : رحماك أعف عني ! قال رولاند : أرى أنك عرفتي

الآن ؟

- رحماك .. رحماك .. نعم نعم لقد ارتكبت جنابة عظيمة

ولكنك كنت تحبني وكنت مثال المروءة فاعف عني !

قال رولاند : سوف نرى . ثم التفت إلى الزعماء وقال لهم :

- أيها الرفاق ، إنني دعوتكم لتكونوا قضاة هذا الرجل

ولتكونوا شهوداً على ما سأصنعه به .

إنكم أيها الرفاق تعيشون غير مقيدين بشريعة، وهذا الرجل يمثلها ، وإنكم تقاتلون الأغنياء دون أن تكونوا حاقدين عليهم لأنكم تحبون استقلالكم فوق ما تحبون حياتكم .

على أن هذا الرجل قد حارب في معترك الحياة يدفعه قلب ملؤه الحق ، وإنما بسطت هذه المقدمة لتعلموا أنكم أشرف قلوباً وأطهر نفوساً من هذا الغني وأمثاله .

وعند ذلك أخذ رولاند يتحدثهم بسلطان ، فكان الجميع يصغون إليه أتم الإصغاء ويعجبون لأقواله التي لم يسمعوا مثلها قبل الآن ويرتاحون إليها كل الإرتياح ، ولا سيما حين يذكر لهم كلمة الاستقلال فإنهم كانوا يتكهربون بها وهم كانوا زعماء عصابات اللصوص الذين ألقوا الرعب في القلوب وتحذت بنواديرم الركيان .

إن هذه العصابات كانت سائدة في الجبال والسهول يسلبون وينهبون ويجمعون غير هيتابين ويمهلون كل ما يوجد في المدن من الدين والثرائع والنظام والبوليس والضرائب . ولكنهم كانوا عادلين بالطبع طيبين بالفطرة لا ينهبون مال الغني إلا لحاجتهم إلى ذلك المال ، ولا يسيئون إليه بغير ماله إذ لا حاجة لهم بغير هذا المال ، ولا يحقدون على الجنود فإذا قاتلوهم فإنما يقاتلونهم مدافعين وإذا تمكنوا منهم لا ينكولون بهم بل يطلقون سراهم مكثفين بها أدر كوه من الفوز .

ولذلك فهموا لأول وهلة كل ما كان يقوله لهم رولاند ووافقوا

عليه بل الرضى لأنه كان يخاطبهم على قدر عقولهم ويحدثهم بما يوافق أهواء نفوسهم .

حتى إذا آنس منهم ذلك الرضى مكث قليلاً ثم استأنف الحديث فقال :

- إن رجلاً منكم طاهر القلب شجاع النفس شديد الوطأة على أعدائكم كثير الرفق بالفقير عظيم الجور على الظالم جاء يوماً إلى فينيسيا ووثق بكلام هذا الأسير الواقف بينكم فكان جزء هذه الثقة أنه عذبه ستة أعوام عذاب الشهداء !

أما هذا الرجل فهو سكالابرينو !

وكنتم في ذلك العهد أعرف بيبو ، وكنتم غنياً قادراً ، فكنت أرى بيبو فقيراً معدماً لا نصير له فأشقت عليه وجعلته في عداد أصدقائي وأحييت الرجاء في قلبه بعد اليأس فكان سميري في مجالسي وشمريكي في أفراحي ، وإنما اخترته دون سواه لتخليتي جميع الناس عنه ونفورهم منه ، فعاش بفضلتي أفضل عيش وصار له بين الناس مقام . أتعلمون كيف كافأني هذا الرجل عن إحساني إليه ؟

إنه فقاً عيتي أبي وصيره مجنوناً وقتل أمي يأساً وجبسني ستة أعوام في قبر ، وأبعدني عن خطيبي وحملها على هجراني بحيث أصبحت أشقى عباد الله بعد أن كنت أسعدهم .

فلما أتيت لي الخروج من سجن قبضت على هذا الرجل وهو يتأهب لجرمة جديدة أشد قسوة من جرائمه السابقة ، فإذا يجب أن أعاقبه ؟

فصاح بمبو قائلاً : العفو العفو !

وقال أحد الزعماء : ليمت ! فوافقه آخرون .

فقال رولاند : ليمت كما تقولون ، ولكن يجب أن يلقي من

العذاب ما لقيته بسببه ، وأن يموت قانطاً في شبه ذلك السجن الذي أنزلني إليه ، وأنت يموت وهو يعلم أن تلك الفتاة الطاهرة النقية التي تجاسر على أن يجيئها لن تكون له أبداً .

ثم مشى إلى بمبو وقال له : بمبو ، إني أعفو عن قتلك كما عفوت عن قتلي من قبل ... بمبو ، إني حكمت عليك أن تعيش في هذا السجن كما حكمت عليّ أن أعيش في تلك الآبار .

فقال بمبو : ولكنك تظلمني ، فإني لم أرتكب الجريمة وحدي . فاصفر وجه رولاند من الغضب وقال : صبراً يا بمبو ، فإن شركاءك فوسكاراي وألتباري وندولوسي جيء دورهم ! قال : رحماك دعني ، أرجوك !

فأشار رولاند إلى الزعماء فخرجوا ، ثم نظر النظرة الأخيرة إلى بمبو وخرج في أثرهم ثم أقفل ذلك الباب الضخم المصنح بالحديد ، فلبث بمبو وحده في ذلك السجن الرهيب المظلم وذكر لغوره ذلك اليوم الذي ذهب فيه إلى سجن رولاند متنكرًا بزي كاهن وما شعر به من الفرح حين علم عذابه ، فتنهد تنهداً خرج من صدره كالزئير ووثب إلى الباب يخمشه بأظفاره ثم انقلب على قفاه مغمياً عليه .

ساندريجو

*

بعد أن أقفل رولاند ذلك الباب سار مسرعاً إلى غرفة مقابلة لباب السجن ، وهي غرفة صغيرة كان قد دخل إليها الزعماء الستة ، وقد فتحت في أحد جدرانها خرق شبه خزينة وضع فيه عدة صنابير . فقال لهم رولاند : يجب أن أعود مسرعاً إلى فيليسيا فتوافونني إليها فتحدث هناك . والآت أخبروني كم غنمنا من الحملة الأخيرة ؟

قال أحد الزعماء : ثلاثة آلاف ريال . وقال آخر : عشرة . وقال سواه : سبعة . وقد حسبوا كل ما غنموه فبلغ أربعين ألف ريال . قال : حسناً ، أحضروا لي عشرين ألف ريال ويكفي أن تضعوها في سفينتنا الكبرى .

وقد خلاهم ربع ساعة كانوا يعجبون في خلالها برئيسهم الأكبر أعظم إعجاب . وبعد ذلك امتطى جواده وسار في طريق ميستر فوصل إليها عند هبوط الظلام .

وكان رجل يتبعه على قيد منتي خطوة دون أن يراه رولاند ، فلما ترجل رولاند عن جواده ترجل الرجل أيضاً فربط جواده

إلى شجرة وتبع رولاند حتى رآه قد دخل إلى منزل فلبث كل تلك الليلة يراقب ذلك المنزل .

وعند الفجر رأى رولاند قد خرج من المنزل تصحبه امرأة كان يكلها بصوت منخفض ثم امتطى جواده وسار في طريق البحيرات . وكان هذا الرجل ساندريجو ، فقال في نفسه : إن هذه جوانا ، فماذا تصنع هنا ؟

وعند ذلك أسرع إلى جواده وسار في أثر رولاند ، ولكنه لم يستطع إدراكه هذه المرة . فرجع عنه وهو يقول في نفسه : إنه ذاهب إلى فينيسيا دون شك ، فلأعد الآن إلى جوانا كي أعلم ماذا تصنع في ميستر وفي هذا المكان المعتزل ؟

وقد أقام كل ذلك اليوم يرود حول المنزل دون أن يراه أحد وفي المساء سار هو أيضاً في طريق فينيسيا .

*

نلتقل الآن بأذهان القراء إلى قصر دندولو ، رئيس مجلس التفتيش ، وذلك في الساعة العاشرة من المساء . فبينما كان دندولو يحاول أن ينام في تلك الساعة دخل إليه خادم غرفته وقال له : إن على الباب يا سيدي رجلاً يريد أن يكلك في شأن خطير .

فأمر دندولو بإدخاله وبأدبه بسؤاله : من أنت ؟ فانتزع الرجل خنجره وغدارته فألقاهما على مقعد وقال : إني يا مولاي أدعى ساندريجو ، وأنا اللص الشهير الذي كان رفيق سكالابرينو . وقد أتيت أسلم نفسي إليك ، ولكن لي بعض شروط أقترحها .

فنظر دندولو إليه نظرة المتذهل وقال : أتكون هذه منزلتك وتخبرني بشرط ؟

- وما يدعوك إلى العجب يا مولاي ؟ فلإني لست أسيراً بل أنا أسير بمحض إرادتي . أنت لا تقبض عليّ إلا إذا كنت أريد ، فإذا كنت أتيت وسلمت نفسي فما ذلك إلا لأنني أردت أن أعتزل الجبال وأعيش عيش أشرف الناس .

فقال دندولو في نفسه : إني أعجب كيف يستطيع اللصوص أن يكونوا من الأشرف .

وأتمّ ساندريجو حديثه فقال : وفوق ذلك ، فإنك إن قبضت عليّ لا تعلم شيئاً مما أتيت لأقوله لك .

فتاق دندولو إلى معرفة ما يريد أن يخبره به فقال له : حسنًا ، فإني أوافقك على المحاربة ما زلت رغبت عن سيرتك السابقة ، فقل إذن ما تريد قوله وأوجز في القول . قال : أول ما أسأله ضمانه سيأتي وحريتي يمين تقسمها لي . قال : أقسم لك بأن أبقى على حريتك وحياتك ، وبعد ذلك ؟

قال ساندريجو : إنك يا سيدي رئيس ديوان التفتيش في فينيسيا ، أي أنك أعظم عظيم فيها ، فإنك بكلمة تخرج من فمك ترسل أشد الناس نفوذاً إلى آبار السجون . أما أنا يا سيدي فقلت من العظماء القادرين وما أنا غير لص بل إن رجالي قد ثاروا عليّ فأصبحت ضعيفاً في الجبال كما أفي ضعيف هنا .

- إذن لقد اتضح سرّ توبتك .

- إني غير نادم يا سيدي فلا يتدم غير الجبناء ، ولكني أنا

ساندرينجو الزعيم دون عصاية والملك دون جيش أستطيع أن
أخدم الجمهورية خدمة جليلة لا يستطيع أن يخدمها بها سواي .
وأنا أطلب مكافأة عن هذه الخدمة .

— قل ماذا تريد ... تريد ما لأ ؟

فهبز ساندرينجو رأسه وقال : سأقول لك يا سيدي ما أريده .
أما الآن فيجب أن تعرف مقدار هذه الخدمة الجليلة التي سأؤديها
للجمهورية ولك وللدوج نفسه ...

وهنا توقف هذا اللص هنيهة كأنه خشي مغبة خيانتة . ولكن
ذلك لم يطل فعاد إلى حديثه فقال : لقد قلت لك يا مولاي إن
رجالي ثاروا عليّ واختاروا زعيماً غيري . ولكن هذا الزعيم
يخضع لرجل يخضع له جميع الزعماء إذ هو الرئيس الأكبر لعصابات
الجبال والسهول . وقد امتدت سلطة هذا الرئيس في زمن وجيز
من جبال الألب إلى أدج ومن تريستا إلى أوفيجر ، أي أنه يحيط
بفينيسيا بشكل نصف دائرة متمعة . ولكن هذه الدائرة آخذة
بالضيّق كل يوم .

فذهل دندولو وقال : كيف عرفت ذلك ؟

— عرفته لحقدي على رفاقي القدماء ، فما زلت أترقب وأسأل
وأتمسّس حتى وقفت على الحقيقة . فإن العصابات الخاضعة الآن
لهذا الرجل يبلغ عدد رجالها ثلاثة آلاف .

— إنها بمثابة جيش !

— لقد أصبت يا سيدي بهذا التشبيه ، فإن هذا الرجل الذي
يلقبونه بالرئيس الأعظم يشبه أيضاً قائد الجيوش ، فإنه قد درب

رجال عصاباته كما يدربون الجنود بحيث لم يعد واحد منهم يأتي
بأمر من تلقاء نفسه . وقد تمكن من تدريبهم وتنظيم أمورهم في
مدة ثلاثة أشهر فقط .

— ثلاثة أشهر فقط ؟ إذن إنه رجل شديد وله جيش هائل !

ولكن بأية قوة نال هذه الزعامة الكبرى ؟

— بقوة الكلام يا سيدي . فإنه يُلقى عليهم الخطاب الوجيز
بما ينطبق على أهواء نفوسهم فيشير كوا من أحقادهم على الحكومة
ويجمع كلتهم على طاعته لا سيما حين يكلمهم عن الاستقلال
والحرية والفتوحات .

— ماذا يُدعى هذا الرجل يا ساندرينجو؟ قل اسمه إذا أردت
أن تستحق المكافأة .

— سأذكره لك يا مولاي بعد أن أبيتن لك مشروع هذا
الرجل ، فإن عصاباته لا تشبه الآن عصابات اللصوص الماضية ولا
تقطع الطرق على الناس بل إن زعيمها يفرض الضرائب على من
يختارهم من الأمراء والدوقات ويرسل شراذم رجاله يقبضون
هذه الضرائب . ولهم الآن خزانة خاصة لم أكتشف مكانها
لنكد الطالع . ولهم الآن عدة سفن كبرى تشبه بمجموعها
الأسطول . أتعلم ماذا يريد أن يصنع بهذا المال وهذا الجيش
وهذا الأسطول ؟

فارتعش دندولو وقال : ماذا يريد أن يصنع ؟

— إنه يريد أن يستولي على فينيسيا يا مولاي . فاحذر لنفسك
وقد أتيت أنا اللص لأخبرك أن الجمهورية في أشدّ خطر من هذا

الرجل ، فإذا لم تقبض عليه قبض عليها .

— قل ما اسمه ... اسمه ؟

— صبراً يا مولاي ، فإني مخبرك في البدء باسم الرجل الذي

سلبني زعامة عصابتي .

— من هو ؟

— إنه يدعى سكالابرينو يا مولاي .

فاصفر وجه دندولو ولم يعد يسأله عن اسم الزعيم الأكبر إذ

كان يرن في أذنيه . ولكن ساندريجو لم يدعه يسأله فقال له :

وأما الزعيم الأكبر يا مولاي فهو رولاند كانديانو .

فقال دندولو في نفسه : يا للهول ! فقد كنت أحسب أن

رولاند قد برح فينيسيا إلى الأبد يوم قتلت ذلك الجاسوس الذي

كان يعرف مكانه . إذن لقد ذهب هذا القتل سدى ! فقد جاء

رجل آخر يشي به ويرشد إلى مكانه .

وعند ذلك التفت إلى ساندريجو وقال له : إنك خدمت

الجمهورية وخدمتني خدمة جليلة وقد بقي عليك أن تعين

المكافأة التي تريدها ، فإنك لا تريد مالاً كما تقول !

— إنك يا سيدي سترسل دون شك بضع فرق تقبض على

رولاند وسكالابرينو .

— ذلك لا ريب فيه !

— إذن فاعلم أنه لا حاجة إلى إرسال من يتعقب رولاند في

الجبال !

— لماذا ؟

— لأنه في فينيسيا ، فما عليك إلا أن تقبض عليه !

فقال له دندولو بلهجة القانطين : أين هو ؟

— لا أعلم ، ولكنني أعرف رجالاً لو علموا أنه هنا لما كانت

تضي ثلاثة أيام حتى يقبضوا عليه .

فتنفس دندولو الصعداء إذ بات يستطيع الآن أن يتمعن بضع

ساعات قبل أن يعزم على أمر جازم فقال : ولكنك لم تذكر

مكافأته بعد ؟ قال : إن مكافأتي لا تتحملون بها خسارة

كبيرة . وكل ما أسأله هو أن تأذنا لي ، حين تعرفون موضع

رولاند ، أن أتولى قيادة الذين يقبضون عليه .

— أهذا كل ما تطلب ؟

— نعم يا سيدي هذا كل ما أطلبه عن رولاند ، ولكن بقي

سكالابرينو ...

— ماذا تطلب عن هذا الرجل .

— أطلب أن أقف مع الجلاذ وأعينه على إعدامه يوم تحكون

عليه بالإعدام فإني أحب أن أقول له كلمة لا قيمة لها إلا في ذلك

الموقف .

— سنمنحك كل ما طلبت ، والآن قل لي أين أجدك حين

أحتاج إليك .

— إنك حين تحتاج إلي يا سيدي تنف في نافذة غرفتك

المطلّة على الترعّة فتجد نوتياً جالساً في قارب تحتها وهو لا

يفارق هذا المكان ، فتدعوه وتذكر له اسمي فلا يمضي ربع

ساعة حتى أكون مائلاً لديك .

- حسناً فاذهب الآن في شأنك وخذ غد ارتك وخنجرك .
فتقلد اللص خنجره وغدارته وانصرف دون أن يلتفت إلى
ورائه . أما دندولو فقد بقي وحده .

إمرأتان

*

لقد كان ساندرينو صادقاً في ما رواه فإن رولاند عباد إلى
فينيسيا حيث كان سكالا برينو ينتظره يجزع لا يوصف .
وقد كان يحترمه احتراماً عظيماً حتى أنه حين لقيه لم يجسر
على سؤاله فأصدر إليه رولاند بعض أوامر كي يبلسغها إلى رجال
العصابات المقيمين في فينيسيا ثم وقف أمام المرأة فغبر شكله إذ
بات من البارعين بالتنكر حتى أنه حين يتنكر لا يعرفه من
خلصائه أحد .

فلما تم تنكره نظر إلى سكالا برينو وقال له : ما بالك لم
تسألني عن نتائج رحلتي ؟ فارتعش سكالا برينو وقال : ماذا تعني
بذلك يا مولاي ؟

قال : إني هنا منذ ساعة وأنت تكاد تدوب شوقاً إلى معرفة
أبناء بيانكا .

- هذا أكيد يا مولاي .

- ألحظ إذن بنتك مع أنك لم تكن تراها ؟ ولكن جمالها
يدهش العقول بحيث أن من ينظر إليها نظرة واحدة لا يبرح
خيالها ذهنه .

- أواه يا مولاي ! إني أؤثر أن تكون قببحة الوجه فإن
جمالها يرعبني وأخاف أن يكون شوماً عليها . أما إذا كانت غير
حسنة فإنها تكون يجملتها لي . وما قولك في أي أحبها ؟ فإني لا
أعلم حق العلم ما أشعر به ، فإن قلبي لم يلجج بمثل هذه العاطفة في
حياتي ، وإني أشعر بأنه يخفق هذا الحقوق لأول مرة ، بل أشعر
أني لم أعد وحدي في هذا الوجود وأني أصبحت معلقاً بهذه
الفتاة التي هي بضعة من دمي .

وسكت هنيهة ثم قال :

- أعلتها الآن في مأمن يا مولاي ؟

فنظر رولاند إليه محدقاً دون أن يجيبه على سؤاله وسأله
قائلاً :

- وإذا قلت لك إنه لا يجب أن تراها بعد الآن ، وإنه يجب
علينا أن نهجر هذه الأوطان ، بل إذا قلت لك يا سكالا برينو
إن حياتي باتت شقية في فينيسيا وإنه لا بد لي من الذهاب إلى
أقصى بلاد المعمور ، وإني في حاجة إلى صديق وفيّ مخلص مثلك
ينبغي وفاؤه عن أن ألعن الإنسانية إلى أن تنقضي أحزاني بانقضاء
حياتي . نعم إذا قلت لك إنه يوجد سفينة تنتظرنا هذه الليلة
للسفر فماذا تقول ؟ أحب يا سكالا برينو بما يوحيه إليك قلبك

فقد تركت لك مطلق الخيار !

فصفر وجهه سكالاً برينو ولكنه أجابه لفره قائلاً :
مولاي إنك أنشأتني وجعلتني رجلاً فوهبتك نفسي والمرء لا
يب ما يملكه مرتين . فمر يا مولاي أمثل .

وكان الجهد الذي بذله كي يمتنع عن البكاء ظاهراً للعيان
فأخذ رولاند بيده وقال له بلهجة حنون : إنك صديق مخلص
ورفيق أمين لا تخدع ولا تخون . أحببت ابتك وهي ستحبك
أيضاً ، فقد خبرت أخلاقها ورأيت من جمال نفسها ما يزيد على
جمال وجهها . ولقد بندر أن تجمع امرأة بين هذين الجمالين .
ومثل هذه المرأة تكون أعظم من كوز الأرض . أما أنا فلم
أدخل أبواب هذا النعيم وهيات أن يظفر الرجال بمثل هذه
الأمنية فما ابتك إلا من شواذ النساء .

ثم هز رأسه كأنه يحاول نفي تلك الأفكار المحزنة التي
تسلطت عليه ، وتابع يقول :

— إن ابتك الآن مقيمة مع أبي وجوانا ، فكل ما خطر
لك أن تراها تذهب إليها إلى أن يأتي ذلك اليوم الذي ينتهي فيه
علمنا من فينيسيا فلا نعود نفترق عنها .

فصاح سكالاً برينو صيحة فرح وتركه رولاند يبكي لسروره
وانصرف . وبعد نصف ساعة بلغ جزيرة أوليفو وسار إلى منزل
دندولو فكانت المرة الأولى التي رأى فيها هذا المنزل في النهار
بعد خروجه من السجن .

فلما دخل إليه تمالك نفسه بحيث لم يظهر عليه شيء من علائم

الاضطراب . وهناك استقبله شيخ يدعى فيليب وهو خادم قديم
وكان رولاند يعرفه حق العرفان ولكنه تجاهل معرفته وقال له :
هل أنت صاحب هذا المنزل ؟ قال : كلا يا سيدي ، فما أنا إلا
حارسه . ولكن إذا أحببت أن تستريح فيه فافعل فإن سيدي
دندولو يحب ضيافة الغرباء .

فدخل رولاند إلى المنزل وجلس على مقعد فقال : إن المنزل
جميل تحديق به حديقة غناء بندر وجود مثلها في فينيسيا . قال :
هو ذلك يا سيدي ، إذ لا يوجد في هذا البلد غير حدائق قليلة ،
وهذه الحديقة أجملها دون شك .

— ولكنكم لا تعتنون بها العناية الكافية كما يظهر .

— ذلك بأمر سيدي بل بأمر السنيورا ألتباري .

— ولكنه أمر غريب ، فإن للنساء شغفاً خاصاً بالأزهار .

— إن الآنسة ليونور ، عفواً يا سيدي بل السنيورا ألتباري
أرادت أن يبقى كل شيء في هذا المنزل على مثل ما تركته يوم
خروجها منه للإقامة في منزل زوجها ألتباري .

فنهض رولاند وفتح نافذة تشرف على الحديقة وأخذ يتمعن
فيها فقال فيليب : إن إهمال هذه الحديقة الفيحاء خسارة كبرى ،
ولكن هي التي تريد أن تبقى على ما هي عليه ، حتى أنها تأتي
أحياناً إلى هنا لتعلم إذا كنت قد غيرت شيئاً في المنزل أو في
الحديقة .

فقال له رولاند وقد أخفى اضطرابه : عجباً كيف تأتي
هذه السيدة أن ترتب المنزل ؟

- نعم يا سيدي ، فإنها تريد أن يبقى كل شيء في هذا المنزل كما كان من قبل حين كانت سعيدة فيه .

- ماذا تقول ؟

- لا شيء ، لا شيء ... فانها أمور عائلية قديمة لا دخل لي بها .

- أم تقل إن سيدتك تأتي أحيانا إلى هنا ؟

- نعم يا سيدي إنها تأتي في الليل فتجلس هناك تحت هذه الأرزة الكبرى إلى أن ينتصف الليل فتذهب ... ولكن كل ذلك لا يفيدك دون شك .

فلم يجبه رولاند ولكنه أدار وجهه إلى جهة أخرى من الحديقة كي لا يظهر اضطرابه ثم ملسك نفسه والتفت إلى الشيخ فقال : لقد ساء في ما سمعته منك ، فقد كان في نيتي أن أستأجر هذا المنزل .

- ولكن ذلك لا يمنعك يا سيدي عن استئجاره ، بل إنك تستطيع أن تشتره .

- لا أدري كيف ينطبق قولك هذا على الأوامر التي تلقيتها .

- إن المنزل يا سيدي لصاحبه دندولو وأنا مضطر إلى تنفيذ أوامره ، فإنه يرغب في التخلص من هذا المنزل بقدر ما ترغب ابنته في استبقائه ، وقد أصدر إلي أمره بأن أبحث عن مشترٍ للبيت فقال لي آخر مرة لقيته فيها في إذا لم أجسد من يشتره أضطر إلى نقضه وتخريب حديثه .

- إذن لقد حدثت جريمة في هذا المنزل ؟

- كلا يا سيدي ، ولكن حدث بين الأب وبنته في هذا المنزل ما دعاهما إلى الاختلاف بشأنه .

- ماذا حدث ؟

فأطرق الخادم ولسان حاله يقول : إنه لا يستطيع الإجابة بهذه الأسرار العائلية . فقال له رولاند : لقد كنت في البدء أنظر إلى هذا المنزل بغير اكتراث ، أما الآن وقد سمعت منك هذه الأقوال فقد بت مهتما كل الاهتمام وأصبحت بالرغم مني من حزب السيدة ... ما تدعى ؟

- ليونور ألتباري .

- نعم ، ولقد يسوءني أن ينهدم هذا البيت دون رضاها ، فقل لاذن لسيدك إنك وجدت من يشتري البيت والحديقة كما هما أي مع الأثاث ، وقل للسيدة إن كل ما في المنزل يبقى على حاله . ثم قل لها إنني سأقيم في فينيسيا خمسة عشر يوما ثم أذهب وربما لا أعود بحيث أنها تستطيع أن تروى هذا المنزل كلما خطر لها زيارته فتجده على حاله .

وأما أنت فإذا أحببت أن تبقى في المنزل فلك أن تبقى فيه بنفس شروطك القديمة مع سيدك ما خلا أي أضعاف راتبك مهما كان قهرا يوافقك ذلك ؟

- أواه يا سيدي ، إنني لو قضي علي أن أبرح هذا المنزل لمت أسفا .

- إذن أنت راض بما اقترحت عليه ؟

- أقبل به ببله الرضى . وأما الراتب فإن راتي القديم كان

يكفيني .

— أنت رجل كريم القلب ، والآن أصغ إليّ فاني أشرت عليك شرطاً واحداً .

— ما هو ؟

— هو أن يتم هذا البيع في أقرب حين .

— إنه يتم منذ اليوم إذا أردت فأسلمك المفاتيح في هذا المساء .

— إذن سأحضر هذه الليلة بالنقود ، فكيف يبلغ الثمن ؟

— لقد أمرني سيدي دندولو أن أطلب عشرة آلاف ريال

ولكن ...

فقاطعه رولاند قائلاً : سأحضر هذه الليلة بعشرة آلاف ريال

فأعدت العقد .

— إنه معدّ لا ينقصه غير أن نذكر فيه اسمك .

— نعم ، لقد فاتني أن أذكر لك اسمي .

ثم كتب له اسماً على ورقة وأعطاه إياها فلما ذهب رولاند

قرأ فيليب اسم المشتري فإذا هو : جان دي لورنزو من مانتو .

وأما رولاند فإنه ذهب توتاً إلى قصر أمباريا ودخل إليه وقال

لأحد خدمه : قل لسيدتك إن رجلاً غريباً يلتمس مقابلتها .

فأجابته الخادم قائلاً : إن سيدي مريضة لا تستطيع أن تقابل

أحدًا . قال : إذهب إليها وقل لها إنني قادم إليها بأنباء خطيرة

من شخص تحبه .

فامتثل الخادم وعاد بعد هنيهة فقال : إن سيدي مستعدة

لاستقبالك فتنفضل واتبعني .

وقد استقبلته أمباريا وقالت له بعد أن نظرت إليه نظرة

الفاحص : تفضل يا سيدي بالجلوس ، فقد قيل لي إنك قادم إليّ

بأخبار من شخص أحبه ولا أحب في هذا الوجود غير شخص

واحد . قال : إنك تعنين ابنتك ، أليس كذلك ؟

— نعم يا سيدي ، فإذا كنت تعرف شيئاً عنها فأمرع

بإخباري .

وهنا لا بد لنا أن نقول إن رولاند كان قد تنكّر فلم تعرف

أمباريا وجهه ثم إنه غير لهجته أيضاً فإن اللغة الإيطالية كثيرة

اللهجات ولكل بلد لهجة خاصة بحيث لم تشبه بصوته أيضاً

لشدة تباين لهجته هذه عن لهجته التي تعرفها ، فأجابها على

سؤالها قائلاً :

— إن ما أعرفه يا سيدي يكفي لتلطيف أحزانك فإني

أطمئنك قبل كل شيء أن ابنتك سليمة نقيه .

فأقتربت أمباريا إليه وأخذت بيده وقالت : أحسن الله

إليك كما أحسنت إليّ فإنك قد رددت إليّ روحي بهذا النبأ .

ولكن كيف عرفته ومن أنبأك به ومن أنت فإني لم أرك في

فينيسيا قبل الآن ورجائي أن تعذرني على هذه الأسئلة .

— إن عذرك واضح يا سيدي ، وأنا أجيئك على أسئلتك

فأقول إنني أدعى جان دي لورنزو من مانتو وقد سافرت أخيراً

إلى ألمانيا وعدت بطريق تريفيز فلقيت أمس في طريقني أحد

أصدقائي . أما سمعت يا سيدي باسم آريشان الشاعر ؟

— نعم ، وقد عرفته .

- ولهذا الشاعر سكرتير غريب الأطوار يُدعى باولو .

- باولو ؟

- نعم ، وهذا هو الصديق الذي لقيته . فإن هذا الرجل يستطيع أن يعيش ببلد الرفاه والسكينة ولكنه عاهد نفسه على أن يقوم بمهمة صعبة وذلك لشدة ذكاء فؤاده على غرابة أطواره .
- لقد عرفت هذا الرجل أيضاً فما هي المهمة التي عاهد نفسه عليها ؟

- هي أن يبحث عن التعساء فيعمل على إزالة شقايمهم !

- إنها مهمة سامية فقد لقيت باولو كما قلت لك وسادته فعلت أنه من نبلاء الأخلاق .

- ولكن أخلاقه غريبة نادرة .

- ماذا تعني بذلك يا سيدي ؟ فإن لي بهذا الرجل ثقة لا حد لها . أعلستي مخطئة بهذه الثقة ؟

- كلا يا سيدي فإن صديقي باولو جدير بكل ثقة غير أنه ينظر إلى الأمور بغير ما ننظر إليها نحن ، وعلى الجملة فإني رأيته أمس في مركبته فأشار إلى صبية كانت معه لم أجد أجمل منها .
- بيانكا ؟

- نعم ، إن الصبية تُدعى بهذا الإسم فاسمعي يا سيدي ما حدثني عنها فقد قال إنها كانت تقيم في فينيسيا مع أمها .
- معي أنا فانا أمها ...

- إني أعيد يا سيدي قوله بنصه : قال إن الأم قد أذهلتها عواطف الأمومة عن أن ترى ما يحدث ببنتها من الخطر بالإقامة

معها ، أفهمت يا سيدي ؟

- نعم وأسفاه !

قال : وما قاله لي إن هذا الخطر المحدق ببيانكا قد تحققت ، فإن رجلاً بل وحشاً ضارياً رأى هذه الفتاة الطاهرة فأحبها وهو لا يقف في جرائمه عند حد .

- ببو ... إنه ببو الهائل !

- هذا هو الاسم الذي ذكره لي صديقي باولو ، ويظهر أن هذا الرجل كردينال وأسقف فينيسيا .

- نعم .

- وقد عزم ببو أن يختطف بيانكا وعزم صديقي على إنقاذها ، ولكنه لنكد الطالع عزم هذا العزم بعد فوات الأوان أي بعد أن اختطفها ببو .

- ولكن صديقك أنقذها أليس كذلك ؟

- هذا الذي قتلته في البدء يا سيدي وهو ما أردده الآن فلم يبقَ خطر على بيانكا فإن باولو اقتفى أثر ببو حين اختطفها فأقنذها منه وقتله .

فارتعشت أمباريا سروراً وقالت : أمات ببو ؟

- نعم فقد نجوت ونجت بنتك منه إلى الأبد .

فقال له بصوت يضطرب : إذا كان صديقك أنقذ بنتي كما تقول فماذا لم يردّها إليّ وماذا ينتظر ؟

فأطرق رولاند هنيهة مفكراً ثم قال لها بصوت اضطرب له أعضاؤها: إن صديقي ارتأى أن ينقذ بنتك منك بعد أن أنقذها

من يعبو .

- مني ... أنا ؟ أنا أمها .

- لقد أخبرتك بغرابة أطوار صديقي ، فقد أكد لي أنه إذ انتزع بيانكا ...

- أنتزع ابنتي مني ... أريد أن يحتفظ بها ؟

- نعم يا سيدتي .

- ولا أراها إلى الأبد ؟

- ربما !

فضحكت أمباريا ضحكاً هائلاً وقالت :

- إن صديقك مجنون وأنت مجنون أيضاً ما زلت جئت تخبر أمّا بأنها لن ترى ابنتها... ومن أنباك يا سيدي أن ابنتي تكون في خطر عندي كما كانت قبل أن تنجو من الخطر الأخير وهو خطر تعرّض له كل فتاة... ويح لأولئك الأشقياء إنهم يريدون إنقاذ البنت وقتل الأم... ومن يعلم فقد يقتلها الفراق.. ولكنك لا تعلم ماذا أستطيع أن أعمل ، فإني أطوف الأرض حتى أظفر بياولو والويل له حين ألقاه .

ثم جعلت عند ذلك تشفق بالبكاء فكان رولاند ينظر إليها نظرات تشف عن السويداء إلى أن نظرت إليه وقالت : أسألك المعذرة يا سيدي فقد اتهمتكم أيضاً. ولكن ما فعلوه هائل عظيم لا يحمله عقل بشر . قال : دعيني يا سيدي أتم حديثي .

فخامر أمباريا شيء من الرجاء وقالت : تكلم . قال : إن صديقي يرتني أنه لا يجب أن يقتصر فقط على إنقاذ البنت بل

يجب معاينة الأم .

- يعاقبني أنا ؟

- نعم ، إذ يظهر أنك ارتكبت من قبل جريمة اعترفت له بها .

فوقفت أمباريا وقالت : بأي حق يريد أن يقف هذا الرجل موقف القضاة ؟ وبأي حق يحتلس سرّي ثم يعاقبني به ؟

فوقف رولاند أيضاً وقد اتسدت عيناه ببارق غيف وقال :

أأنت تتكلمين بالحقوق ؟ إذن لنبحث فيها ما زلت تعرفينها ، فاسمعي : إنه حين يحطفون رجلاً من عالم الأحياء ويسجنونه ستة

أعوام في سجن لا فرق بينه وبين القبر ، وحين يحن هذا الرجل بأساً ويموت كل يوم مراراً من البرد والبأس والجوع ، وحين يعلم أن عالم الأحياء قد تخلّوا عنه وألقوه في ظلمة الأبد... فتق عاد

هذا الرجل إلى عالم الأحياء الذي خرج منه ورأى أنه قد فقد الأب والأم والحبيبة والثروة والمقام ، ألا يحق له أن يلقي أعداءه

الذين نكلوا به هذا التنكيل ويقول لهم بعد أن ظفروا بهم : لقد جاء دوركم الآن وعين بعين وسن بسن ؟ فذوقوا كما غرستم وتمذّبوا كما تمذّبت واشقوا كما شقيت ، وما زلت لم يشفق أحد

منكم عليّ ألا يحق أن تلتمسوا مني الرحمة والإشفاق ؟

كانت أمباريا تسمع كلامه وهي ترتعش لنبرات صوته ولاتسقاد عينيه حتى إذا أتم حديثه قالت له بلسان يتلثم : من أنت ...

قل من أنت ؟ فضبط رولاند نفسه وعاد إلى سكنته وقال :

- إن الأمر غير خاص بي يا سيدي بل بصديقي باولو وأنا

شبه صدى أردد أقواله التي رواها لي ، فهل أنت من أولئك الأعداء الذين عذبوه ؟ ذلك ما أجهله ! وهل هو وحده الشهيد الذي تعذب ؟ ذلك ما أجهله أيضاً ، ولكنني سمعتك تذكرين كلمة الحقوق فأجبتك عنها بما سمعته منه وربما اتصل به أنك ارتكبت جريمة من قبل وأنت تعلمين أن الجريمة لا بد أن يعاقب مرتكبها ولو بعد حين .

قالت : نعم فإن عين الله ساهرة لا تنام ولكن كل ذلك بقضاء الله . قال : ليس ذلك يا سيدي ، فإن لصديقي مبدأ خاصاً غريباً في بابه ولكنه قد يكون صحيحاً ، فإنه يعتقد أن كرم الأخلاق والمروءة ونقاء القلب وما ينتج عنها من الأعمال الطيبة إنما تكون خير دليل على الذكاء الإنساني ، أي كلما اشتد ذكاء المرء زادت حسناته . ولا ينكر أن بعض أهل الشر قد يكونون من أهل الذكاء ، ولكن يكون لهم في عقولهم زوايا مظلمة تدفعهم إلى الشر . يريد بذلك أن يقول إن المجرم لا يكون له خالص الذكاء ، فلو خلس ذكاؤه لما ارتكب الجريمة . ومن هنا تأتي الذنوب ويدفع الشر وتتوالى السيئات ، أي من النقص في الذكاء والاضطراب في الأفكار لا من الأقدار .

كان رولاند يلقي هذه القاعدة الفلسفية على أمباريا وهو يتكلم بلاء السكينة خلافاً لأمباريا ، فقد كانت تضطرب اضطراباً عظيماً حتى إذا أتم كلامه قالت له :

— وإذا اعترفت بجريمتي وسألت العفو ألا يرحمون قلب أم والهة ؟ وبعد ، فإنهم يريدون معاقبتي لذنوب ارتكبتها فيرتكبون

مثل ذنبي بالتفريق بيني وبين بنتي ، فكيف يكون صاحبك من أهل الذكاء ويأتي مثل هذا الشر ؟ وكيف يضع القواعد الفلسفية ولا يعمل بها ؟ لا ! قل له إن خير الحسنات الصفح عن الزلات . فتمتم رولاند في نفسه قائلاً : الصفح ! لقد خطر لي أن أعفو . ولكن عذابي كان شديداً ولا أزال أتعذب ! ثم قال لأمباريا بصوت مرتفع :

— أعتبر الآن يا سيدي أن مهمتي قد تمت ، وخلاصة ما استنتجته من كلام صديقي أنه يعد نفسه بإنقاذ بيانكا من يمبو ، ولكنه يرى أنه لا يجب أن يردّها إليك . — إنها سفالة لا تحتمل . وما أنت إلا من السافلين ما زلت قد رضيت قبول هذه المهمة .

فوقف رولاند عند ذلك وانحنى أمامها وقال :

— هذا كل ما عهد إلي أن أقوله يا سيدي ، وأظن أن من واجبات صديقي أن ينبئك بأخبار بنتك من حين إلى حين ، ولكنني لا إخاله يفعل .

— ألا أرى ابنتي ولا أسمع أخبارها ؟ لتلعنك السماء وتلعن صديقك وتلعن رولاند كانديانو فإنكما لا تعملان إلا للانتقام له ، فهو الذي أرسلكما وهو الذي اختطف بنتي وهو الذي انتزع قلبي .

فاضطرب رولاند ودنا من أمباريا وقبض على يدها وقال لها بصوت يتهدج من الغضب : أتعلمين رولاند كانديانو قبل أن تذكرني ما فعلته وفعله شركاؤك بهذا الرجل ؟ ! إبكي إذن

واقنطي فإنك لن تري ابتك إلى الأبد .

فسقطت أمباريا جاثية على ركبتيها وجملت تنظر إلى رولاند نظرات ملؤها الرعب وتحاول أن تلتصم وتتوسل فلا يخرج الكلام من فمها .

أما رولاند فإنه بعد أن قال لها هذا القول وقف ينظر إليها نظرات المنتقم الجبار وهي قد تمكن منها الرعب فباتت من نظراته كالجمامة أدر كها الصياد ثم ابتعد عنها .

وعند ذلك حلت عقدة لسانها وزال رعبها فوقفت واندفعت في أثره وهي تقول : إقبضوا على هذا الرجال فإنه رولاند كانديانو .

أما رولاند فقد كان بلغ عند ذلك إلى آخر درجات السلم فسار سيراً بطيئاً إلى القارب فنزل إليه ولم تكن غير هنيئة حتى توارى به عن الأنظار . فعادت أمباريا إلى غرفتها واليأس ملء قلبها فأقامت نحو ساعة تناجي نفسها ثم لبست ثيابها وسارت إلى قصر دندولو رئيس مجلس التفتيش ، وهناك اجتمعت به فنزعت برقعها وقالت له :

— لا أعلم يا سيدي إذا كنت تعرفني ، فقد اجتمعنا مرة واحدة منذ سبعة أعوام في سادثة ... قال : نعم هي حادثة لا يمكن نسيانها وقد عرفتك يا سيدي .

وقد جعل يتمعن بها وهي ساكنة مضطربة مرتعدة ثم قال لها : إن أول مرة رأيتك فيها كانت في قصرك وقد سارني ألتباري إليك ، وكان عندك أيضاً فوسكاري ، وهو اليوم دوج

فينيسيا ، وبمو وهو اليوم كرينال . وكان ذلك عند انتصاف الليل أي بعد أن قبض على رولاند ، فاجتمعنا لتداول فيما نفعله برولاند وأمه وأبيه ، أليس كذلك يا سيدي ؟ وقد عقدنا اتفاقاً عليه جميعاً . وما زلت قد أتيت فلا بد أنك آتية لخابرتي بشأن هذا العقد .

— نعم يا سيدي فاسمع ما جئت أقوله لك ، فإن أحد الذين حضروا اجتماعنا بات مقتولاً .

فلم يظهر على دندولو شيء من علائم العجب فإنه كان يتوقع كل أمر بعد ما عرفه من ساندريجو ولكنه سألها بصوت أجش قائلاً :

— من هو هذا الذي بدأ رولاند بالانتقام منه ؟

فارتعشت أمباريا إذ علمت أن دندولو عالم بوجود رولاند في فينيسيا وأنه لم يقبض بعد على هذا العدو الهائل الذي أقسم على أن ينتقم من الجميع ، فأجابته قائلة : إن القتييل الأول كان الكرينال بيبو .

— كيف عرفت ذلك ؟

— من رولاند كانديانو .

فاصفر وجه دندولو بالرغم من توقعه مثل هذه الحوادث لا سيما حين قالت له أمباريا إن رولاند كانديانو قد خرج من عندي الآن .

وقد أخبرتته عند ذلك بما كان من غرام بيبو وأنت سكرتير آربتان وجان دي لورتر و رولاند كانديانو هم واحد .

وهذا الذي بدأ به رولاند ، فإنه قتل ببو وأبعد عني بنتي
إلى الأبد وأعدت لي الختجر ، فيا ويح هذا الشقي لماذا لم يقتلني ؟
- تشجعي يا سيدتي .

- كيف تقول لي تشجعي يا سيدتي . ألا تعلم حنوت الأمهات ؟
لقد عشت من أجل ابنتي بالرجاء . أما وقد اختطفوها مني
وقضوا عليّ بأن لا أراها إلى الأبد فما بقي عليّ إلا أن أحبس
نفسي في زاوية وأعيش قانطة من الحياصة إلى أن ينقذني الموت .
ولا شك يا سيدتي أن هذا الرجل قوي قادر ، فإنه عرف كيف
ينتقم مني وضررتني في قلبي ، فما أحلى الموت الآن بعد فراق
بنتي وهي عندي أعز من الروح .

فاضطرب دندولو لحزنها وقال : وأنا يا سيدتي لي بنت .
- نعم يا سيدتي . ولأجل ذلك أتيت إليك لأخبرك بأن
رولاند كانديانو لم يميت كما كنا نظن وأنه يسعى للانتقام منا .
- إني عارف بذلك .

كيف تكون عارفاً بوجود رولاند في فينيسيا ولا تنذرني ؟
- إني ما عرفت به إلا الليلة فقد أخبرني أحدهم بوجوده .
- وأنا أتيت إليك بهذا الخبر ، فقد دعا نفسه في البدء بأولو
وهو الآن يدعى جان دي لورنزو فاحذر لنفسك يا سيدتي واعلم
يقيناً أنك إذا لم تقبض على هذا الرجل أوت عليك أهل فينيسيا
يحملتهم . فإني أريد ابنتي ، أسمعتم ؟ وإذا كان قد انتخبها
مكاناً قصياً لم أستطع إدراكها فيه فإني أريد أن أنتقم وأريد
أن تقبضوا على رولاند وأن أحضر محاكمته وأن يعسوه إلى أن

يعترف أين توجد ابنتي ... نعم إني أريد ذلك وإذا لم تفعل
فاحذر لنفسك !

قال : لا شك أن الحزن قد أضلّ رشك فمن أنباك أني لا
أريد القبض على رولاند كانديانو ؟

- نعم ... نعم . فاصفح عني فإني لا أعلم ما أقول وقد
خيل لي أنك متردد فما قرأت في عينيك العزيمة بل قرأت
الرعب ... ولكنني مخطئة دون شك ، أليس كذلك ؟

- كوني مطمئنة يا سيدتي فإن جميع بوليس فينيسيا يبحث
الآن عن رولاند ولا بد أن تقبض عليه قبل ثلاثة أيام .

- ثلاثة أيام ؟ إنه أمد طويل !
- إذن صفي لي تنكره ما زلت قد رأيت ، فقد قلت إنه

يدعى جان دي لورنزو ، أليس كذلك ؟
- نعم ، وهذا وصف تنكره فاسمع .

وهنا وصفت ملابسه وجميع صفات تنكره بالتدقيق ثم
ودعته وانصرفت . فلما خرجت لقيت عند الباب رجلاً كهلاً
يقول لأحد الخدم بلهجة سرور: أبلغ سيدنا أنني وجدت مشترياً
لمنزله وأنه لا بد من مقابلته الآن .

ركبت أمباريا قاربها وأمرت النوتي أن يسير بها إلى منزلها
حتى إذا ابتعدت قليلاً نظرت إلى منزل دندولو الذي فارقت ،
فخامر قلبها الشك وقالت للنوتي : لا تذهب بي إلى منزلي بل
إلى منزل ألتباري .

والآن قبل أن تنبع أمباريا إلى حيث ذهبت نعود إلى

دندولو فانه بعد أن ذهبت أمباريا جلس على كرسية ووضع رأسه بين يديه وجعل يناجي نفسه فيقول : إذن لم يبقَ بدٌّ من القبض على رولاند بعد بضع ساعات ... وهذه المرأة التي أتت تقول لي إنها تحب بنتها فما أقول أنا إذا وقفت أمامي ليونور وناقشتني الحساب عن ذنوبي إليها ؟ ربه ، إن ذلك هائل مخيف وما توقعت أن يبلغ إلى هذا الحد فقد قضي عليّ القضاء المبرم ! ترى ألا يجدر بي الانتحار ؟

وعند ذلك دخل إليه خدام غرفته وأخبره بقدم خادمه فيليب حارس منزله في جزيرة أوليفو فأوعز إليه بإشارة أن يدعه ينتظر وعاد إلى مناجاة نفسه فقال : إن رولاند يستحيل أن يدع الجند يأخذونه على غرة ... وأنا الذي يتولى أمر القبض عليه ، فلماذا لا أرسلت الجنود وأرسلهم إلى غير المكان الذي يكون فيه بحيث أدع له سبيلا للفرار ؟ بل لماذا لا أنذره بالخطر المحقق به فيكتفي بقتل بيمو وباختطاف بنت أمباريا ويهجر فينسي ما زلنا فيها ؟ فإذا تم ذلك وسافر رولاند ، لبثت ليونور جاهلة كل ما مضى وانتهى الأمر معها بالسوان .

وقد سكن اضطرابه لهذا الحاضر فأمر بادخال الخادم الشيخ إليه وقال له : هل وجدت من يشتري المنزل كما قيل لي ؟
- نعم يا مولاي !

- إذن يجب بيعه في الحال ، فمن هو المشتري ؟
- إنه رجل غريب وقد طلب إليّ أن أبقى في هذا المنزل كما كنت فيه إذا كنت تأذن لي بذلك .

- لا فرق عندي بشرط أن تكون راضيا .

- إن أعظم سعادة عندي أن أبقى في هذا المنزل القديم .

- حسناً فابق فيه ، فهل اتفقتما على الثمن ؟

- لقد رضي بالثمن الذي عيّنته دون مساومة .

- إذن لم يبقَ غير عقد البيع .

- وهو يريد عقده اليوم فانه سيحضر هذه الليلة بالنقود .

- إذن أبقى لنفسك منها مائتي ريال .

- أشكرك يا مولاي لكرمك . وهذا هو العقد فلم يبقَ إلا

أن توقع عليه . فأخذ دندولو العقد من يد خادمه وقرأه فقال :

ولكني لا أجد اسم المشتري .

- هذا هو يا سيدي فانه كتب اسمه على ورقة وأعطاني

إياها .

فأخذ دندولو الورقة ولم يكدر يقرأ فيها اسم جاندي لورنزو

حق اصفر وجهه وتتم قائلا : هو ... أواه من الأقدار . ثم التفت

إلى خادمه وقال له : في أية ساعة يحضر ؟

- بين الساعة السابعة والثامنة من المساء .

- حسناً ، أبقى هذا العقد عندي وعد إليّ بعد ساعتين .

فالتحنى الشيخ وانصرف .

والآن فلنعد إلى أمباريا فإنها ذهبت توأ إلى قصر ألتباري

واجتمعت به فدهش القائد لقدومها وقال لها : إنك لم تأتي إليّ

في رابعة النهار إلا لحدوث حادث خطير دون شك . ألا تخافين

الأقاول يا سيدتي بعد هذه الزيارة ؟ ألم تتفق بعد تلك الليلة

على أن لا يجتمع أبداً في مكان ؟ قالت : إنك تعني بها تلك الليلة
التي ارتكبنا فيها الجريمة ووشينا الوشاية الكاذبة أليس كذلك ؟
فنظر ألتباري إلى ما حواليه نظرة الحائف وقال : اسكتي
فقد يسمعوننا .

- من الذي يسمعوننا ؟ أم الجنود ؟

- كلا ، بل امرأة !

- من هي ؟ ليونور ؟

فظهرت على وجهه علائم الجزع وقال : بربك يا سيدتي
أسرعي باخباري عن السبب الذي أتيت من أجله . فنظرت إليه
محدقة وقالت له ببطء : إن رولاند كانديانو في فينيسيا .

فسمع عند ذلك من وراء الباب صوت يشبه الأتئين غير أن
أمباريا لم تسمع هذا الصوت لاشتغالها ، وألتباري لم يسمعه أيضاً
لاضطرابه فقد اصفر وجهه وظهر عليه الرعب ، فإنه كان يعتقد
اعتقاداً راسخاً أن رولاند مات غريقاً في التربة . ورأت أمباريا
ما كان من اضطرابه فقالت له : كيف رأيت يا سيدي ؟ أتعقد
بعد الآن أني مخطئة بقدمي إليك ؟ قال : يجب الإسراع إلى
رئيس ديوان التفتيش وإخباره بالأمر .

- لقد أخبرتني .

- إذن فجميع البوليس يبحثون عنه .

- هو ذاك .

- يجب إخبار الدوج .

- ذلك من شأنك .

- والكردينال يبو ؟

- إنه مات .

- مات ؟ يبو مات ؟

- إنه مات قتيلاً بيد رولاند .

فوقف ألتباري وأخذ غدارتين من الجدار فوضعها أمامه
على المائدة ثم تفقدت الدرع التي يلبسها وفتح الباب فاقتعد الجنود
الذين يحرسونه . وعند ذلك اطمان وعاد إلى مجلسه فقال
لأمباريا : أخبريني بكل ما تعلمين ولا تكتمني عني حرفاً أو
يقضى عليّ القضاء المبرم فاني أعرف رولاند حق العرفان ، فإذا
لم تقتله انتقم منا أقطع انتقام .

- نعم إن انتقامه فظيع هائل وقد انتقم من يبو ومني .

- أنت ؟ وكيف انتقم منك ؟

- لقد اختطف ابنتي ، أي أنه ضربني الضربة القاضية .

- يجب أن أقف على كل ما حدث فأخبريني بكل ما تعلمينه
بالتدقيق .

فأخبرته عند ذلك تفصيلاً بجميع ما عرفه القراء من أمر
رولاند حتى إذا أتت حديثها أطرق ألتباري هنيهة مفكراً ثم
قال : لماذا أتيت لإخباري بعد أن أخبرت رئيس ديوان
التفتيش ؟

- ذلك لأني غير واثقة من دندولو فإنه رجل ضعيف كثير

التردد ، وقد أكون مخطئة في حكمي عليه . أما أنت فلا شك

عندي بصدق عزيمتك .

فذكر ألتيارى ما لاحظته من دندولو يوم أخيره بفرار رولاند من سجنه فقال في نفسه : لم يبق لدي شك بإحجام دندولو ، ولكني سأكرهه على الإقدام . ثم أجاب أمباريا قائلاً : لقد أصبت ، فاني صادق العزيمة لا أتردد في أمري فاطمئني ، فان واحداً منا يجب أن يموت وهو الذي سيموت دون شك . قالت : هو ذاك . ولكن قبل أن يموت رولاند كانديانو أحب أن أعلم أين ذهب بإبنتي فاعلم أنه إذا لم تردّ ابنتي إليّ ألقيت التبعة عليك وعلى دندولو وعلى فوسكاري .

وقد قالت هذا القول بلهجة تبيّن فيها الوعيد وذعر لها ألتيارى فطمأنها وأوصلها إلى باب خفي ففتحه وقال لها : اخرجي من هذا الباب كي لا يراك أحد واعتمدي عليّ في إنقاذ بنتك .

فأجابته بلهجة وعيد قائلة : حسناً ، فاني معتمدة عليك .

ثم انصرفت فأقفل ألتيارى الباب ثم وضع يده على قبضة خنجره وهو يقول : سأقتله في البده ثم أقتلها بعده . وعند ذلك خرج من منزله وسار مسرعاً إلى دندولو يخفّره ثمانية من أبسل قواده .

أما دندولو فانه ، بعد خروج فيليب من عنده ، وضع عقد البيع أمامه وجعل يتمعن فيه وهو في الحقيقة يناجي نفسه بما كان يشغل في تلك الساعة من الخوف المحقق برولاند ، إلى أن أخذ القلم فجأة وكتب اسم جان لورنزو فيه ، أي اسم رولاند كانديانو .

وعند ذلك دخل إليه ألتيارى فأقفل الباب بعد دخوله ودنا منه وقال : لقد أتيت لأخبرك أن رولاند كانديانو في فينيسيا وأنه متنكر فيها باسم جان لورنزو ، فإذا عزمت أن تفعل هذه المرة ؟

فاضطرب دندولو وحاول إخفاء العقد الذي كان أمامه ، ولكن ألتيارى رأى ما كان من اضطرابه ومحاولته إخفاء هذا العقد فأيقن أنه يتضمن أموراً خفية ولا بدّ له من الإطلاع عليها ، فأسرع ووضع يده عليه قبل أن يتمكن دندولو من إخفائه ونظر إليه نظرة ملؤها الإنذار وقال :

- إنك تحاول إخفاء هذه الورقة .

فمجبب دندولو لجرأته وقال له : ألا يحقّ لي إخفاؤها ؟

- إنني أريد الاطلاع عليها .

- ما هذا التهج الذي تنهجه ؟ فهو غير معقول .

- ولكنني سأقرأها ؟

ثم انتزع الورقة من يد والد امرأته وابتعد وجعل يقرأها حتى إذا قرأ اسم جان دي لورنزو صاح صيحة منكّرة . فارتعد دندولو لهذه الجرأة النادرة وأراد إنقاذ نفسه فقال : إنك انتزعت مني بالعنف سرّاً من أسرار الحكومة فاني تمكنت من أن أنصب فخاً لروланд فوقع فيه ، وسيحضر هذه اللبّة إلى منزلي في جزيرة أوليفو فأقبض عليه دون شك لأنني أمرت أن يطوّق المتزلّ بالجنود . فاعلم الآن أن كلمة تخرج من فمك أو إشارة تبدي منك تقصد عليّ هذا الأمر الذي طالما أجهدت نفسي

حتى توصلت إليه وتكون التبعة في ذلك عليك .

فأطرق ألتباري مفكراً ثم قال : أسألك العفو عما بدا مني من الحدة ، فقد كان اضطرابي شديداً لهذا النبا حتى لم أعلم ما أفعل ، فمد دندولوا إليه يسهده وهو يقول : إجلس لتتحدث . فامتثل ألتباري ونظر إليه دندولوا نظرة حقد خفية ثم قال له : كيف عرفت ذلك ؟ قال : إن أمباريا حذرتني ا فقال دندولوا : نعم : فانها جاءت إلي أيضاً منذ ساعة وهي تعتقد أنها تحمل إليّ خبراً جديداً مع أنني أتعقب رولاند منذ خمسة أشهر ، وأنا الذي حملته على العودة إلى فينيسيا وأنا الذي دفعته تباعاً إلى هذا المنزل لتذكاراته السابقة فيه . ولكنك عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء . فان رولاند يقود الآن جيشاً كثيفاً من اللصوص يبلغ عددهم زهاء ثلاثة آلاف ، وله سفن ومدافع ، وربما خطر له أن يهاجم فينيسيا بهذا الجيش ، فهل عرفت الآن أنك اطلعت على سرّ عظيم من أسرار الحكومة ؟

- نعم ، وإن الدوج قد علم بذلك دون شك .

فارتعش دندولوا وقال : كلا ، فإني لم أخبره بعد وقد أرجأت ذلك إلى أن يتيسر لي القبض على رولاند .

- حسناً تفعل ، والآن فهل أعددت المعدات لهذه الليلة ؟

- دون شك !

- إذن أتأذن لي أن أساعدك في القبض عليه ؟

- إنك ستكون لنا خير معين .

- في أي ساعة يكون في المنزل ؟

- في الساعة التاسعة .

فودع ألتباري عند ذلك عمته وخرج وهو يقول في نفسه : لا شك أنني آتيت قبل قوات الأوان .

*

بينما كانت هذه الحادثة تجري في قصر دندولوا كانت حادثة أخرى تجري في قصر ألتباري وذلك أنه حين أخرج أمباريا من ذلك الباب السري كي لا يراها أحد ، مشت في رواق مظلم انتهت منه إلى سلم قليل الدرجات يؤدي إلى باب صغير يخرجون منه إلى الشاطئ .

فلما نزلت الدرجة الأولى شعرت أن يبدأ قد وضعت على كتفها فالتفتت قرأت امرأة مقنّعة الوجه . . . أما هذه المرأة فقد قالت لها بصوت خافت : تعالي ا افترددت أمباريا هنيئة ونظرت إلى ما حولها نظرة ريب ، ولكن تلك المرأة كانت قد قبضت على ذراعها وسارت بها إلى غرفة معتزلة .

وهناك أزاحت البرقع عن وجهها فدهشت أمباريا وصاحت قائلة :

- ليونور ؟

نعم إنها كانت ليونور . وتفصيل أمرها أنها نهضت في صباح ذلك اليوم مبكرة وانصرفت إلى أشغال المنزل الداخلية حسب عاداتها في كل يوم . وإنما كانت تعمل هذه الأعمال على كثرة الخدم في قصرها كي تشغل أفكارها وتتمزى بالعمل عما هي فيه ، فإن

العمل أعظم دواء للأحزان . وكذلك كانت تعالج نفسها به من حب رولاند حتى إذا استفحل داؤها وعجز هذا الدواء عن تسكين جأشها ذهبت إلى منزل أبيها في جزيرة أوليفو وجلست تحت تلك الأرزة التي تعاهدت عندها مع رولاند على الحب مدى الحياة بتلك القبة الأولى عند انتصاف الليل ، أي في ساعة الفراق .

ففي صباح ذلك اليوم بينما كانت تشتغل حسب عاداتها شعرت بضيق عظيم في صدرها فذهبت إلى نافذة تشرف على الطريق وفتحتها ووقفت فيها تمنع الطرف بمناظر البحيرات وتموج أشعة الشمس الذهبية عليها . وفيها هي على ذلك رأته قارباً وقف عند باب القصر ورأت امرأة صعدت منه فعمرت أنها أمباريا علة نكبتها وسبب حزنها الدائم فوضعت يدها على قلبها لاضطرابه كأنها خشيت أن يثب من صدرها واصفر وجهها حتى باتت كالأموات .

ولكنها تغلبت على نفسها وأسرعت إلى غرفة ملاصقة لغرفة أشغال ألتيارى فدخلت إليها وهي لم تدخل إليها من قبل ، فسمعت صوت امرأة تقول إن رولاند في فينيسيا .

فصاحت صيحة تشبه الأنين وانقلبت لغورها منغمياً عليها . فلما عادت إلى رشدها كان الحديث قد انتهى بين أمباريا وألتيارى ولكنها سمعت صوت فتح الباب فأيقنت أن أمباريا تحاول الانصراف وأسرعت وهي شبه المجانين فوضعت برقعاً كثيفاً على وجهها وأدركت المحظية .

والآن فإن المرأتين جالستان وجهاً لوجه وهما لم تلتقيا منذ تلك الليلة الهائلة ، ليلة قبضوا على رولاند منذ سبعة أعوام .

وكانت كل منهما تنظر إلى الأخرى نظرات هائلة كأنها كانت تتمتع تلك النظرات التي تبادلناها أمام قضاة رولاند في مجلس العشرة . وقد لزمنا الصمت إلى أن فتحت أمباريا الحديث فقالت : ماذا تريد مني يا سيدي ؟ قالت : أريد أن أقف منك على الحقيقة بيمينها .

— أية حقيقة تعنين ؟

— كل ما تعرفينه عن رولاند . قالوا لي إن الحكومة عفت عنه ليهرب من فينيسيا ثم مات ، ولكن كل ذلك كان كذباً وهتاناً ، أريد الحقيقة فتكلمي .

— وإذا لم أتكلم ؟

— تموتين .

فضحكت أمباريا ضحك المتهكم . أما ليونور فانها استلت مدية وقالت لها : أقسم بحبي أنك إذا لم تقولي الحقيقة بيمينها أعمدت هذه المدية في صدرك .

فنظرت أمباريا إلى ما حوالبها فرأت أن الغرفة لا نوافذ فيها . وكانت أمباريا قوية كبيرة الجسم متينة الأعضاء ، أما ليونور فقد كانت نحيفة الجسم مشوقة القامة عصبية المزاج فكانت الأولى تمثل الجمال الروماني والثانية الجمال الفيئسي .

فلما سمعت أمباريا هذا الوعيد ألفت وشاحها عن كتفها

وأسرعت إلى فكّ أزرار ثوبها فأخرجت خنجرأ من صدرها
وقالت :

- لا أعلم كيف خطر لك أن من كانت مثلي تأتي إلى منزل
التياري دون سلاح . فالبني في مكانك أو أقتلك دون إشفاق.
فكان جواب ليونور على إنذارها انها ذهبت إلى الباب فأحكت
إقفاله وعادت إليها فوقفت أمامها وجعلت كلّ منها تنظر إلى
الأخرى نظرة المبارز إلى خصمه قبل القتال ، وكل منها موقنة
انها لا تخرج من هذه الغرفة إلا قاتلة أو مقتولة .

وعند ذلك هزت أمباريا الخنجر بيدها وهجمت على ليونور
ولكنها قبل أن تبلغ إليها بخنجرها صاحت صيحة ألم فان
ليونور قبضت على يدها بعنف عظيم حتى كادت تسحقها . وسقط
الخنجر من يدها فتراجعت منذرة وليونور قابضة على يدها
مشهرة خنجرها عليها حتى التصقت بالجدار وسقطت جاثية على
ركبتها . وعند ذلك وضعت ليونور خنجرها على عنق أمباريا
ووخزتها به فسالت نقطة دم فوق ذلك العنق الأبيض تشبه
ياقوتة على مرآة . وقد هاج غضب ليونور وزادها الحقد قوة على
قوة فألقت أمباريا على الأرض وقد هت قواها من الرعب
وركمت فوق صدرها وهي قابضة على عنقها باحدى يديها
وخنجرها باليد الأخرى .

فصاحت المحظية تلتمس العفو ، وقد تمثل لها الموت في
نظرات ليونور . فأجابتها ليونور قائلة : أتولين الحقيقة ،
قالت : نعم .

فرجعت ليونور بالخنجر عن عنقها ولكنها لبثت راكمة على
صدرها وقالت لها : إذن قولي .

- ماذا تريد أن تعرفي ؟

- أين رولاند ؟

- في فينيسيا ... وهو متكرر باسم ... جان دي لورنزو .

- منذ متى ؟

- منذ فراره دون شك .

- من أين هرب ؟

- من آبار فينيسيا .

- أكان سجيناً في تلك الآبار ؟

- نعم !

- منذ متى ؟

- منذ قبضوا عليه ليلة خطبته .

- ومتى هرب ؟

- منذ ستة أشهر .

- وأنت ، ماذا أتيت تملين هنا ؟

- لأخبر ألتياري !

- ومن أخبرت أيضاً ؟

- دندولو !

- أي ؟ حسناً ، فعلى ما عزمنا ؟

- على أن يقبضوا عليه .

- متى ؟

- في أقرب حين .

- أهذا كل ما تعلمينه ؟

- نعم هذا كل شيء !

تمت ليونور يدها إلى ستارة فانتزعتها من الجدار وقطعتها
بخنجرها وهي لا تزال راكعة فوق صدر المحطبة التي كادت تجن
من رعبها ثم ربطت يديها ورجليها ووضعت كمامة في فمها وأقفلت
باب الغرفة عليها ثم أخذت مفتاحها وانصرفت إلى الغرفة التي
يضعون فيها المشروبات الروحية فأخذت زجاجة فيها أقوى
المشروبات وجرعت منها جرعة كبرى فعاد الاحمرار إلى خديها
وسكن اضطرابها .

وعند ذلك لبست ملابسها وخرجت من القصر .

نصف الليل

*

فلندع الآن ليونور سائرة لتنفيذ قصدها السري ولنعد إلى
غرفة دندولو فإن رئيس ديوان التفيتش بعد أن خرج ألتيارى
من عنده مرت به ساعة هائلة تراحت فيها الأفكار في غيئته
فخطر له أن ينتحر، وخطر له أيضاً أن يقتل ابنته التي يعبدها.

ولكنه طرد هذا الفكر من غيئته وعاوده فكر الانتحار . ثم
خطر له خاطر آخر اطمأن له وأعاد إليه سكينته .

ذلك أنه قال : لست أنا وليست ابنتي من يجب أن يموت ،
بل رولاند . ويجب أن يكون هذا الموت سريعاً فإن ذلك خير
من القبض عليه .

وعند ذلك خطر له اسم ساندريجو فنهض إلى النافذة المشرفة
على الشاطئ، ونظر منها قرأى بحساراً جالساً إلى القارب وهو
ينظر إلى القصر . فأشار إشارة فأسرع البحار بالتهوض ودنا من
النافذة . فأطل دندولو منها وذكر اسم ساندريجو . فأشار البحار
إشارة تدل على أنه فهم وابتعد مسرعاً وبعد نصف ساعة كان
ساندريجو مائلاً بحضرة دندولو فقال له دندولو : أرايت كيف
أني وفيت بوعدى ؟ فارتعش اللص وقال له : هل وقفت على أثر
رولاند ؟

قال : نعم .

فهرقت عيناً اللص وقال : متى تريد القبض عليه ؟

- هذه الليلة، فاحضر إلى جزيرة أوليفو في الساعة العاشرة .

- في أية جهة ؟

- قرب الكنيسة .

- حسناً ، فسأنتظر هناك في الساعة العاشرة .

- وأنا أمر بك في تلك الساعة فتذهب معي .

- لا تنس يا سيدي ما وعدتني به .

- أي وعد ؟

— أن أتولى أنا إدارة القبض عليه .

— سأفي بوعدي .

— إذن لقد بقي علينا سكالابرينو وسننظر في أمره . والآن إلى اللقاء يا سيدي في الساعة العاشرة .

ثم تركه وانصرف فأوصله دندولو إلى باب الغرفة وهناك وضع يده على كتفه وقال له : أرجو أن لا تتجاوز الحد . قال : ماذا تعني بذلك ؟ قال : أعني أننا نحتاج إلى القبض على رولاند وهو في قيد الحياة وأخاف أن يدفع بك الحقد إلى قتله .

فظهرت علامات التردد على ساندريجو ولم يجب فقال له دندولو : أسمع ما قلت لك ؟ فأقسم أنك لا تتجاوز حدود حقدك .

فارتعش ساندريجو لهذا الطلب الغريب ووقف الاثنان وكل منهما ينظر إلى الآخر دون أن يتكلم إلى أن أدار اللص وجهه وقال : حسناً ، فسأفعل . ثم هروا مسرعاً . فعاد دندولو إلى غرفته وهو يقول : إن رولاند سيموت الليلة لا محالة .

*

أما رولاند فإنه حين خرج من عند أمباريا ذهب توجاً إلى الشاعر آرbitان فاستقبله الشاعر باحتفاء وقال له : إني كنت أنتظرك وقد نقدتني الصبر . قال : لقد كنت في سراي الدوج أليس كذلك ؟

— نعم ، فقد ذهبت إليه مع بيبو ، وعجيب كيف أتى لم أره بعد ذلك ؟

— إذن أخبرني بما فعلت هناك .

فأطرق الشاعر مفكراً وجعل يوازن بين ما يرجوه من الدوج وبين ما يتوقعه من رولاند فقال : لم أفعل شيئاً يذكر . فقال رولاند : ولكنني كنت أعتقد أنه حدث بينكما أمور خطيرة ، فما هذا الخطأ الذي صدر مني ؟

— أعلمت أي قايبلت الدوج ؟

— ألم أقل لك ؟

— أنت تعلم كل شيء . فما أنت إلا من السحرة !

— كلا ، ولكنك ستعرف كيف عرفت ذلك ، فقد سألتني

منذ هنيهة ماذا حدث لصديقك العزيز بيبو ؟

— نعم ، وقد ذكرت الآن أنك تريد أن تتناول الطعام معه

عندي .

— لم يبق حاجة إلى ذلك فقد دعوت بيبو إلى أن يقيم عندي

بضعة أيام في قصر جميل في ضواحي فينيسيا ، فهو الآن عندي

وهو الذي أخبرني أنك قد قايبلت الدوج .

فذهل الشاعر وقال : أهو بيبو الذي أخبرك بهذا ؟

فأبتم رولاند وأوماً برأسه إيماء إيجاب . فقال آرbitان :

إذن لا بد أن يكون قد أخبرك بكل ما حدث فلماذا تسألني ؟

فانقطع رولاند عن الابتسام ومشى إلى آرbitان فوضع يده

على كتفه وقال له : يظهر يا مسيو آرbitان أنك نسيت ما اتفقنا

عليه ؟

فانظر آرbitان إلى رولاند وقد راعته نظراته دون شك إذ

قال له : إني مستعد لإخبارك بكل ما تريد أن تعلمه .
فعاد رولاند إلى مجلسه وقال : لنبدأ حديثنا من أوله ، فقد
قلت لي إن يمو سارك إلى الدوج فأحسن استقبالك ؟
- هو ذاك ، وقد شرفني بثقته وأطلعني على أفكاره وعيوني
سفيراً .

- أهنئك بهذه السفارة . فإلى من يريد إرسالك ؟

- إلى جان مديسيس .

- الشيطان الأكبر ؟

- هو بعينه ، وقد عهد إليّ أن أقترح عليه اقتراحات

أقسمت على المبالغة بكتابتها .

- إنك تستطيع كتابتها عن جميع الناس دوني .

فاصفر وجه آرستان وقال : سلمي يا سيدي كل ما تريده ما

عدا الإباحة بهذا السر .

- أسألك كل ما أريد ؟

- نعم ، ما خلا هذا السر فإني لا أستطيع خيانتك .

- إذن أسألك حياتك !

فارتجف آرستان وقال : حياتي ؟

- نعم حياتك ! فإني أنقذتك من اللصوص وحرمتهم من

ثروة طائلة وقد ندمت أشد الندم لإسماقي لأولئك التعساء ، فما

بقي عليّ إلا أن أقيد يديك وأضع الكمامة في فمك وأذهب بك

إلى المكان الذي أنقذتك منه فأردك إلى أولئك اللصوص الذين

سرقتك منهم .

- سرقتي منهم ؟

فوقف رولاند وقال : نعم ، ألا تعدّ ذلك سرقة ؟ إلى اللقاء

يا مسيو آرستان ، فتجلد والتمس معونة الدوج عند الافتضاء لأني

سأخطفك قبل المساء وغداً أردك إلى اللصوص في مغاور بيافا .

وقد مشى رولاند ثلاث خطوات فهلج قلب آرستان وقال له :

قف أيها الرئيس .

- لماذا ؟ أعزمت على الإباحة ؟

- إني أبوح لك بكل شيء .

- إذن قل لي كم ترجو أن تقبض من الدوج .

- خمسة آلاف ريال ، قبضت نصفها .

- حسناً ففي هذا المساء أرسل إليك خمسة آلاف ريال فوق

ما تقبضه من الدوج .

فتلثم لسان آرستان ولم يدر كيف يشكره . فقال رولاند :

والآن تكلم واحذر أن تفعل مرة أخرى ما فعلته هذه المرة

فإني لا أستطيع الصبر عليك كما صبرت اليوم وقد عقدنا اتفاقاً

فوفيت بمهدي ووجب عليك أن تقي بمهدك . واعلم أن حياتك

منذ خمس دقائق كانت معلقة بخيط أوهى من خيط العنكبوت .

قال : إني سأخبرك بكل شيء .

- قل ، فإني مصغّر إليك .

فروى له آرستان عند ذلك جميع ما دار بينه وبين الدوج

حتى إذا أتم حديثه قال في نفسه : إني أخبرت هذا الرجل وأنا

لا أعرفه بسر عظيم لا أدري ما تكون فأنثته منه ، ولكنه

أنقذ حياتي ، وهو الآن يهني خمسة آلاف ريال وقد رأيت في جميع أعماله وأفكاره أشرف من الدوج ، وقد رضيت به صديقاً... أنا الذي أهزّ بقلبي عروش الملوك . ثم قال له بصوت مرتفع : بماذا تأمر يا سيدي ؟ أيجب أن أقضي مهمة الدوج ؟ فابتسم رولاند وقال : لقد أخطأ فوسكاري ، فإن فينيسيا يجب أن تبقى فينيسيا وهي مدينة الماء ومجدها من الماء فيجب أن تلتفت إلى جهة البحر لا إلى البر ! ثم أطرق هنيهة وقال : إن هذه المهمة التي عهد إليك الدوج قضاءها سأؤتولها عنك وأذهب أنا إلى جان مديس ، وفي خلال ذلك تختبئ في منزلك إلى أن أعود فأخبرك بحوالب الشيطان الأكبر إلى فوسكاري . فقال آريتان : سيكون لك ما تريد . فانصرف رولاند عند ذلك وهو واثق من أمانة آريتان . وذهب إلى ذلك المنزل الحفيري الذي كانت تسكنه جواتا وماتت أمه فيه ، وكان جائعاً فأكل قطعة من الخبز الذي كانت تأكله أمه ، وشرب من قده الماء الذي كانت تشرب فيه أمه . ثم افترق بقرب موعد ذهابه إلى جزيرة أوليفو فوضع عشرة آلاف ريال ثمن البيت في كيس وأقام ينتظر حلول الموعد وهو يناجي نفسه فيقول : لقد عاقبت ببؤ وانتمت من أمباريا وسيعلم فوسكاري وألتباري وندندولو أية صاعقة سوف تنقض عليهم !! ولكن هي ...! أواه يا ليونور ! إن أشد ما ألقاه من العذاب هو منك فإنك أشد أولئك الأعداء إساءة إليّ لأنني اتعمنتك على قلبي وعلى حياتي .

وعند ذلك حاول أن يبعدها عن فكره ، فإنه كان كلما افترق بها يتولاه ضعف شديد ، ولكنه لم يستطع . وشعر أن حبها لا يزال مكيناً في قلبه وأن الحيانة لم تؤثر على ذلك الحب لا سيما حين كان يفترق أنه ذاهب إلى منزلها القديم الذي تلقن فيه آيات حبها فإن قلبه كان يخفق خفوق أجنحة الطائر . وما زال على ذلك إلى أن هجم الليل فالتفت بردائه وحمل كيس النقود وسار إلى جزيرة أوليفو فمشى توأ إلى البيت فلقي فيه الخادم الشيخ ينتظره في قاعة الطعام . فأعطاه الخادم العقد وسله المفاتيح وقبض الثمن وعرض عليه أن يطوف معه الغرف . فقال له رولاند : لا حاجة إلى ذلك فاستفقدته وحدي . وإني أحب هذه الليلة أن أبقى وحدي في المنزل فاذهب إلى حيث شئت وعد إليّ في الغد . قال : أشكرك يا سيدي وسأقضي هذه الليلة في قصر دندولو . ثم المحنى أمامه بمسلة الاحترام وانصرف . فذهب رولاند في أثره إلى باب الحديقة وأقفله وعاد ببطء إلى المنزل فأطفأ أنواره وجعل يتنقل فيه من غرفة إلى غرفة حتى انتهى إلى غرفة ليونور فوقف عند بابها وقفة الحاشع ثم وضع المفتاح في قفلها ، ولكنه ما لبث أن أخرجه وهو يرتعد فإنه لم يكن دخل مرة إلى غرفة الفتاة حين كان خطيبها . وقد رأى أنه لا يجسر أن يرى ذلك الأثاث الذي كانت تراه ليونور ولا أن يمسه تلك الأمتعة التي كانت تمسها فاضطرب اضطراباً عظيماً وعاد إلى الحديقة فسار دون قصد إلى تلك

الأرزة الكبرى فقال : هنا كنت سعيداً .

والغريب أنه نسي في ذلك الموقف جميع ما مر به من أيام السجن والشقاء كأنها لم تكن ، وخيّل له أنه كان تحت تلك الأرزة بالأمس مع ليونور ، وأنه جاء اليوم حسب عادته لزيارة خطيبته .

ولكنه ما لبث أن ذكر الحقيقة فلم يطق احتمال تلك الذكرى وهرب وهو يشق بالبكاء .

وعلى ذلك فإن هذا البيت الذي اشتراه لتنفيذ مقاصد حقه وانتقامه لم يحد فيه غير الحب الذي يقتل مثل هذه المقاصد ، فجعل يهرب من شجرة إلى شجرة في تلك الحديقة كما يهرب الطير من سهام الصياد حتى انتهى إلى آخر الحديقة على رجاء أن يتسلق سورها ويعود من حيث أتى .

وقد تسلق السور وبلغ إلى أعلى الجدار وهمّ أن يشب من فوقه ... غير أنه توقف فجأة إذ رأى رجالاً محتبئين تخفيهم ظلمات الليل عن العيون .

وقد أيقن أنهم جنود كامنوت هناك للقبض على رجل فمن عسى أن يكون هذا الرجل ؟ وحاول عدة أولئك الجنود فرأى أنهم كثيرون وأنهم يمتدّون إلى آخر الحديقة كأنهم يطوقون سورها . فنزل عن السور وذهب إلى جهة ثانية من الحديقة وتسلق جدارها فرأى هناك كثيراً من الجنود أيضاً ، فأيقن أن الحديقة مطوّقة وعلم عند ذلك أن الذي يريدون القبض عليه إنما هو رولاند !

فعدت إليه سكينته ولم يقتكر إلا بطريقة تمكّنه من الفرار . وعند ذلك مشى ببطء إلى الأرزة الكبرى دون قصد ، ولكن الحب الذي كان متغلباً عليه في تلك الساعة دفعه إلى تلك الأرزة كأنما خطر له أن يموت تحت تلك الشجرة التي عندها نعيم الحياة . وربما خطر له أيضاً أنه إذا هوجم في ذلك المنزل فخير له أن يكون في حديقة لاتساع المجال .

بينما كان رولاند يسير إلى الأرزة سمع وقع خطوات من ورائه فالتفت فرأى رجلاً قد سقط من فوق الجدار وتقدم في الحديقة ، ثم رأى غيره فعل فعله ، ثم رأى ثالثاً ثم رأى كثيرين غيره قد هبطوا من فوق الجدار وانسلوا في تلك الحديقة كما تنسل الأفاعي وتواروا فيها . فقَالَ في نفسه : ترى ، من الذي وشى بي وأرشدني إليّ ؟

وعند ذلك ابتسم وخطرت له أمباريا . وكان قد بلغ الأرزة ورأى أولئك الجنود الذين كانوا قد تواروا عن أنظاره قد عادوا إلى الظهور وجعلوا يبحثون في تلك الحديقة كما تبحث الكلاب عن الطريدة ، فأيقن أنهم سيصلون إليه قريباً وجرّد خنجره عازماً على أن يموت تحت تلك الأرزة . وقد انقبضت نفسه لاجزعاً من الموت بل لأنه سيموت قبل أن يدرك مرامه من الانتقام .

وفي تلك الساعة الرهيبة التي كان يودع فيها الحياة ظهر الحب في قلبه بأشدّ مظاهره فتمثلت له ليونور وذكر اسمها كأنه يكلمها !

وعند ذلك دقت الساعة مؤذنة بانتصاف الليل حتى إذا
دقت آخر دقائقها قال بصوت المختصر :

— ليونور ... ليونور !

فأجاب صوت خافت حنون قائلاً :

— رولاند هو ذا أنا !

فلبت رولاند في موقفه وقد جحظت عيناه وجد الدم في
عروقه وجعل العرق ينصب من جبينه وهو يرتجف فخيّل له أنه
يحمل ونسي كل ماضيه بل نسي تلك الآبار التي أقام فيها ستة
أعوام ونسي أعداءه وانتقامه فلم يذكر غير تلك الحبيبة ولم
يسمع غير قولها الذي قالته له بالأمس وهو : « لقد انتصف الليل
أهـا الحبيب فلنفترق ! » وأنها ستأخذ بيده وتشيعه إلى باب
الحديقة ...

وقد ارتعد وشعر كأنما صوابه قد ضلّ ، فإنه رأى ليونور
لابسة نفس الملابس التي كانت تلبسها حين كانت خطيبته وعلى
كتفها إشارة من الحرير الأبيض كان قد أهداها إليها ، وهي
جميلة كما كان يمهدها ... غير أنها لم تكن تبسم ذلك الابتسام
الذي كان يسحره .

نعم إنه رأى ليونور كما رآها أمس وأخذ بيدها بل أخذت
بيده وسارت به لأنه أصبح من غير قوى .

ولم يكن يرى إلى أين تسير به إذ لم يكن يرى سواها ولا
يفتكر إلا بها ولا يشعر إلا بيدها تتصل بيده فتمده بالحياة .

ويعد هنيهة وجد نفسه في ذلك المنزل عند باب تلك الغرفة

التي لم يحسر على أن يفتحها ، أي غرفة خطيبته .

كان الظلام حالكماً ، غير أنه كان يراها كما يراها في رابعة
النهار وقد رآها فتحت ذلك الباب وأشارت إليه بالدخول
فدخل وأقفل الباب ... واختفت ليونور !

— وعند ذلك سقط على ركبتيه وبسط ذراعيه وجعل يشق
بالبكاء .

وفي ذلك الوقت علت الأصوات في الحديقة وأضاءت ليونور
مصباحاً ومشت به إلى تلك الأصوات وهي آمنة مطمئنة !

هي وهو

*

بعد أن قيّدت ليونور أمباريا وسجنتها في الغرفة كما تقدم ،
خرجت من قصر ألتباري وهي لا تعلم غير ما علمته من المحظية ،
وهو أن رولاند في فينيسيا وأنه متنكر باسم جان دي لورنزو
وأن أباه وزوجها عارفان بذلك .

وقد سارت توأ إلى قصر أبيها ولكنها حين وصلت إلى الباب
وقفت مضطربة كأنها أنفت أن تلتقي برئيس مجلس التفتيش ،

أي أبيها الذي كان منهم كما دون شك في تلك الساعة بالقبض على رولاند .

وكانت مبرقة مبرقة كيف كي لا يعرفها من يراها فجلست على مقعد هناك معدة لجاوس من ينتظرون صدور الإذن لهم بمقابلة الرئيس .

ولم تكن ليونور قد وضعت خطة ظاهرة ، فإن أفكارها كانت مضطربة بالفرح وبالرعب . أما الفرحة فلأنها وثقت الآن أن رولاند لم يجرها وأن الأعوام الطويلة التي أبعد عنها فيها كان يقم في خلالها سجيناً في الآبار ، وأنه أخيراً لم يميت بل هو في قيد الحياة . وأما رعبها فلأنها كانت عالمة بأنهم سيقبضون عليه .

وقد تمثل لها في تلك الساعة ما كان يعانیه خطيبها المنكود في سجنه مدة ستة أعوام ، قطردت هذا التصور من مخيلتها لأنه يحول دون التفكير في طريقة إنقاذه . وحصرت أفكارها في البحث عن وسيلة هذا الإنقاذ .

نعم ، إنها كانت تريد إنقاذه وهي لا رجاء لها به بعد أن أصبحت زوجة أليباري . ولكنها كانت عازمة بعد الفوز بإنقاذه على أن تلتقم من أبيها الذي خدعها ومن زوجها الذي كذب عليها انتقاماً هائلاً دون إشفاق فقتلها ثم تقتل نفسها .

غير أنها كانت تقول في نفسها كيف يحق لي أن أنتقم للخيانة ؟ ألم أخنه أنا أيضاً ؟ أما كان يجب عليّ أن أقاوم إلى النهاية ولا أرضى بالتياربي زوجاً ولو انتقم من أبي ؟ وفيها هي تفتكر بذلك رأت فيليب الشيخ خارجاً من القصر

فلم تستغرب وجوده في قصر أبيها ولكنها كانت شديدة الاضطراب لا تجد من تعتمد عليه فأرادت الاعتماد عليه وتبعته حتى وصلت إلى منزل أبيها في جزيرة أوليفو . فلما رآها الخادم الشيخ صاح صيحة فرح ودخل معها إلى المنزل فقال لها : إني أنبئك يا سيدتي بنبا ساراً وهو أن المنزل لا ينقض بعد الآن كما كان يريد أبوك . قالت : لماذا ؟

— لأنه بيع .

— أباغ أبي المنزل ؟

— نعم يا سيدتي ، ولكن الذي اشتراه تعهد أن لا يغير شيئاً فيه بل قال أيضاً إنه لا يقيم فيه أكثر من أسبوعين .

— ما هذه الشروط الغريبة ؟

— لقد تمت يا سيدتي ، وهذه شروط البيع الذي أمضاها أبوك وميسلم الرجل المنزل في هذه الليلة .

وناولها العقد مفتوحاً فبدأت قراءته حتى ارتعشت وقالت : جان دي لورنزو ؟ غير أنها تمكنت من ضبط نفسها وهي تعلم أن هذا المشتري رولاند وأنه سيحضر بعد هنية فقلت له : أهو جان دي لورنزو الموقّع على هذا العقد الذي اشتري المنزل ؟ قال : نعم يا سيدتي .

— وأبي وقع عليه ؟

— نعم يا سيدتي ، فهل ما يبدو عليك من الاضطراب بسبب البيع ؟

— نعم ... نعم .

- إن سيدي دندولو قد وقع على عقد البيع ولكنني أعيد عليك ما قلته وهو أن المنزل لا يتغير فيه شيء وأن صاحبه لا يسكنه غير أسبوعين وأني سألبث حارسه كما كنت ، أي أنك تستطيعين أن تأتي إلي حين تشائين حسب العادة .

فأطرقت ليونور مفكرة وقد تشملت لها خيانة أبيها فعلت الآن كيف أنه لم يتأثر يوم قبضوا على رولاند وكيف أنه باعها ببيع السلع بالمنصب الذي هو فيه . فتألمت لهذه الخيانة ولكنها أبعدتها عن أفكارها إذ يجب عليها أن تنظر إلى الحاضر لا سيما وقد خطر لها أن يبيع هذا المنزل لم يكن إلا مكيدة للقبض على رولاند فنظرت إلى الخادم وقالت له : متى يحضر هذا المشتري؟

- في هذه الليلة .

- أية ساعة ؟

- في الساعة الثامنة .

- أعلم أبي بذلك ؟

- نعم يا سيدي .

- يا للهول ... يا للفظاعة !

ذلك أنها أبقت الآن أن يبيع المنزل كان فخاً منصوباً ، فلم يعد يخطر لها إلا أن تكون يميناً رولاند ، فإما تنقذه وإما تموت وإياه .

وقد عزمت عند ذلك عزمًا باتًا ظهر من إلتقاد عينيها ، فسالت الخادم أسئلة مختلفة ثم عادت إلى قصر زوجها . وهناك رأت من دلائل اهتمام القواد والجنود مما استلجت منه أن

ألتباري سيكون مع الذين يقبضون عليه . وفي الساعة الثامنة من المساء برحت القصر وعادت إلى جزيرة أوليفو فدخلت إلى المنزل من باب في الحديقة كان لديها مفتاحه ، ودخلت إلى غرفتها القديمة فيه دون أن يراها الخادم . وقد هاجت أحزانها في تلك الساعة وذكرت سابق هناها في ذلك البيت فارتأت أن تظهر لرولاندي بتلك الملابس التي كان يراها فيها أيام الخطبة . فلبست تلك الملابس ونزلت إلى الحديقة فسارت إلى تلك الأرزة الكبرى التي كانت ملتقى الحبيبين .

*

وفي الساعة الثامنة كان ألتباري ودندولو قد شرعا بالعمل فطوقا الحديقة بالجنود . وفي الساعة العاشرة وصل دندولو إلى الجزيرة يخفّره ألتباري الذي تولى بنفسه إدارة هذه المهمة . وقد التفت عند ذلك إلى دندولو وقال له : لماذا لا نقبض عليه في الحال؟ فأجابته دندولو قائلاً : إنني أعرف رولاند حق العرفان ، فهو لا بد له أن يبيت الليلة في هذا المنزل إحياءً لتذكاراته القديمة ، وفوق ذلك فإن المنزل مطوق فلننتظر الساعة الموافقة . فأطرق ألتباري هنيهة ثم قال : هل افتركت بما يجب أن نصنع به حين نقبض عليه؟ قال : إننا نحاكمه لتهمة الهرب والمؤامرة والعصيان وتسليح اللصوص وكل تهمة من هذه التهم كافية للحكم عليه بالإعدام . وعند ذلك رأى دندولو رجلاً قد دنا منه فقال : من هذا؟

ساندريجو؟ قال : نعم يا سيدي ، فقد رأيت كل ما فعله الجند ولم يبقَ مناص له منا .

وعند ذلك وضع يده على قبضة خنجره ورأى ألتباري يريق عينيه فسأل دندولو قائلاً : من هذا الرجل ؟ فأجابه قائلاً : ألم تقل لي إنك تخاف محاكمة رولاند وإنك تؤثر قتله حين القبض عليه ؟

— كلا ! إنني لم أقل لك شيئاً من ذلك .

— ولكنه خطر في بالك دون شك ، وهذا الرجل يكفيننا مؤونة المحاكمات .

فاطمأن ألتباري وتبادل مسح عمة نظرة رضى . ثم سار الاثنان يتفقدان الجنود فوجداهم في المراكز التي عينتها لهم . وسأل ألتباري دندولو قائلاً : كم لدينا من الجنود ؟ قال : مئتان . فضحك ألتباري ضحكاً عصبياً وقال : إن من رأانا يحسب أننا نريد الهجوم على قلعة محصنة . فقال ساندريجو وقد سمع الحديث : لقد كان يكفي أن أكون أنا وحدي . وعند ذلك قال دندولو : لقد انتصف الليل . وأشار إلى الجنود الإشارة المتفق عليها فاندفعوا جميعهم يتسلقون الأسوار ويشبون إلى الحديقة .

أما ألتباري ودندولو وساندريجو فقد دخلوا من أحد أبواب الحديقة ومشوا إلى المنزل حتى إذا أصبحوا على قيد عشرين خطوة منه ظهر لهم نور فجأة فاصفرت وجوههم وجردوا خناجرهم ثم اندفعوا إلى ذلك النور وصعدوا إلى المكان الذي كان ينبعث

منه فأروا ليونور تحمل بيدها مصباحاً وقد وقفت أمامهم وقوف الخيال وقالت : ادخلوا فلاني بانتظاركم .

فلبت دندولو في موقفه وقد وقف شعر رأسه وجد الدم في عروقه . وهاج ألتباري هياج الثور الضاري وقد قطعت الغيرة قلبه فصاح بها قائلاً : ماذا تعملين هنا ؟

فوضعت ليونور مصباحها على المائدة وأجابته زوجها بملء السكينة قائلة : سأجيبك على سؤالك ، ولكن ادخل في البده وادخل أنت يا أبي ولا حاجه إلى أن يعلم جميع جنود فينيسيا أسرارنا العائلية . فدخل دندولو وجلس على كرسي واهي القوى وهو يقول : ويلاه ! إنها عارفة بكل شيء !

أما ألتباري فإنه لبث واقفاً ينظر إلى ليونور وهو يكاد يفترسها بنظراته . غير أن ليونور لم تكترث لهذه النظرات وقالت بصوت مرتفع : إن الرجل الذي تبحثون عنه غير موجود هنا ، فاخرجوا من هذا المنزل الذي تدنسونه فهو منزل أبي .

فنظر رئيس البوليس إلى دندولو وقال له : أيجب أن نطيع يا مولاي ؟ فأجابه بصوت معتق قائلاً : نعم أطيعوا .

فخرج الجميع . وعند ذلك وقفت ليونور وقفة الملكات وأشارت إلى ألتباري أن يجلس فجلس وجلست وبينها دندولو . وعند ذلك التفتت إلى أبيها وقالت :

— إنني أبدأ بك يا سيدي لأنك تعلم أنني لم أعد بنتك ، وأنت تعلم أيضاً فيما أظن بأنني عرفت تلك الحقيقة الشائنة . نعم عرفت . فإنك بعتني بقلب ومن أجل منصب سحق قلبي ...

لا . لا تجب بشيء ودعني أتكلم .. نعم لقد عرفت أنه أقام
سنة أعوام في الآبار ، وأنتك ارتكبت أقيح آثام الكذب . إنه
كان هنا منذ هنيهة فأخبرته بعزمك على القبض عليه وسهلت له
سبيل الفرار !

نعم إنه نجح ولكن قضي عليّ أن أتعذب من أجلك ...
إذن فأعلم أنني لست بنتك ولا أريد أن تكلمني ولا أن تنظر
إلي . وفي مقابل ذلك أعفو عنك ، أي أنني لا أجمع نساء فينيسيا
وأفصحك أمامهن . أرضيت بهذا العفو ؟ أرضى أن لا تكلمني
ولا تراني ولا تكون أبي ؟ لا تتكلم فإن صوتك يؤلمني ، وإذا
كنت رضية فأوضح عن قبورك بخروجك من هنا .

وكان دندولو يسمعها وهو يحسب أن الأرض تغور به وقد
صبح وجهه بلون المحكوم عليهم بالإعدام فلم يستطع أن ينظر إلى
ابنته بعد أن علم منها أنها عرفت الحقيقة . ونهض فخرج من
الغرفة دون أن ينبس بكلمة ولكنه حين بات خارج الغرفة تنهد
تهدأ يشبه صوت الثور المذبوح .

وأما ألتباري فإنه نظر إلى امرأته بعد انصراف أيتها نظرة
دموية وقال لها : وأنا ؟ ماذا عسى أن تقولي لي ، أي لزوجك
وسيدك ؟

قالت : أقول إنك تحملني على الإشفاق عليك بهذا التبعث ،
فإنك منذ رأيتني هنا تلتمس قوة تمينك على قتلي فلا تجد لها .
والذي أقوله لك ، إنه إذا كان دندولو جباناً سافلاً فأنت أشد
جباناً وأحط نفساً . فقد خنت رجلاً كان يعدك من أخلص

إخوانه ... أنت الذي يخونه الآن أيضاً ! أنظر إلى ما حوالبك
واحذر .

غير أن ألتباري لم يسمع هذه الكلمات الأخيرة إذ لم يفكر
إلا بأمر واحد وهو أن ليونور رأت رولاند وأنها تقر بذلك .
ولم يكتوث لمّا قالته من أنها ساعدته على الفرار بل كلت مه
منصرفاً إلى ما دار بينهما من الحديث وأنه كان حديث غرام دون
شك ، فنهض والنار توهج في عينيه وخطا خطوتين إلى ليونور
فقال لها : إذن لقد رأيتك ؟
- لقد قلت لك ذلك .

- وليست هذه المرة وحدها دون شك ... قولي ... إنني
أريد أن أعلم هذه الحقيقة منك ولو صرعتني الغيرة أمام قدميك !
وبعد ، فإنك تتكلمين عن الحيانة فمن الذي خنته أنت ؟ أخنت
العاشق أم خنت الزوج ؟ فإنك كنت خطيبته وكان الخوف
لديك أشد من الحب ؟

فاضطربت ليونور لهذه الأقوال وقالت في نفسها بلهجة
القنوط : نعم هذا هو ذنبي فقد كنت خائنة مثلهم .

وعاد ألتباري إلى الحديث فقال : إنك تخلّست عنه في أشد
ساعات شقائه ولماذا ؟ لتضمني مستقبل أهلك وتحققي أطعاه .
وهذه هي خيانتك الأولى التي لا علاقة لي بها في شيء . وأما
خيانتك الثانية فهي أنك خنتني أنا وأنا الآن أناقشك الحساب
وذلك من حقّي ، فألقي التهمة إذا كنت تجسرين .
وقد ضغطت عند ذلك على قبضة خنجره فأبقت ليونور أن

ساعة موتها قد دنت وسرت بهذا الموت لأنها تجد به راحتها الكبرى ولكنها ذكرت لفورها أن رولاند محتبىء في غرفتها وأنهم قد يعثرون به وأنها تستطيع إنقاذه فرغبت في الحياة بضع ساعات إلى أن تأمن عليه ، وأجابت زوجها قائلة : إنك منخدع فأني لا أخاف قضاءك . فقال : ماذا تعنين ؟

أعني أنهم إذا لم يروني صباح غد ، يذهب صديق مخلص لي إلى فم الأسد ، أي إلى المكان المعد لوضع تقارير الوشايات ، فيضع فيه تقريراً يثبت فيه أن ألتيارى قائد جيش فينيسيا العام ياتمر مع ضباطه على الدوج ومجلس العشرة . والآن فاطعن صدري بخنجرك .

فسقط الخنجر من يد ألتيارى وتراجع منذعراً مصعوقاً . ثم وثب إلى الباب ونظر نظرة الفاحص إلى الحديقة فعلم أنه لم يسمعا أحد فعاد إليها وهو يرتجف ونظر إليها نظرة شفت عن رعبه ونسي في تلك الساعة حبه وغيرته وباتت ليونور غريبة لديه لا يرى فيها إلا امرأة واقفة على سره .

وأي سر هو ؟ فإنه يقوده إلى الشنق أو يصيبه بما أصيب به رولاند . ولذلك دنا منها وقال لها بلهجة المستعطف : كيف عرفت هذا السر ؟

قالت : ذلك لا يفيدك ، فأني واقفة على سرّك منذ عامين . فلم أكن أكثر له إذ لا فرق عندي بين أن تكون أنت حاكم فينيسيا أو فوسكاري . ولكنك إذا أنذرتني أنذرتك ، وإذا طالبتني بمحقوق لا أريد أن أعرفها دارت الدائرة عليك . والآن

فاسمع ما أريد أن أقول لك :

- إني ، حرصاً على شرف اسمي ، لا أريد أن أغيّر شيئاً من حياتنا الظاهرة ، ولكنك تراعي شرفنا القديم فلا أكون زوجتك إلا في أعين الناس ، وفي مقابل ذلك أنسى مؤامرتك . أوافقك هذا الشرط ؟

فأجابها بصوت محتقن قائلاً : نعم . قالت : إذن إنصرف من هنا كما انصرف أبي .

فتراجع ألتيارى وهو ينظر إلى هذه المرأة التي باتت حياته في يديها . ولما رأت ليونور أنها باتت وحدها تهتدت تهتداً طويلاً وشعرت أن قواها قد تلاشت . ولكنها علمت أن مهمتها لم تنته بعد فشددت نفسها وصعدت إلى غرفتها التي خبأت فيها رولاند ففتحتها وقالت له :

- رولاند ، إنك حرّ طليق ؟

فحدق بها رولاند فوجد أنها لم تتغيّر ما خلا أن علائم الهم كانت بادية عليها .

وكانت واقفة مطرقة الرأس تحمل المصباح بيدها فكانت تشبه التمثال . فهاجت الأفكار في مخيلة رولاند ونظر إلى هذه المرأة التي وقفت أمامه دون أن تتكلم ، تلك التي كان يعبدها وينتظر أن يسمع كلمة منها لينطرح على قدميها ، تلك التي تزوجت سواء وهو طريح في آبار السجن ، فكبرت عليه خيانتها واشتدت به اليأس فقال في نفسه : أية فائدة بقيت من الكلام ! وبعد ، فإذا أقول لها ، أؤنبها وألومها ؟ وأي لوم يفيد وهي

قد اشترت سعادتها بياسي الأبدى ؟ كلا ، إنني لا أقول لها كلمة فإن الكلام لا يفيد .

وعند ذلك المنحى أمامها ومرّ بها فقال : الوداع يا ليونور .

ثم مشى ببطء وتوغّلت في الحديقة إلى أن أخفاه الظلام .

أما ليونور فأنها سارت في أثره وقد كاد يقتلها الحزن وقد أضلّ اليأس رصدها فنسيت أن تطفئ المصباح وأن تقفل الأبواب وذهبت ترواً إلى قصر زوجها ففتحت الغرفة التي سجنت فيها أمباريا ففكت قيودها وقالت لها : إذهبي دون أن تزيديني حرفاً .

وكذلك أمباريا فأنها نظرت إليها نظرة ملؤها الوعيد وانصرفت دون أن تتكلم . وعند ذلك ذهبت ليونور إلى غرفتها

وقد وهنت قوامها ، فلم تستطع الوصول إلى سريرها وسقطت على

الأرض شبه مغمي عليها وهي تشق بالبكاء وتقول : يا وبع نفسي ، إنه لم يغفر لي ... إنه لا يجنبني ، غاية فائدة بقيت لي

من الحياة ؟

*

ولم يكن رولاند بأقل منها ياساً فإنه اختبأ في الحديقة إلى

أن رأى ليونور خارجة منها ، فحاول أن يخرج من مخبئه إليها ،

ولكنه توقف فجأة وقال في نفسه : أية فائدة من الكلام فاني لم

أقل لها شيئاً حين أنقذتني فلا أقول لها شيئاً الآن ، إذ أن كل شيء

قد انتهى بيننا منذ أخبرني حارس هذا المنزل أنها تزوجت .

نعم ، إنها ماتت في عرقي ولست أراها الآن ، بل أحلم أنني أراها .

وقد قام على ذلك نحو ساعة إلى أن تمثل له أعداؤه فهاج ثأثره

وخرج من تلك الحديقة ، حتى إذا وصل إلى بابها لمح ظلاً ينتصب

وسمع صوت رجل يقول له بلهجة مهددة : إلى اللقاء يا رولاند ،

وما لقاؤنا ببعيد !

فلم يكثرث رولاند لهذا الرجل الذي توارى عنه في الظلام

ولم يقتف أثره إذ لم يعد يبالي بأمر وهام على وجهه في تلك الليلة

كما هام يوم عرف بجيانة ليونور . ولبت على ذلك إلى الصباح

فذهب إلى المنزل الذي تقم فيه جونا وهناك لقي سكالا برينو

ينتظره فقال له : إن رجالنا قد حضروا يجملتهم وسيحضرون

الليلة إلى المنزل الذي عينته لهم في جزيرة أوليفو .

فقال له رولاند : لم يعد الاجتماع ممكناً في هذا المنزل لأنه

غير آمن وأظن أننا سنلتقي في المغارة السوداء . فنظر سكالا

برينو إليه نظرة انذهال وقال : والذي كان يجب أن تفعله ؟

— سنفعله بعد الآن ، فاذهب أيها الصديق وأخبر الرفاق أنني

بعد ثمانية أيام سأكون في المغارة السوداء . وأنت حرّ في

هذه المدة .

فقال له بصوت يضطرب : إذن أستطيع أن أذهب إلى قرية

ميستر فاقم فيها هذا الأسبوع ؟

— نعم إنك ستوصل أوامري إلى هناك ثم تذهب إلى تلك

القرية فترى بنتك .

— ما هي الأوامر يا سيدي ؟

— إنك ستذهب على سفيلتنا الكبرى بما ساكنه إليك من

الرسائل ، فانتظر قليلا .

ثم قام فكتب ست رسائل فدفعها إليه فقال له سكالا برينو :
إن هذه الرسائل ستصل إلى أصحابها بعد يومين . قال : هو ذاك ،
أي أنك بعد ثلاثة أيام ستكون سعيداً .

فهرقت عينا سكالا برينو بأشعة الفرح وأوصاه رولاند بما
يجب أن يفعله مع الزعماء . وبعد ساعتين ركب سكالا برينو
السفينة فبلغ بها الشاطئ ، ثم سافر من هناك إلى المغارة السوداء .

البيت القروي الصغير

*

إن ذلك الرجل الذي توعدّ رولاند حين خروجه من حديقة
منزل دندولو تواري مسرعاً في الظلام إلى جهة الميناء فذهب إلى
خمارة حقيرة مقفلة الأبواب لا يجتمع فيها غير اللصوص والمتشردن .
وهناك قرع بابها بشكل خاص ففتح له ودخل فمشى إلى
رجل كان جالساً على المائدة ولمس كتفه ، فالتفت الرجل وهو
بملايس البحارة وقال : ساندريجو ؟ قال : نعم ، لقد دنا الوقت .
قال البحار : حبذا ذاك فإني أنتظر هنا منذ ثلاث ليال . قال :
تعال معي .

وخرج الاثنان من الحمارة فقال ساندريجو للبحار : يجب أن
يحتازر في البحيرات بأقرب حين .

- كيف ذلك ؟ ألعنهم يطاردونك ؟

- كلا ، بل إني أصبحت قريباً من أرباب الثروة وستنال
حظك منها .

فظهرت علائم السرور على وجه التوتي ، وبعدد ربع ساعة
كان القارب يحتازر البحيرات ببلء السرعة .

*

عندما كانت الجنود تزحف من حديقة منزل الجزيرة إلى المنزل
للقبض على رولاند كان ساندريجو واقفاً بجانب دندولو وألتباري
وخنجره بيده فلو ظهر له رولاند في تلك الساعة لسطعته به
لا محالة .

فلما وصل الجنود إلى باب المنزل وفتح ذلك الباب فظهرت
منه ليونور دون رولاند ، دهش اللص دهشاً عظيماً وأيقن حين
رأى اضطراب دندولو وألتباري أنه ستجري أمور غير عادية ،
فتراجع مسرعاً واختبأ تحت شجرة بجانب الباب وجعل يصغي .
فسمع ليونور تأمر الجنود بالانصراف ببلء العظمة ورأى أن
رئيس ديوان التفتيش أصدر أمره إلى رئيس البوليس بالامتثال ،
فكاد ييخنّ من حقه وأيقن أن رولاند قد نجح .

ولكن ساندريجو لم ينصرف مع الجنود بل تقدم من النافذة
التي كانت مفتوحة وسمع كل ما دار من الحديث بين ليونور وبين

أبيها وزوجها . وكان يعتقد من قبل أن رولاند قد هرب ، ولكنه حين سمع كلام ليونور أيقن أنه لا يزال في المنزل وعزم على الكون له إلى أن يخرج فينقض عليه ويقتله .

على أنه انثنى عن هذا العزم حين رأى ليونور تفضح سرّ زوجها وحين علم أن ألتيارى يأنمر على الدوج فقال في نفسه : إن حياة رولاند تفيدني الآن أكثر مما يفيدني موته ، وسأقتله بعد أن أبلغ مرامي من ألتيارى وأنال ثروتي . وقد رأيناه كيف أنه توعّد رولاند حين خروجه من الحديقة دون أن يحاول قتله وذلك لأنه أراد أن يجعله باباً لخبراته مع ألتيارى .

*

هذا ما كان منه في تلك الحديقة ، وقد ركب السفينة مع النوتي كما تقدم فاجتازت به البحيرات مسرعة حتى بلغ الشاطئ عند طلوع الفجر فسار توّاً في طريق قرية ميستر ، أي إلى ذلك المنزل المعتزل الذي لقي فيه جوانا .

وبعد هنيهة عرف أن ضيوف المنزل لا يزالون فيه . فلما وثق من ذلك عاد إلى أحد الفنادق فاستأجر فيه جواداً وأوم صاحب الفندق أنه سائر في طريق تريفيز حتى إذا توارى عن الأنظار ربط الجواد إلى شجرة وعاد إلى القرية فكن على مسافة قريبة من منزل جوانا . وقد صبر إلى أن هجم الظلام فحس إلى ذلك المنزل . وكان والد رولاند قد نام وكذلك بيانكا ، فلم يبق ساهراً غير جوانا فكانت جالسة مطرقة تفكر ولعلها كانت تفكر في

غرامها الزائل . ولا تريد بغرامها ذلك الغرام السافل الذي اضطرت إليه مكرهة لإنقاذ أمّ رولاند من الجوع ، بل غرامها الصادق ، فإن قلبها قد يكون سرت إليه أشعة هذا الحب كما سرى .

ولبت مدة طويلة وهي مطرقة مفكرة إلى أن عزم على الرقاد وسارت إلى غرفتها فسمعت عند ذلك طرقة على الباب . فوفقت تصغي دون أن تخاف فإنها تعودت الأخطار فلم تعد تكترث لها ، وباطلما كبس الجنود بيتها للبحث عن سكالابرينو ورجاله كساندريجو وسواه .

ولكن رولاند كان قد أوصاها أن تبالح بالحرص وأن لا تفتح الباب لأحد إلا بإشارة خاصة لم يعرفها غير رولاند وسكالابرينو . فلما سمعت ذلك الطرق أسرعت إلى إطفاء المصباح ولبتت في موقفها وهي عازمة على أن لا تفتح فإن الطرق كان على الباب الداخلي فلا بد أن يكون هذا الطارق قد تسلق سور الحديقة وهو دون شك غير رولاند وسكالابرينو لأنه لم يترك الباب بالشكل السري المصطلح عليه بينهم .

وبيتاً هي تسمع الطرق سمعت أيضاً ذلك الطارق يناديها باسمها بصوت منخفض .

فارتعشت حين سمعت هذا الصوت واصفرّت وجهها . ربّاه... هذا هو !

وردد الصوت نداه قائلاً :

— جوانا ... إني عالم بأنك في المنزل ، وإنيهم يطاردوني

الآن أترضين أن يقبضوا عليّ؟

فأضاعت عند ذلك المصباح بيدى تضرطبان وذهبت إلى الغرفة التي ينام فيها والد رولاند وبيانتكا فأقفلت بابها ووضعت المفتاح في جيبها . وعادت إلى الباب فسمعت الطارق يقول :
إفتحني يا جوانا إذا لم يكن لعاطفة أخرى فمن قبيل الإشفاق ،
وأسرعي إلى تحبتي عندك قبل أن يدركني المطاردون ويفوت الأوان .

فأسرعت جوانا عند ذلك إلى الباب ففتحته وقالت : أهذا أنت يا ساندريجو ؟ قال : نعم أنا هذا ، ألم تعرفيني من صوتي ؟
ثم دخل وقال : لقد كنت أحسب أنك ستدعينني على الباب .
فدعرت جوانا لما رأته منه ، فإنه حين دخل جعل ينظر نظرة الباحث وهو مطمئن فقالت له : لقد كذبت فيما ادّعت ،
فإنهم لا يطاردونك ا فضحك وقال : لقد أصبت يا جوانا .

— إذن أخرج من هنا ... إذهب في الحال .

— سأذهب كما تريد فاطمئني .

— ماذا تريد ؟

— سوف تعلمين ماذا أريد ، ولكن لي هذا الجفاء ، فإني لم

أكن أخيفك من قبل ؟

فتنهدت جوانا تنهد ارتياح كأنها اطمأنت بعض الاطمئنان ،
فدنا ساندريجو عند ذلك منها وقال لها : أعلّلك نسيت يا جوانا
أني أحببتك من قبل وأنت أحببتني أيضاً وأنت لا تزالين تحببيني .
نعم إنك لا تزالين تحببيني فانقضي قولي إذا كنت تجسرين . وإذا

كنت تحببيني فكيف تستقبليني بهذا الجفاء ؟

فلكت جوانا روعها تباعاً واحمرّ وجهها لكلمات ساندريجو
الأخيرة فقالت له : نعم إنني أحببتك من قبل وكنت أرجو أن
أكون امرأتك وأن أكون معك من أسعد النساء .

— أرايتِ إذن ؟

— نعم ، ولكن ذلك لم يكن غير حلم يا ساندريجو وقد
حدثت حادثة قضت بفراقنا إلى الأبد .

— وما هذه الحادثة ؟ أعلّلك أحببت سواي ؟

— كلا يا ساندريجو ، فإن المرء لا يهب قلبه مرتين . وإني
مستعدة للموت في سبيلك الآن كما كنت من قبل .

وعند ذلك سألت دعمتان من عينيها وقالت له : إني أصبحت
غير جديرة بك ، فاذهب يا ساندريجو ولا تفتكر في بعد الآن .

— ما هذه الأقوال التي أسمعها منك ، فقد كنت أعرف من

قبل أنك غريبة الأخلاق وكنت تبالغين في كتمان حيك عني فلم
أعلم إلا من عينيك ، ولكنني أرى منك الآن غير ما كنت أراه

من قبل ، وقد عدت إليك كي أتزوج بك فما هذا الانقلاب ؟

فمضت جوانا يدها من اليأس وقالت : ذلك مستحيل ،
فاسكت واذهب فإنك تقطع قلبي .

فجلس ساندريجو باطمئنان وقال لها : إذا كنت لا تريد
أن نبعث في الغرام فلنبعث في سواه . فقولي الآن كيف اتفق
وجودك هنا بعد أن بحثت عنك ملياً في فينيسيا ، وقد عهدت

فقيرة فكيف تقيمين في هذا المنزل الذي تدل رياشه على البسطة
والثروة ؟

فسكتت جوانا وبدا عليها الاضطراب فقال لها : لقد فهمت
الآن معنى قولك إنك غير جديرة بي ، فإنك هنا مع عشيق .
فارتعشت جوانا وحاولت أن تحتج عليه وتقول له : كلا يا
ساندريجو ليس لي عشيق ولا أحب سواك ! ولكنها لم تستطع
أن تقول فان ما رآته من ابتسام ساندريجو ذكرها بذلك الشيخ
وتلك الفتاة التي أثنتها عليها رولاند وأبقت أنها في خطر
فقال لها ساندريجو بعد سكوتها : أجسري على إنكار ما أقول .
فأجابته عند ذلك بلهجة القانطين قائلة : نعم لي عشيق وإني
أقيم في منزله وهو غائب الآن ولكنه سيعود قريباً والويل لي
ولك إذا رأنا معاً .

*

في ليلة من ليالي الشتاء وفي المنزل الحقير الذي كانت تقيم فيه
جوانا مع سكالا برينو في فينيسيا ، كانت جوانا تهيء الطعام
لسكالا برينو بينما كان سكالا برينو يمسح غدارته وينظف أسلحته .
وقد قرع الباب عند ذلك بشكل اصطلاحي فقال سكالا برينو
إنه صديق من الرفاق .

ثم فتح الباب فظهر منه رجل فأدخله سكالا برينو وقال له :
ماذا حدث يا ساندريجو ؟ قال : لم يحدث شيء سوى أنهم
طاردونني فأقلت منهم وأتيت إلى هنا لألتجئ .

كان عمر جوانا في ذلك العهد ستة عشر عاماً وقد جرت هذه
الحادثة التي نقتصها الآن قبل الحوادث التي بدأنا قصتها بعام أي
قبل عام من تاريخ القبض على رولاند .

ويذكر القراء أن سكالا برينو كان زعيم ساندريجو وأن هذا
الاص كان يحقد على زعيمه حقداً هائلاً بسبب تلك الحادثة التي
جرت لها مع أمباريا في المغاور خلافاً لسكالا برينو فإنه لم يكن
حاقداً عليه بل كان يميل إليه ويفضله على الرفاق ولذلك قال
لجوانا حين دخوله : أكثرني الطعام يا جوانا فإنه يأكل معنا .
وقال لساندريجو : أدخل أيها الأخ !

وبعد أن أكل وشرب معها التفّ بردائه وثام وقد أنهكه
التعب . وثام سكالا برينو أيضاً فذهبت جوانا إلى الغرفة التي
كانت تنام فيها بعد أن نظرت نظرة أخيرة إلى ساندريجو
فكانت هذه المرة الأولى التي تسارقت فيها بالرقاد .

وقد أقام ساندريجو معها ثمانية أيام فكان يقضي الليل
بالمقامرة وقصّ أخبار حملاته فكانت جوانا تسمع أخباره وهي
تعجب ببسالته وإقدامه . وقبل سفره بيوم اتفق أن سكالا برينو
كان خارج المنزل فأقام ساندريجو معها وجعل يقص عليها غرائب
أخباره حسب عادته .

وقبها هو يتكلم قطع على نفسه الحديث وقال لها فجأة :
أتملين يا جوانا أنك بارعة الجمال ؟

فأطرقت جوانا برأسها إلى الأرض استحياءً واحمرّت وجهها
ثم اصفرّت حين أخذ ساندريجو يدها بين يديه وقال لها وهو

يبتسم : أتريدن أن تكوني امرأتي ؟ إنني أذهب بك إلى الجبال
هناك حيث تتشققن أريج الأزهار وتناجين الأطيار وتعيشين
أرخی عيش .

ف نظرت إليه عند ذلك وقد وضعت يدها على صدرها كأنها
خشيت شدة خفوق قلبها لفرحها وقالت : نعم إنني أريد أن
أكون امرأتك لأنني لا أجد لك نظيراً بين الرجال ، فذهب
وعند يكاهن بزواجنا أتبعك إلى حيث تريد . فحاول ساندريجو
أن يضم الفتاة إلى صدره فهربت منه وأسرعت إلى غرفتها
فدخلت إليها وأقفلتها .

وفي اليوم الثاني سافر ساندريجو وقد أثرت عليه جوانا
تأثيراً عظيماً بدليل أنه كان يتردد إلى المنزل كلما عاد من سفر ،
بجيت زاد تعلقه بها وزادت به افتتاناً وهي محافظة على نفسها
أشد المحافظة .

إلى أن حدثت الحوادث التي ذكرناها فاختفى ساندريجو بعد
أن قبض على سكالابرينو وربما انتهى به الأمر إلى سلوانها .
غير أن جوانا لم تنسه رغم تقادم الأيام ، وكانت دائماً تناجي
نفسها فتقول : إنه يجئني ولا بد أن يعود يوماً فيزوج بي .

هذه هي حكاية تلك الفتاة المنكودة فليتصور القارئ كم
لقيت من اليأس حين اضطرت مكرهة إلى الاتجار بجهاها لإنقاذ
أم رولاند من الموت جوعاً ولم كانت تضحيتهما عظيمة وهي
حافظة نفسها لمن تعتقد أنه خطيبها .

فلا لقيته بعد أعوام طويلة اضطرت أن تقول له : نعم ،

لي عشيق وإنني مقيمة في منزله !

*

أما ساندريجو فإنه لما سمعها تقول هذا القول وقف وظهرت
بين عينيه علائم الوعيد فقال : أنت تكذبين يا جوانا فليس لك
عشيق ، وأنت مقيمة هنا مع دوج فينيسيا السابق ومع ابنة
المهظية أمباريا .

فصاحت جوانا صيحة الرعب ونظرت إلى ما حوالها كأنها
تبحث عن سلاح تقتل به هذا الرجل الذي طالما أحبته . ولكن
ساندريجو أدرك قصدها فجز كتفه وقال لها بصوت أجش :
أصغي إلي يا جوانا ، إنه يوجد رجلان أهاناني إهانة لا أغتفرها
لها ، وسيكون انتقامي منها دون إشفاق . وإنك تعرفين هذين
الرجلين فلا حاجة إلى ذكر اسميهما .

والآن ، فإنني محتاج إلى أخذ الفتاة بيانكا التي عهد إليك
بجراستها وأنا لا أريد لها سوءاً ولكني أريد أن أرجعها إلى أمها
لأن ذلك يوافق مشروعاتي ، فهل أنت معي على أعدائي ؟ إذا
كان ذلك فتعالى معي فإنا نذهب إلى كاهن بزواجنا وتصبحين
امرأتي إلى الأبد .

ولقد قلت لي أنك غير جدية بي ، ولكنني أقهم ما تقولين
ولا أقهم إلا أنني أحبك وأنت تحبينني ، فتعالى معي إلى فينيسيا
حيث تقولين كل ما جرى هنا ثم نذهب إلى كاهن يعقد لنا عقد
الزواج ، فماذا تقولين ؟

قالت : أقول إن بيانكا لا تخرج من هنا ما زلت في قيد الحياة .

وقد قالت هذا القول بلهجة دلت على عزيمة راسخة رسوخ الجبال . فقال لها اللص : إذن أنت عليّ مع أعدائي ؟

- نعم !

- وتقولين إنك تحبينني ؟

- نعم !

- إذن لتلقى التبعة عليك فأنت أردت ذلك وأنت المسئبة إلى نفسك .

وعند ذلك انقضّ عليها انقضاض البازي على الحمامة فألقاها إلى الأرض وأوثق يديها ووضع كامة في قفها ثم جرد خنجره وحاول أن يقتلها ولكن الإشفاق منعه عن هذا القتل الذريع فأرجع يده وهو يقول في نفسه : أية فائدة لي من قتلها ، بل يسرنني أن تخبرهما بما قلت كي يعلما أنني عدو شديد ؟

وكان قد عثر وهو يقودها بفتاح الفرقة في جيبها فأخرجه منها وفتح به الغرفة المؤدية إلى غرفة بيانكا . وكان والد رولاند نائماً في تلك الغرفة فوقف حين رآه موقف المتردد في قتله ثم قال في نفسه : أية فائدة من قتله فهو أعمى مجنون فليمت ببطء .

وعند ذلك دنامته وجعل ينظر إليه ويبتسم ابتسام المتهم ويقول : إنه لا يستحق عناء القتل وصبح خنجري بدمائه .

وقد أيقظ الضجيج ونور الصباح ذلك الشيخ ففتح عينيه ونظر بها إلى جهة الضجيج وهما لا تريان ظهر منها بيان غريب

على انطفاء نورهما حتى أن ذلك اللص الجسور ارتعد خوفاً وخيل له أن هاتين العينين المظلمتين قد اتقدتا ببارق من الوعيد .

وقد تراجع منذعراً وأقبل الباب ثم هز كتفيه وقال : تبا لي أخاف من مجنون أعمى ؟

وعند ذلك مشى إلى غرفة أخرى ففتح بابها وأطل منه فقال وقد أبرقت عيناه ببارق من السرور : إنها هنا !

وكانت بيانكا ، نائمة في سريرها نوماً هادئاً كصغار الأطفال وهي تبتم ومعضمها الجميل خارج اللحاف وصدورها يرتفع ويهبط بأنفاسها بانتظام يدل على نومها الهادي . فوقف اللص يتمعن بوجهها الجميل وقد سال العرق على خديها الموردين فكان يشبه ندى الفجر فوق الورد .

فلم تستيقظ ، ولم يندفع اللص بسليقته الوحشية بل تغلبت حكمته على أمياله فوضع مصباحه على المائدة ودنا منها فمس كتفها برفق . وعند ذلك صحت الفتاة ولم تكدر ذلك الرجل حتى دعرت ذعراً لا يوصف وصاحت تستغيث وتنادي جوانا .

غير أن جوانا لم تستطع أن تحجبها بغير الأنين فإنها كانت مكومة القم . فغطت بيانكا معصمها وبلغ الذعر منها أشد مبلغ بحيث أن صوتها احتبس في قفها فلم تعد تستطيع الإستغاثة .

وأما سانديريجو فإنه ملك نفسه وتكلف هيئة تدل على الرفق والدعة فقال لها بلهجة حنون : إطمئني يا سيدتي ولا تجزعي فلا أريد لك سوءاً وأصغي إليّ دون رعب كي لا تفوتك كلمة من كلماتي فإن الوقت غير متسع لدينا وإني أقسم لك بالله العظيم أنني

لا أريد لك إلا الخير ، وفوق ذلك فلا فائدة من مناداة جوانا إذ ليست هنا ، أتريدن الآن أن تصغي إليّ؟

فأشارت برأسها إشارة إيجاب فاطمان اللص وقال لها : إذن فاعلمي أنني أت إليك من قبّل أمك .

— أمي ؟

— نعم ، أمك السنيورا أمباريا ، وهي التي أرسلتني . وإذا أردت برهاناً على صدق ما أقول أخبرتك بجميع ما اتفق لك فإنهم اختطفوك من منزل أمك بالرغم عنها وبالرغم عنك ، وإن أمك الآن في حالة شديدة من اليأس وقد لقيتني وعهدت إليّ أن أردك إليها . أتصدقيني ؟

فظهر لبيانكا أن هذا الكلام طبيعي معقول فقالت له : أتم حديثك . فقال ساندريجو في نفسه : لقد فزت عليها . ثم قال لها : إن أمك السنيورا أمباريا توصلت إليّ أن أبحث عنك فرضيت بذلك وتعهدت أن أردك إليها وقد توقفت إلى لقائك في هذا المنزل لأخلصك من مخالب مضطهدك .

لا تعترضني فلا فائدة من الاعتراض . والآن اسمعي ما أقوله لك : إنني سأخرج من هذه الغرفة الجاورة ربع ساعة كي تلبسي ثيابك وتأهبي للذهاب معي . فقالت : أتبعك ؟ كلا ! وماذا يثبت لي أنك قادم من قبّل أمي ؟ قال : أرجو أن تتبعيني طائفة برضاك فقد أتيت يقيناً من قبل أمك السنيورا أمباريا حتى أنها أمرتني أن أستعمل العنف إذا خطر لك أن تنسي تلك الأم التي لا تعرف منذ فراقك غير البكاء .

فتمتعت الفتاة قائلة : رياه ، ماذا أعمل ؟

فاتم اللص حديثه فقال : ولذلك أرجو أن أجدك متأهبة بعد ربع ساعة للرحيل معي بملء الرضى ، وأقسم لك أنك غداً تكونين آمنة في قصر السنيورا أمباريا . ومهما يكن من الأمر ، وسواء صحت عزيمتك على الرحيل أو على البقاء ، فإنني سأدخل إليك بعد ربع ساعة فإذا لم تصمي على الرحيل اضطررت إلى تقييدك وحملك بالعنف إلى أمك وسواء عندي في تلك الحالة إذا كنت لابسة ثيابك أو كنت كما أنت الآن .

وقد قال هذا القول ونظر مسرعاً نظرة الفاحص إلى هذه الغرفة فوجد أن نوافذها مشبكة بالحديد وأنه لا خوف من فرارها ، فالتحق عند ذلك أمامها وانصرف .

أما بيانكا فقد بلغ منها الخوف من هذا الرجل أشدّ مبلغ لا سيما حين قال لها إنه لا فرق عنده بين أن يجدها لابسة او عريانة ، فلم تجد بداً من لبس ملابسها بسرعة . ولكنها كانت موقنة أيضاً أن هذا الرجل يقول الحقيقة فإن جميع أقواله تنطبق على حوادث اختطافها فلم يبقَ لديها شك أن أمها ينست لفراقها وأنها عهدت إليه أن يعيدها كيفما اتفق .

ثم ظهر لها أن المقاومة أمر مستحيل وهي تعلم من نفسها أنها باسلة تستطيع الدفاع عن نفسها إذا ظهر لها سوء قصد هذا الرجل وعلت أنه من الكاذبين . ولذلك أخذت خنجرأ فخبأته بين ثيابها . ولما عاد ساندريجو بعد ربع ساعة وجدها قد أتمت لباسها فقال لها : هل أنت متأهبة يا سيدتي للرحيل معي ؟

فعاودها الرب عند ذلك حين رأته هذا الرجل واقفاً معها
في غرفة رقادها فصاحت صياح بأس تستغيث يحوانا . فقال لها
الوص : لقد قلت لك يا سيدتي إن جوانا ليست هنا فأسرعي إلى
إجابتي الآن وقولي هل أنت مستعدة للذهاب معي أم تؤخرين أن
أستعمل العنف وهو ما عمله بله الأسف ولكنني لا أتردد ؟
وكان يقول لها ذلك بسكينة وأدب ، فأطرقت الفتاة هنيهة
ثم التفتت إليه وقالت : هلم بنا يا سيدي فإني أتبعك . فتنهد
الوص تنهد ارتياح وقال :

— هلمي بنا يا سيدتي وشهد الله أنني ما كنت أتوقع أن أجد
مثل هذا العناء بإقناع فتاة على الذهاب إلى أمها القانطة لفرقتها .
— قالت : سر أسر معك .

فأخذ عند ذلك بيدها وخرج بها من ذلك المنزل فسار بها
مسرعاً إلى حيث ربط جواده فلم تكن ساعة حتى وصل بها إلى
شاطئ البحيرات ، وهناك لقي ذلك البحار الذي أوصله وأقام
ينتظره في السفينة . فقال له النوتي : لقد قتلتي صبراً وهذه آخر
مرة أنتظرك في مثل هذه المواقف ! فلم يجبه ساندريجو والتفت
إلى بيانكا كي يحملها إلى القارب فوجدها مغمياً عليها . فقال في
نفسه : حسناً ، فإن إغماءها يغنيني عن المناقشات .

وعند ذلك حملها بين ذراعيه ليأخذها إلى القارب فلما التقى
الجسمان وشعر أنه يضم هذه الفتاة إلى صدره وأن شعرها الجميل
مسدول على كتفيه تكهرب جسمه وشعر بأن قلبه يكاد يشب من
صدره وأن رجله قد وهتا .

وقد رأى البحار ما كان من اضطراب ساندريجو فقال له :
لقد فهمت الآن . فانتهره ساندريجو قائلاً : أسكت أيها الأبله !
وقد نفى قول البحار تلك الوسوس من صدره فوضع الفتاة
في القارب وغطاها بوشاحه . فقال له البحار : ماذا تصنع بالجواد ؟
قال : إني أهبك إياه فيكون أجره رحلتك . قال : لا شك أنك
من كبار ذوي المكارم ، فأمهلي ريثما أرسل هذا الجواد إلى
عمل أمين .

وعند ذلك وثب إلى البر فسار بالجواد بضع خطوات فالتقى
بغلام يعرفه فقال له : إذهب بالجواد إلى ميستر فضعه عند
صديقي صاحب الحجارة التي تعرفها وقل له إنه لي .

ثم تركه وعاد إلى القارب فجعل يمتاز به البحيرات . أما
بيانكا فلم يعد إليها رشدها إلا حين بلغ القارب الرصيف أمام
تلك الحجارة التي لقي فيها ساندريجو ذلك البحار . فنزل إلى البر
وأنزل الفتاة فجعل يسير وهي تتبعه مشتتة البال واهية العزيمة .
وما زال يسير حتى بلغ إلى منزل فصعد بها سلمه وأدخلها
إلى غرفة ثم خرج من تلك الغرفة فسمعت الفتاة صرير مقتاح
بأبها مرتين .

ثم خرج ساندريجو دون أن يقول لها كلمة أو يوضح أسباب
سجنها في هذه الغرفة ، قهلع قلبها من الخوف وسقطت على كرسي
وهي تشبه بالبكاء .
وكانت الشمس قد أشرقت في تلك الساعة وملأت أشعتها
الفضاء فانطلق ساندريجو مسرعاً إلى قصر المحظية أمباريا، وبعد

مخبرات طويلة مع الخدم تمكن من الوصول إليها فقال لها فجأة:
إن ابنتك يا سيدي قد اختطفت من عهد قريب أليس كذلك؟
فارتعشت أمباريا بمعاطفة رجاء وقالت له: كيف عرفت ذلك؟
فابتسم ساندريجو وقال: يكفي يا سيدي أن أكون عرفت!
إذن إن ابنتك اختطفها رجل شديد الحقد عليك لا يريد لك غير
السوء.

فبرقت عينا المحظية ببارق من الحقد وقالت: ولكنني سأقتل
هذا الرجل شرّ قتل! فقطب ساندريجو حاجبيه وقال:
— ذلك إذا لم أكن السابق إلى قتله. ولكننا سنبحث في شأنه
فيما بعد يا سيدي. وأما الآن فقد أتيت لأقول لك بأني أستطيع
أن أرد ابنتك إليك.
— أنت؟

— نعم يا سيدي!

— أين هي؟ تكلم.

— سأقول لك أين هي حين يتم اتفاقنا على بعض أمور.

— ما هي هذه الأمور التي تريد أن تتفق عليها؟ قل وأسرع
فإني أوافقك على كل ما تريد... ولكنك رأيت ابنتي دون
شك، فإذا كان بين جنبيك قلب رجل قتل لي في الحال أين هي
وأبي خطر ينذرهما.

— اطمئن يا سيدي فإن ابنتك على أحسن حال ولا يتهددها
شيء من الأخطار، فإذا شئت كانت عندك بعد ساعة.

— بعد ساعة؟ تقول بعد ساعة؟

— نعم يا سيدي ويكفي لذلك أن تتفق.

فجعلت أمباريا ترتعد وقد تنازعتها في حين واحد عوامل
الفرح والخوف والبأس والرجاء فقالت له بصوت يتلعم: ألا
ترى يا سيدي أنني أموت جزعاً فأخبرني على الأقل أين وجدت
ابنتي وكيف لقيتها؟

— ذلك بسيط يا سيدي، فإن الإتفاق دفعني إلى أبواب منزل
في ضواحي فينيسيا... وهناك امرأة كنت أعرفها من قبل
فاضطرتت إلى الإقامة ساعة عندها وعرفت بعد البحث أن هذه
المرأة عهد إليها حراسة بنتك. وقد عرفت من تلك المرأة اسم
بنتك واسم الذي اختطفها، فخرجت من المنزل وصبرت إلى أن
هجم الليل فدخلت إلى ابنتك وسألتها إذا كانت تريد أن تتبعني
لأردها إليك فوافقتني وأتيت بها إلى محل أمين.

— هنا في فينيسيا؟

— لم أقل يا سيدي إنني أتيت بها إلى هنا بل إلى محل أمين،
ولكنه غير بعيد! فوقفت أمباريا وقالت: إذن سر بي إليها.
— ألعسك نسيت يا سيدي أن لدي بعض شروط أقترحها
عليك.

— قل كم تريد... أسرع.

— إنني لا أريد مالاً يا سيدي.

— إذن ماذا تريد؟

فوقف ساندريجو وقال: أنظري يا سيدي، فقد امتننت
إلى اليوم مهنة اللصوصية وأنا أدعى ساندريجو والناس يخافونني

من هنا إلى مسافة عشرين مرحلة، فإذا شئت ألفت عصاة تلقي
الرب في قلوب أهل هذه البلدة . ولكنني غير متاهجي الآن
إذ خدمت الحكومة خدمة جليلة أرجو بعدها أن تكافئني
بتعييني من قادة الجيش ورجائي أن أصبح قائداً عاماً حين سنوح
فرصة أو حين نشوب حرب ، فأني شديد ضليع في فنون
الحروب ، فإن اللصوص يا سيدي لا شغل لهم غير الهجوم
والدفاع . وعلى الجملة فأني أرجو أن يكون لي في هذه العاصمة
خير مستقبل ينطبق على مطامعي ، فهل تجدون زوجاً خيراً مني
للأنسة بيانكا ؟

فدعرت أمباريا وقالت بلهجة احتقار : أنت تكون زوجاً
لييانكا ؟

فلم يظهر اللص استياء من لهجتها وقال لها : إني أحب ابنتك
وأشعر أن هذا الحب قد ثقل قلبي وأنه ثابت مكين . وسأقدم
لك برهاناً على ذلك وهو أن ابنتك بقيت عندي مدة طويلة دون
أن يكون لها نصير .

— ماذا تعني بهذا البرهان ؟

— أعني به أنها خرجت نقيّة طاهرة من بين يدي ساندريجو
ولم يتفق لي ذلك مع عذراء من قبل . فاللعن يا سيدي أني أقترح
عليك السلام والتعالف . وإنما أقول التعالف إذ لديك عدو
هائل لا بد لك من مصارعتة .

— أي عدو تعني ؟

— رولاند كانديانو !

— إنهم سيقبضون عليه قبل يومين .
— بل إنك لا تعرفين هذا الرجل حق العرفان ، فإنه جدير
أن يقاوم جيش فينيسيا بأسره ، فقد أرسلوا مائتي جندي للقبض
عليه في منزل طوقوه وهو لا يزال حراً . فاعلمي إذن أنك في
أشد حاجة إلى محالفتي وسأملكك إلى الغد فإما أكون صهرك
وحليفك وإما أكون عدوك فاختراري .

وعند ذلك نهض وانصرف مسرعاً فأرادت أمباريا أن
تستوقفه ولكنه ابتعد دون أن يلتفت إليها فانطرحت على
كرسيها مذهولة وهي تقول : أتكون ابنتي زوجة اللص
ساندريجو ؟ وبعد ، فأني عجب من ذلك ، أليست بيانكا ابنة
محظية ؟ ومن يكون زوجة ابنة المحظية إذا لم يكن من اللصوص ؟
ثم ضحكت ضحكاً عصبياً وقالت : لقد رأى ذات يوم ابن
تاجر شهير ابنتي فهام بها ، وأعجبني ذكاه الفق وهروته ،
فرضيت به زوجاً لابنتي . وهم بمقد الحظية حتى إذا عرف من
أنا هجرها دون اكترات . وكذلك كل من كان يراها فإنه كان
ينظر إليها ويعجب يمجها ولكن دون احترام . فإني الحية في
اعتقادهم لا تسلد إلا الحية ، وابنة المحظية لا تخرج إلا محظية !
نعم ، هذا هو معتقد الناس بي وبهذا الملك الذي لم يشفق عليه
غير رولاند انعم ، لقد رأيت حين كان ينظر إليها تلك النظرات
الخنونة وهو وحده الذي كان يحترم طهارتها دون سواه ...
ولكنني أكره هذا الرجل وإنما أكرهه لأنه اختطف بنتي وأراد
أن يفرق بيني وبينها إلى الأبد .

الأب

*

تقدّم لنا القول فيما تقدم أن رولاند أرسل سكالا برينو إلى الزعماء برسائل يلقي فيها أوامره إليهم .
وكانت مراكز تلك العصابات متفرقة في مساحة ثلاثين مرحلة ، فأقام سكالا برينو يومين وهو يسير على جواده من مكان إلى مكان دون أن يشعر بتعب لفرحه يقرب لقاء بنته .
فلما فرغ من مهمته سار توجاً إلى قرية ميستر فوصل إليها في الساعة العاشرة من المساء ، فترجل عن جواده ودخل مسرعاً إلى البيت حيث كانت الظلمة والسكينة سائدتين . وهناك وقف وهو يضطرب اضطراباً لطيفاً ويقول في نفسه : إنني لا أستطيع الآن أن أقول لها إنني أبوها ، ولكنني سأمتنع برؤيتها ستة أيام .
غير أنها لا بد أن تكون نائمة الآن وأنا أدوب شوقاً إلى رؤيتها فبأية حجة تتذرع جواتا إلى إيقاظها ؟
وتتمنّ طويلاً فلم يجد حلاً لهذه المشكلة فقال في نفسه : لا بد لي من الانتظار إلى الصباح . ولكن لأدخل فلإني سأقف على الأقل على أخبارها من جواتا . وعند ذلك فتح باب الحديقة بفتاح

ثم سكنت هنيئة وعادت إلى مناجاة نفسها فقالت : أتراني أبغضه لهذا السبب وحده؟ كلا! فإني أحببت هذا الرجل فاحترق حبي واحترقني ! أو اه ! إنني لا أنسى تلك الليلة التي نجت له فيها بنرامي فرفع يده عليّ يريد أن يسحقني ! إنني لا أنسى تلك الدقيقة الهائلة وما أصبت به من الحُجل ، ما حبيت .

نعم أيتها الأم الشقية الفاسدة الأخلاق ، إنك لا تكرهين هذا الرجل الذي يستطيع دون سواء إنقاذ بنتك إلا لأنك لا تزالين تحبينه ! نعم إنك لا تزالين تعبدينه ، وإنك لم تعودي إلى فينيسيا إلا من أجله ! والآن فإن تلك النار التي كانت مخبوءة تحت الرماد في صدرك قد عادت إلى الأجاج ، وهذه العاطفة التي تحسبونها كرهاً ما هي إلا عاطفة حب !

وعند ذلك سارت إلى تلك الغرفة السرية التي أخذت إليها من قبل عشيقها دافيليا وهي تشق بالبكاء . وكانت هذه الصورة ذات الإطار الذهبي ، صورة رولاند المعلقة فوق الهيكل ، لا تزال في موضعها . فارتشت حين رأت هذه الصورة وذكرت قتلها دافيليا وركعت كما ركعت في ذلك اليوم تحتها فبسطت يدها إلى ذلك الرسم وجعلت تذرف الدموع وقد نسيت في ذلك الموقف بنتها وساندرينو وبمبو بل نسيت الوجود .

ذلك أن الحب قد انتصر على الكره وعادت إلى هيامها برولاند .

كان أعطاه إياه رولاند ودخل فقرع باب المنزل بشكل
اصطلاحي ففتح في الحال وظهرت منه جوارنا وهي صفراء الوجه
فقال له بصوت منخفض مضطرب: أهذا أنت؟ أتيت أخيراً؟
فارتعش سكالا برينو لهبتها ولاضطرابها وقال لها: لقد
حدث مصاب دون شك؟ فأشارت برأسها إشارة إيجاب وجلس
دون أن يحسر على سؤالها.

أما جوارنا فإنها اضطربت اضطراباً خفيفاً وقالت له: لقد
اختطفوا بيانكا.

فوقف سكالا برينو كان لولباً قد أوقفه ثم هوى إلى الأرض
مغمياً عليه. فأسرت جوارنا إلى معالجته حتى استفاق فكان أول
ما قاله: بيانكا... بيانكا... هل اختطفوها؟

قالت: نعم، وهو مصاب ألم ولكني أرى أن هذه الحادثة
قد أثرت عليك تأثيراً غريباً. قال: كيف لا تؤثر علي وهي
بنتي؟!

— بنتك؟

— نعم، ولذلك حكاية ستملئها فيما بعد. أما الآن فأخبريني
كيف كان هذا الاختطاف؟ بل قولي لي قبل ذلك أتعرفين الرجل
الذي اختطفها؟

فاصفر وجه جوارنا لأنها إذا ذكرت اسم ساندريجو تكون
قد عرضته لخنجر سكالا برينو وقد رأت ما كان من حزنه فقالت
في نفسها: إذا استحال هذا الحزن إلى غضب كان هائلاً!
ولكنها كانت مثال الإخلاص فوازنت بين حبها وإخلاصها

وأطرقت مفكرة. فقال لها سكالا برينو: ما هذا السكوت؟
أم تعرفيه؟

فتغلب الإخلاص في قلبها على الحب وقالت: نعم عرفته.

— ما اسمه؟

— ساندريجو!

فضم سكالا برينو قبضتيه وتهدد بها السبأ إذ لم يجد من
يتهدده وقال: حسناً، فأسدد ما بيننا من الحساب القديم.
ويعد أن هاج هياج الأسود سكن فجأة لمسح عرق جبينه وقال:
ألم يختطف سواها؟

— كلا، فإن الشيخ لا يزال هنا!

— متى حدثت هذه الحادثة؟

— منذ يومين، في الليل.

— كيف تمكن من اغتصاب الأبواب وهي متينة؟

— إنه لم يقتصبها بل أنا التي فتحت له الباب. واسمع كيف
اتفق ذلك: فإنني قرع الباب وجعل يناديني فعرفت صوته
وسألته عما يريد فقال لي إنهم يطاردونه فلماذا لم أفتح له قبضوا
عليه، فحفت وأشفقت ولم يعد في بالي إلا أنهم سيظفرون به
وأني قادرة على إنقاذه.

فتفرد سكالا برينو بها ثم قال: جوارنا... أيتها الأخت
العزيرة، لقد نسيت أنك كنت تحبينه! أسكتي، لا تعترضني
عليّ فقد علمت أموراً كثيرة لم أكن أعلمها قبل أن صيرني الرئيس
رجلاً... إنك لا تزالين تحبين ساندريجو وهو شقاء عظيم لأنك لا

تعلمين مبلغ حقد هذا الرجل . ولو كان حقه قاصراً عليّ لما
بالت به ، ولكنه حاقد على مولاي رولاند . وهو لم يختطف
بيانكا إلا للانتقام منه وقد بات العداة شديداً بيننا الآن لا
ينتهي إلا بالموت .

فسالت مدافع جوانا وقالت له : لا تحسب أنني مخطئة فيما
حدث فقد دافعت ما استطعت الدفاع حتى أنه صرعني وقتدني
ووضع كامة في نفي . ولولا ذلك لما استطاع اختطافها وأنا في
قيد الحياة .

— حسناً ، فلندع البحث في هذا الشأن فاني مسافر في أثره .
أعلمين في أية جهة سار ؟

— كيف أستطيع أن أعلم وقد كنت مقيّدة ؟
وقد حاول سكالابرينو أن يذهب لفوره ولكنه شعر بتعب
عظيم فأرجأ سفره إلى الغد ونام وقد أنهكه الحزن والتعب .

أما جوانا فقد لبثت ساهرة وقد كبرت عليها هذه النكبة
فقالت في نفسها : ويح لي مما أعانيه ، فان هذه النكبة كلها عليّ .
فانه إذا قتل سكالابرينو قتلت نفسي في أثره وإذا كان الفوز له
سحق قلبي . فلن أتمنى الفوز ولن أرجو الخذلان ؟

وفي الساعة الخامسة صعد سكالابرينو من رقاده وقال وقد
رآها لا تزال في جانبه : لقد خيل لي أنني نمت كثيراً في حين أنني
لم أتم غير ساعة .

قالت : بل إن الفجر قد انبثق . فارتعش وقال في نفسه :
إنها لم توقظني إلا كي تفسح مجال الفرار .

وعند ذلك أكل ما تيسر ثم عاتق الفتاة بمحنوّ وقال : أرى
يا جوانا أنك قد تكونين أشدنا نكبة بهذا المصاب ومها حدث
فاذكري أنني أخوك واعلمي الآن أنني ذاهب للبحث عن بيانكا
إذ لا بد لي من إيجادها .

أما هذا اللص الذي سرق قلبك وهو لا يستحقه فأقسم لك
أنني إذا التقيت به لا أكون الباديء بضربه . فارتعشت جوانا
سروراً وقبلته والدموع تسيل من عينيها فودّعها وأسرع
بالرحيل . وقد امتطى جواده وسار وهو لا يفكر إلا بطريقة
إيجاد ساندرينو حتى وصل إلى فندق فأقام فيه وطلب زجاجة
شراب فأسند رأسه إلى يده على المائدة وجعل ينظر من النافذة
المفتوحة إلى الطريق .

وفيها هو على ذلك رأى رجلاً ماراً فدهش لمرآه وقال في
نفسه : ماذا يفعل جانيتو هنا ؟

وكان جانيتو هو ذلك البحّار الذي جاء ساندرينو في قاربه .
فأسرع سكالابرينو حين رآه وسار في أثره حتى أدركه ، وكان
يعرفه ، فإنه من بحّارة ميناء فينيسيا الذين يشتركون مع عصابات
الصوص ، فدنا منه وقال له : ماذا تفعل هنا يا جانيتو ؟

فدهش البحار لمرآه وقال له : إنني لم أكد أعرفك يا سكالابرينو
وأنت بملابس الفرسان . أما أنا فقد أتيت بمهمة إلى قرية
ميستر وأنا عائد إلى فينيسيا .

— وأنا كذلك عائد إليها .
— إذن نعود معاً ؟

- هو ذاك ، فهل بنا .

وترجل سكالابرينو وسار وإياه إلى جهة الشاطئ .

مرسى الذهب

*

لم يكن لسكالابرينو غاية خاصة حين تبع جانيتو ولكنه كان يعلم أن هذا البحار عارف بجميع أخبار العصابات ورجالها . ولما كان ساندريجو قد طُرد من الجبال ، فلا بد أن يكون قد لجأ إلى مكان قد يعرفه هذا البحار ، أو أنه قد يكون رآه منذ يومين فيسهل عليه البحث عنه . وبدأ جانيتو الحديث فقال : كيف أننا لا نراك بيننا منذ عهد بعيد ، وإني أراك الآن في طريق تريفيز على مثل هذا الجواد الجميل ؟

فأجاب قائلاً : وأنت يا جانيتو ، ماذا تعمل هنا ؟ قال : إني أتيت بمهمة إلى هذا الفندق . قال : وأما أنا فإني أتزه .

فغمز البحار بعينه وقال : إنك تتزه وتبحث معاً عليّك تجد حصى هذه الطريق قد استحالت إلى دنائير !

- ربما كان شيء من ذلك ، فمن الذي أرسلك بالمهمة ؟

- صاحب السفينة ماريانو وهي خير سفن الميناء .

- وإلى أين تعود ؟

- إلى مرسى الذهب !

فارتعش سكالابرينو لهذا الاسم إذ علم أنه المكان الذي يجتمع فيه اللصوص وأنه خير مكان أمين يلجأ إليه الهاربون إلى فينيسيا ، فإن مرسى الذهب كان اسماً للخيارة التي ذهب إليها ساندريجو وقال له : لقد خطر لي أن أذهب معك إليها . قال : تعال ، فانهم يستقبلونك بالترحيب .

- إني على يقين من ذلك ، ولكنني أخاف الجواسيس .

- إن خسارة مرسى الذهب لا يدخل إليها الجواسيس ولم

يدخل إليها غير واحد منهم مرة ولكنه ...

- لكنه ؟

- ولكنه لم يخرج .

- كيف ذلك ؟

- أتعرف الخيارة ؟

- تقريباً .

- أتعرف ذلك القبو المغطى الكائن في آخر الخيارة ؟

- لقد سمعت به ، فأخبرني بما تعرفه عنه بالتفصيل .

- ذلك أنه حين يدخل إلى هذه الخيارة رجل لا تروق

زيارته في عين صاحبا برتولو ... أتعرف برتولو ؟

- نعم أعرفه ، فهو ذلك الرجل الأعور القوي .

- هو بعينه . فعندما يدخل إليه ذلك الرجل الذي تسوءه

زيارته يحسن استقباله ويسقيه من أفضل الخمر الكأس ولو

الكأس حتى يضيغ صوابه ويزيد اشتياقه إلى الخمر شئت كل
السكرارى ...

- هو ذلك .

- وعند ذلك يدعوه برتولو إلى شراب كأس من أفضل ما
عنده ! ولكن هذه الخمرة لا تشرب إلا في مواضعها أو في القبو
لأنه لا يخرج منها إلى الزبائن ...

- وبعد ذلك ؟

- وبعد ذلك يدعن له الرجل شاكرأ فيدعوه برتولو إلى أن
يقبعه ، ويفتح باب القبو وينزل أمامه ، فإذا لم يستطع نزول السلم
أعانه بعض رفاق برتولو إذ يوجد دائماً أربعة أو خمسة رجال
مثل هذه الحوادث ، حتى إذا نزل بالكراه أو بالرضى عاد برتولو
من حيث أتى وأقفل الباب .

فضحك سكالابرينو وقال : بحيث أن هذا الرجل الذي
ينزل إلى القبو ليشرب يموت من الظمأ .

قال : ليس الأمر كما توهمت ، فان برتولو حين يخرج من
القبو ويقفل بابه على ذلك المنكود يذهب توتاً إلى الترتة ويرفع
صفيحة من الحديد لا يعرف مكانها سواه . وهذه القطعة من
الحديد تسد متفذاً عالياً في القبو تحت سطح الماء ، فإذا فتحها
دخل الماء إلى القبو فلاء وغرق ذلك المنكود . أرايت كيف أنه
لا يموت من العطش ؟

فارتعد سكالابرينو وقال : أقستلوا جاسوساً بهذه الطريقة ؟
- نعم ، وهو الجاسوس الوحيد الذي تجاسر على الدخول

إلى هذه الخمرة . ولكنهم يستخدمون القبو لغبر الجواسيس أيضاً .

- لمن ؟

- للخانتين الذين يرسلهم إلى برتولو رئيس العصابات الأكبر .

- من هو هذا الزعيم الذي يمثل له برتولو هذا الامتثال ؟

- لماذا تسألني عنه ؟

- ذلك بسيط ، فاني مللت عيش الوحدة فقد أردت

الاستقلال ولكني لم أنجح بحيث أني أسرّ أن ...

- أن تعود إلى الانتظام في سلك العصابات ... فإذا كانت

ذلك ، يستقبلونك على الرحب إذ طالما تحدثوا بك في الخمرة
وبفرارك العجيب من السجن .

- أيعرفون هنا أمر فراري ؟

- ومن تريد أن يعرفه إذا لم يعرفه أصحابك القدماء ؟

- حسناً ، ولكني قبل أن أنتظم في سلك العصابات أحب

أن أعرف من هو رئيسي كي أعلم لمن يجب أن أمتثل ...

- لقد أصبت ... ولكن ...

ورأى سكالابرينو ما كان من تردده في الكلام ، فقال :

أصغر إلي يا جانيبتو واعلم أنه إذا لم يعجبني ذلك الرئيس

عاهدتك على نسيان اسمه وأنت تتق بي كما أظن .

- دون شك .

وإذا رأت لي الحضور كان الفضل لك في إدخالني بين أعضاء

العصابة . فاقنتع البحار ببرهانه وقال له : حسناً ، فاعلم إذن

أن الرجل الذي يخضع له برتولو وندعوه زعيمنا الأكبر إنما هو

ساندريجو .

فلم يستطع سكاللا برينو ضبط نفسه وصاح صيحة فرح .
فتلقى البحار وقال له : ماذا أصابك ؟ فقال : لا شيء سوى أنني
سررت أن يكون ساندريجو ذلك الزعيم .

— أملكك تعرفه ؟

— نعم ، فقد كنا من قبل في عصابة واحدة .

— إذن لقد رضيت أن تكون معنا ؟

فلم يجبه سكاللا برينو لفوره ومشى وإياه بضع خطوات ثم
وقف فجأة وقال له : جانيتو ، يجب أن تتبني . فنظر البحار
إلى ما حوالية نظرة قلق وقال : إلى أين ؟ قال : ستعرف حين
نصل . واعلم يقيناً أنك لا تصاب بسوء إذا تبعتني بل يكون
لك في ذلك فائدة فإني أحب أن أذهب إلى هذه الحجارة دون
أن يعلموا بقدمي . وأنا أخيرك بين أن تتبني وبين أن تبقى ،
فاذا آثرت البقاء يقتضي لك أربعة رجال ليحملوك لأنك
ستبقى ميتاً .

وهنا برقت عيننا سكاللا برينو وجرد خنجره ، فخاف
البحار خوفاً شديداً وقال له : ألجس يا سكاللا برينو على قتلي
وعلى تحمل تبعة مثل هذا الذنب ؟

— إنني لا أقتلك إذا رضيت الذهاب معي . وإنك لا تكون
نادماً إذا فعلت .

— حسناً ، فسأتبعك إلى حيث تريد .

— إذن هلم بنا وأسرع بالمسير .

وسار الاثنان نصف ساعة قبلها قرية ميستر ، وهناك التفت
سكاللا برينو إلى البحار وقال له : إنك إذا أشرت إشارة أو
بدرت منك صيحة فأنت ميت لا محالة . قال : كن مطمئناً فلا
فرق عندي بين أن أستبدل رئيساً برئيس بل إنني أفضلك على
ساندريجو . قال : إذا كنت مخلصاً في ما تقول فلا يضي زمن
قلييل حتى تهنيء نفسك بالخلاص من ساندريجو وبرتولو .

وقد استراح الاثنان هنيهة في ميستر ثم سارا إلى مغاور بيافا
فعمد سكاللا برينو بذلك البحار إلى ثلاثة من رجال العصابة ثم
عاد من حيث أتى وهو يكاد يحن ليأسه ، فانه كان على يقين من
أن ساندريجو لم يخطف بيانكا إلا انتقاماً من رولاند . ولكنه
كان يعرف أيضاً هذا اللص وأنه لا يحترم طهر العذارى فجعل
بعض أصابعه لقتوطه ويقول : ربه ، سهل لي سبيل الوصول
إليه قبل فوات الأوان .

*

في الساعة التاسعة من مساء اليوم التالي كان نحو عشرين بحاراً
مجتمعين في حجارة مرسى الذهب وهم يعاقرون بنت الحان . وفي
الساعة العاشرة قال برتولو صاحب الحجارة بصوته الجمهوري :
هلموا أيها الرفساق واذهبوا في شؤونكم فقد دنت ساعة
إقفال الحجارة .

قدفع معظمهم ما عليهم من الحساب وانصرفوا فلم يبق إلا
خسة أو ستة من الشاربين . غير أن برتولو لم يدعهم إلى

الانصراف كما دعا الآخرين بل إنه أقفل باب الحمار من الداخل وعاد فنظر إلى أولئك الذين بقوا وعرفهم جميعهم ما خلا واحداً منهم كان لابساً ملابس فقراء البحارة وقد أدار وجهه إلى جهة التور . فدنا برتولو منه فهزّه بعنف وقال له : قل أيها الصديق ماذا تعمل هنا !

فانتبه الرجل وأشار بيده إشارة سرّية . فجلس برتولو بجانبه وقال له بصوت منخفض ويلهجة تدل على الرعب : من أنت أيها الرجل العارف بإشاراتنا السرية فاني لم أرك قبل الآن؟

— ماذا يهملك اسمي ؟

— إذن ماذا تريد ؟

— أريد أن أرى ساندريجو ، فهل هو هنا ؟

— كلا !

— أيجزر الليلة ؟

— ربما .

فقال له بلهجة المتوعد : ألا تريد أن تتكلم ؟ فقال برتولو في نفسه : لقد فهمت قصدك الآن . ثم قال له : إن ساندريجو في فينيسيا وسيحضر إلى هنا عند انتصاف الليل .

— حسناً . فدعني أنام الآن ولا توقظني إلا عند حضوره فاني في حاجة إليه . فتركه برتولو وتظاهر هنيهة بأنه يشتغل في مهام الحمار ثم دخل إلى قاعة أخرى وراء تلك القاعة وخسلا فيها برجل .

وكان في تلك القاعة نافذة تشرف على القاعة العمومية فقال

برتولو لذلك الرجل الذي كان معه : أنظر يا ساندريجو من هذه النافذة ، أترى هذا الرجل الهائل الجثة الجالس وحده على المائدة الثانية ؟

— نعم إنني أراه .

— إذن فاعلم أنه سكالابرينو .

فاتقدت عيننا اللص ببارق من السرور وضمّ قبضته فقال له برتولو : ليس هذا كل شيء ، فإن هذا الرجل يريد مقابلتك .

— حسناً ، فسيراني . هل أقفلت الباب الخارجي ؟

— بالزلاج !

— وباب الرواق ؟

— أقفلته أيضاً .

— وباب القبو ؟

— إنه مقفل على عادته !

— إذن افتحه وادع لي جميع من يوجد في الحمار من الرفاق .

فتركه برتولو وعاد إلى القاعة فطاف بأولئك الشاربين وأشار لكلّ منهم إشارة سرّية ثم ذهب إلى حيث كان سكالابرينو فجلس بجانبه وقال له : إن ساندريجو لا يلبث أن يجزر ، ولا شك أنك قادم إليه بشأن خطير . قال : هو ذاك ، فاني قادم إليه بمهمة تفيد كل الفائدة .

— أتريد أن تخلو به ؟ وهل محادثتك سرّية ؟

— دون شك !

فنهض برتولو وجعل يؤنب الحاضرين لتأخرهم بأنه لا يفتح لهم

في الغد إذا تأخروا دقيقة أيضاً. فقام الجميع ودخلوا الواحد تلو الآخر إلى الرواق وتواروا عن الأنظار. وذهب برتولو في أثرهم فأدخلهم إلى حيث كان ساندريجو وفتح زلاج الباب وأقبله إليهما لسكالا برينو أنه أخرجهم ، ثم عاد إليه فقال له :

- لقد أصبحنا الآن وحدنا فلا حاجة بعد ذلك إلى أن نتظاهر بالنوم يا سكالا برينو .

- كيف ذلك ؟ أعرفتني ؟

- ومن لا يعرفك ؟ أتحسب أنني كنت أطرد أولئك الزبائن من أجلك لو لم أعرفك ؟

فشكره سكالا برينو وهو لا يدرك مقصده من ذلك ، وقال له : أنتظن أن ساندريجو يتأخر ؟

- إنه حضر ، فإذا أردت أن تكلمه فما عليك إلا أن تتلعبني .

- أين هو ؟ ولماذا لا يأتي إلى هنا ؟

- لا أعلم ، فقد أخبرته بأنك تريد مقابلته فقال لي : إنه ينتظرك . والآن إذا أردت أن تتلعبني مشيت أمامك إليه . وإذا أبيت فانت غير بين البقاء هنا وبين الإنصراف .

فذكر سكالا برينو ما قاله له البحار عن ذلك القبو الهائل وقال في نفسه : إنهم يريدون إلقائي في هذا القبو دون شك .

غير أن سكالا برينو كان يبلغ بشجاعته حد الجنون ، وله بغوته البدنية ثقة لا تحد ، فقال في نفسه وهو يبتسم : إنهم إثنان فقط وما تموت أن أبالي بإثنين .

وعند ذلك وقف وقال : هلم بنا . فقال برتولو : ليس

المكان بعيد . ثم مشى أمامه فدخل إلى الرواق واجتازته إلى القاعة ، فتبعه سكالا برينو ونظر إلى تلك القاعة نظرة اطمئنان فانه لم يرَ فيها غير رجل واحد وهو ساندريجو . وكان ساندريجو جالساً حول مائدة عليها كأسات من الشراب وقد وضعت هذه المائدة على قيد خطوات من القبو الذي بقي بابه مفتوحاً بحيث لو جلس سكالا برينو على تلك المائدة مقابل ساندريجو لكان ظهره إلى جهة باب القبو ولما بُعد عنه غير خطوتين .

ولا نعم إذا كان سكالا برينو رأى ذلك الباب المفتوح وعلم أنه باب القبو الخفيف . ولكنه جلس على الكرسي الممد له أمام المائدة وقال لساندريجو بلهجة تدل على السكينة : السلام عليك يا ساندريجو . لقد مضى زمن طويل دون أن أراك . فرد ساندريجو تحيته وقال له . وأنا يسرتي أن أرى رفيقاً قديماً .

وقد كان سكالا برينو يبذل جهداً عنيفاً كي يتمكن من ضبط نفسه والتظاهر بالسكينة فلم يخفق هذا الرجل الذي كان السبب في سجنه ستة أعوام واختطف بته ، وذلك لأنه قد أقسم لجوانا أن لا يكون الباديء بالضرب .

وساد السكوت هنيهة بين الاثنين وكلاهما يعلم أنه يريد الموت لصاحبه ، وكلاهما يتظاهر بالسكينة ، إلى أن افتتح سكالا برينو الحديث فقال : لقد أحببت أن أراك في البدء قبل أن أعلم إذا كان يجب أن أعتبرك رجلاً أو يجب أن أقتلك كما يقتلون الكلاب .

فأجابه ساندريجو قائلاً : وأنا كنت أنتظر أن أسمع كلامك

لأقرر نفس قرارك .

— إذن قاسم ما أقوله لك : إن الحقد قد تولد في قلبك عليّ في حين أنني لم أعاملك إلا معاملة الصديق . وقد دفعك هذا الحقد إلى ارتكاب جريمة تعاقب عليها شرائعنا الجليية بالإعدام ، فأنت الذي وشيت بي حين قبضوا عليّ . أتعترف بذلك أم تنكر؟
— لا أقول شيئاً على سبيل الاعتراف فإن المجرمين لا يعترفون .

— إذن أنت تنكر ؟

— كلا ، فأنا الذي دفعتم للقبض عليك .

— حسناً ، فإني أقمت في السجن ستة أعوام ثم هربت منه ولقيتكم في الجبال .

فضم ساندريجو قبضة يده وقال : نعم ، وكان ذلك في اليوم الذي سرقت عصابتي مني ويوم أكرهني رولاند كانديانو على التماس العفو أمام الرفاق . قل فما تريد بعد ذلك ؟

— أريد بعد ذلك أنه يوجد امرأة طاهرة القلب سليمة النية شديدة الإخلاص ، ولقد أحببتك هذه المرأة ، ولا أدري كيف ، فأعلم يقيناً أنني لولاها لكنت قتلتك شرّاً قتل .
— وبعد ذلك ؟

— اصبر ، فإن جوانا عهد إليها بمجاسة فتاة ...

— وهذه الفتاة قد اختطفتها واستعنت على ذلك بفرام جوانا . فطاش رأس سكالا برينو وهم يقتله ولكنه أسرع إلى ضبط نفسه فقال : إنك تستطيع شراء جرائمك ، فردّ لي تلك الفتاة

التي اختطفتها وتزوج جوانا . وأنا أتعهد بأن أعينك وأنيك مائة مرة أكثر مما ترجوه .

— أحقّ ما تقول ؟

— إنني أقسم .

— أود أن أقبل ببلء الرضى . ولكن هناك مانعان قويان يحولان دون ذلك .

— ما هما ؟

— المانع الأول هو أن جوانا تحبني ولكني لا أحبها .

— والثاني ؟

— والثاني أن هذه الفتاة التي تسألني بأن أردّها إليك هي

التي أحبها . فنهض سكالا برينو وقد اتقدت عيناه وقال له :
أقول إنك تحب بيانكا ؟

فخاف ساندريجو وأيقن أنه سيبتش به إذا لم يستجد وصاح : إليّ ... إليّ ...

وعند ذلك دفع المائدة التي كانت بينه وبين ساندريجو بعنف فجرد سكالا برينو خنجره وهجم عليه فأسرع ستة لصوص إلى نجدة زعيمهم وتراجع سكالا برينو كي يستند إلى الجدار ويحتاط به ف شعر أنه سقط في هوة . ولكنه قبل أن يصل إلى أسفلها تعلقت يده بسقفها فأخذ ساندريجو الكرسي الذي كان جالساً عليه فضربه به على رأسه فأفلتت بداه حافة السقف وسقط ، وأسرع برتولو فأقتل باب ذلك القبو .

أما سكالا برينو فقد طاش رأسه للضربة التي أصابته وهوى

إلى أرض القبو فأغمي عليه .

وصحنا من إغمائه لرطوبة شديدة شعر بها فذكر لفوره ذلك الخطر المهدق به إذ ذكر ما رواه له جانيتو البحار عن حكاية ذلك القبو الهائل حين ختم تلك الحكاية بقوله : إن المرء لا يموت في هذا القبو عطشاً بل من كثرة الشرب .

وقد مررت هذه التصورات بمخيلته مرور البرق ، ونظر إلى ما حوله فرأى الظلمات تكثفه من كل جانب وسمع من فوق رأسه صوتاً يشبه صوت تدفق المياه وشعر أن المياه قد بلغت إلى ركبتيه فصاح صيحة يأس وقال : «الترعة ... الباب الحديدي ... الماء المتصاعد ... » .

ذلك أن الماء كان يتصاعد ببطء ولكنه مستمر في صعوده وهو لا يزال يتدفق من الباب إلى أرض القبو . فوقف جامداً قانطاً مبهوتاً إلى أين تجاوزت المياه ركبته فتمثلت له جوانا وبيانكا فتنهد تنهداً كاد يتمزق له صدره وقال : ربّاه ، أأموت في حين كدت أبلغ أوج السعادة ؟ ثم تمثّل له بعدهما رولاند فقال : أيها الرئيس أين أنت ؟

وقد ارتعش حين لم يجه غير الصدى ، وذكر ما قاله له ساندريحو وهو أنه يجب بيانكا وأن تلك الحمامة الوديمة باقت فريسة ذلك اللص الدنيء النفس والوغد الحقير إذ هي في قبضته فصاح صيحة يأس ارتجّت لها جوانب القبو ، ومدّت يديه يلتمس في الظلام سلّم القبو كما يلتمس العميان السبيل إلى أن عثر به فصعد عليه حتى التظّم رأسه بسقف القبو فوضع كتفيه القويتين

تحتة وحاول أن ينهضه ولكن جهده ذهب عبثاً .

حتى إذا أيقن أن فتح ذلك الباب محال وقف واليأس ملء قلبه ، ولكن الماء لم يقف ، فإنه حين صعد السلم كان قد بلغ إلى قدميه ثم جعل يتصاعد حتى بلغ إلى ركبتيه . وذعر ذعراً شديداً حين علم أنه سيموت موتاً بطيئاً وأن الماء سيبلغ إلى صدره فيغمره . فعزم على أن يموت ميتة سريعة كي يتخلص من عناء هذا اليأس إذ أيقن أن الموت لا بدّ منه .

وعند ذلك ذكر جوانا وبيانكا وروولاند وهؤلاء هم كل الذين يجبهم في هذا الوجود وألقى نفسه من السلم إلى ذلك الماء الأسود .

*

كان سكالا برينو من الماهرين في السباحة ، فلم يكذب يلقى نفسه في تلسك المياه حتى تغلب في نفسه حب الحياة على اليأس فصعد إلى سطح الماء بعد أن كان قد بلغ الأرض وجعل يسبح دائراً حول القبو وقد تولد في نفسه أمل لا يدري ما هو ، فإن الرجاء آخراً نور ينطفئ في قلب الإنسان وإنت القوى تتلاشى والصبر يفتى ولكن الرجاء يبقى إلى آخر لحظة من الحياة .

وعلى ذلك فإن سكالا برينو كان يرجو ولكنه لا يعلم ما يرجوه ، فجعل يسبح وهو لا يفكر في شيء إلا بأن يبقى عائماً على سطح المياه . وظل على هذه الحال إلى أن كلت بداه وتلاشت قوى رجليه وقد بعد عن السلم الذي كان يستريح على درجاته فبذل جهداً عنيفاً وهو آخر جهده وجعل يطوف ساجساً إلى أن

علقت يدها بقضبان غليظة من الحديد وهي لتلك النافذة التي
يدخل منها ماء التربة إلى القبو .

*

كان ساندريجو قد أطلق سراح جميع اللصوص الذين كانوا في
الجماعة بعد أن ألقوا سكالاً بريئاً في القبو ولم يبقَ غير برتولو .
وقد جعلنا عند ذلك يضعان الأثقال فوق باب القبو حتى إذا أنما
مهمتها قسال برتولو : إن هذا القبو خير من آبار السجون ، فإن
الفرار منه محال . فوضع ساندريجو أذنه على باب القبو وقسال :
إنه لا يتحرك .

فقال له برتولو : إصبر قليلاً فستسمع حين يبدأ شرب المياه .
قال : كم ينبغي لذلك من الوقت ؟ قال : إن القبو يمتلئ عادة
بمدة ساعتين .

ثم انقطع الحديث بينها فاضطجع ساندريجو فوق باب القبو
وجعل يتنصت . ولبت على ذلك إلى الساعة الثالثة بعد انتصاف
الليل حتى لم يعد يسمع شيئاً فنهض برتولو وقال : لقد انتهى كل
شيء . فنهض ساندريجو في أثره وقال : نعم ، لقد انتهى كل
شيء .

المحظية الكبرى

*

خرج ساندريجو من تلك القاعة وصعد سلماً يؤدي إلى طابق
علوي في تلك الجماعة . وهناك وقف عند باب غرفة ووضع أذنه
على قفل الباب فاطمان وقال : إنها نائمة . ثم دخل إلى غرفة
مجاورة لها ونام نوماً هادئاً .

وفي صباح اليوم التالي صعد من رقادته فجلس في سريره وجعل
يحدث نفسه فيقول : إن حادثة الليلة قد أتعبتني فوق ما يتعبنى
يوم معركة ، وكنت أود أن أكون قد تخلصت منه بطعنة
خنجر ، فإني أشعر أنني رجل حين أهرت خنجري بيدي وقد غدا
بريق عيني أشد من بريقه فيغلي الدم في عروقي ويخفق قلبي
سروراً بالقتال . وما أشد ما يكون مروري حين يسقط ذلك
العدو صريعاً تحت قدمي ويتخبط بدمائه فإن منظر تلك الدماء
يسكرني .

وأما هذا القبو وهذه النافذة التي يسيل منها الماء إليه ، فلا
لذة باستخدامها للقتل ، فإني لا أزال أسمع صوت تدفق الماء من
تلك النافذة وسوف أسمع هذا الصوت المحزن ما حييت .

وعند ذلك هز رأسه ونزل من سريره فارتدى أحسن ما كان عنده من الملابس وتحمل بما كان اختلعه من الجواهرات وتقلد حساماً طويلاً كان قد اغتصبه من أحد الأشراف . ثم خرج ، وبعد نصف ساعة كان في قصر الدوج حاكم فينيسيا . وهناك أخرج من جيبه رسالة فدفعها إلى أحد الحجاب وسأله أن يوصلها إلى الدوج . فلم تكن غير هنيئة حتى أمر الدوج بإدخاله إليه فنظر إليه نظرة تدلّ على عدم الاكتراث وقال له : إنك أعطيتني كتاب توصية من المولى دندولو رئيس ديوان التفتيش ، ولكن هذا الكتاب الذي يوصي بك خير وصاية لم يذكر فيه اسمك . ولولا ثقتي بالرئيس لمسا أذنت لك بالدخول إليّ . فقال له ساندريجو : أنا يا مولاي التمسيت من الرئيس أن لا يذكر اسمي حذراً من أن لا تأذن لي بشرف المثل بين يديك متى عرفت ذلك الاسم ، فاسمع لي الآن أن أذكر لك اسمي . فأشار الدوج بإشارة قبول ، فقال ساندريجو : إنك يا مولاي حين رقيت إلى أريكة الحكم في فينيسيا كان أول أمر أصدرته تعيين جائزة لمن يأتيك برأسي ، فأني أدعى ساندريجو ، وأظن أن هذا الاسم يكفي للتعريف بي . فاحمرّ وجه فوسكاري من الغضب وكان أول ما خطر له أن يأمر بالقبض على هذا اللص الجسور وأن يعزل دندولو . ولكنه لم يلبث أن عاد إلى سكيبته فقال في نفسه : إن رئيس ديوان التفتيش لم يرسل لي هذا اللص إلا لأنه يجب الإبقاء عليه ، فقد كان يوسعه أن يعامله معاملة اللصوص . ولذلك اطمان وقال له :

- إنك الآن ضيفي ، وسأنسى كل ماضيك .
- ولكنني أتيت يا مولاي كي أسألك نسيان هذا الماضي إلى الأبد .

- أراك تتكلم بجرأة نادرة .
- وبحقّ لي ذلك !

وقد قال هذا القول وهو يعلم يقيناً أنه يخاطر بحياته ولكنه علم أنه لا يفوز إلا بالجرأة فقال : نعم يا مولاي ، يحقّ لي أن أكون جريئاً فقد خدمت الجمهورية خدمة جليلة وأنا قادر على أن أخدمها أيضاً خدمة أجلّ .

- ماذا تستطيع أن تفعل في خدمتها ؟

- أستطيع أن آتيها برأس رولاند كانديانو .

ففرح فوسكاري فرحاً لا يوصف ، فإنه لم يكن يفكر برولاند حتى يصاب بما يصاب به النائم حين يفاجئه الكابوس ولا سيما بعد فراره من السجن . ولكنه لم يظهر شيئاً من ذلك السرور ، ومضى ساندريجو في حديثه فقال : وإذا شئت برهاناً يا مولاي على ما أقول فاعلم أنني بدأت بقتل سكالابرينو . وهذا الرجل لم يسيء إليّ بشيء ولكنه كان عدو الجمهورية وكان شديد الخطر عليها .

- كيف يكون مثل هذا اللص خطراً على الجمهورية ؟

- لأنه كان ساعد رولاند الأمين ، فإن رولاند يضع الخطأ وسكالابرينو ينفذها ، فكانا قوين بالتحادها . أما وقد بات رولاند وحده فقد ضعف وإن كان لا يزال قوياً إلى الآن .

— ما هي قوته ؟

— لقد أخبرك رئيس ديوان التفتيش يا مولاي ، أنه زعيم
عصابات كثيرة تشبه الجيش فهو يستطيع بها أن يكون من
الأقوياء . أما غرض رولاند من تأليف هذه العصابات فلا دخل
لي به ، ولكني أعيد عليك ما قلته لك وهو أنني أنا وحدي
الذي أستطيع القبض على رولاند لأنني أنا وحدي الذي يعرف
مكانه . . دعني أتم حديثي يا مولاي وسأرى رأيك بعد إقامه ،
فإنني بدأت بقتل سكالابرينو فأكون بقتله قد جردت رولاند
من خنجره . والآن أسمح لي أن أسألك سؤالاً ؟

— تكلم .

— أتعلم أين يوجد أسقف فينيسيا ؟

فظهر الاضطراب على وجه فوسكارى بالرغم عنه وقال :

الكردينال بيو ؟

— نعم ، الكردينال بيو الذي اختفى دون أن يعلم أحد

مقره . ولكني أعلم أين هو .

— أنت ؟

— نعم أنا . فإن لي رقباء في الجبال كاللك جواسيس في

فينيسيا .

— إذن تقول أين هو الكردينال بيو ، فإذا لم يكن قولك

من قبيل الإدعاء أصبحت فروتك مضمونة .

— أرى يا مولاي أننا قد بدأنا بالإفئاق . أما الكردينال

فإنه الآن في قبضة رولاند كانديانو وهو حاقد عليك حقداً مانلاً

دون شك لا أعلم أسبابه إذ ليس ذلك من شأني .

فاصغرت وجه فوسكارى وحدق بساندريجو كأنه يريد أن

يقرأ سرائر قلبه فقد قال في نفسه : إن رولاند ما زال قد ظفر

بالكردينال فهو سيظفر بالنياري و دندولو و ... في أنا !

ورأى اللص ما كان من اضطراب الدوج فوثق من انتصاره

عليه وقال له : لا يجب الاقتصار على معرفة مكان الكردينال بل

المهم إتقائه وإرجاعه إلى فينيسيا . وأنا أتعهد بذلك ، فإذا

أردت كانت الكردينال غداً عندك وإذا أردت جئتك أيضاً

برولاند مكتوف اليدين والرجلين . فقال الدوج : ماذا تريد

مقابل ذلك ؟

— أتأذن لي أن ألتمس يا مولاي ؟

— قل .

— إني سئمت يا مولاي عيش التشرّد وعلمت أنني ما خلقت

لأعيش شريداً طريداً ، وعلى الجملة فإني أحب أن أعيش في

فينيسيا .

— إني أعفو عنك عفواً كاملاً فتعيش فيها .

— لقد نلت هذا العفو يا مولاي من رئيس ديوان التفتيش فلا

تكون قد أنعمت عليّ بشيء .

— إذن ماذا تريد ؟

— أريد منصب قائد في الجيش فإني لا أستطيع القبض على

رولاند إذا لم يكن لي شيء من السلطة .

فأطرق فوسكارى مفكراً وكان من أهل المضاء في العزبة

فقال في نفسه : إن هذا الرجل قد يفيدني فوائد كثيرة وكفى
أنه سينقذني من رولاند ، فأية خسارة عليّ إذا عينته في الجيش ؟
وفوق ذلك فما يعني أن أبطش به بعد أن يجيئني برأس رولاند ؟
وعند ذلك نظر إليه وقال : إنك تسألني أمراً كبيراً . قال :
إني عارف بجسامة مطلبي يا مولاي ، ولكن رأس رولاند وإنقاذ
الكردينال يساويان هذا المنصب الذي أطلبه . وغداً عندما
يكون صديقك الكردينال عندك تبخشان فيما إذا كنت أستحقّ
هذا الجزاء .

فقام فوسكاري إلى درج وأخرج منه ورقة وكتب عليها
بيده صورة الأمر لتعيينه ثم ختمه وتاوله إياه . فأتى ساندريجو
وقال : لا أجد كلمة تعبر عما في فؤادي من الامتنان لمولاي
سوى أنني مستعدّ لسفك دمي في سبيل مجده . فقال فوسكاري :
بسل أسفكه في سبيل مجد الجمهورية فنحن جميعنا من خدامها .
وعلى ذلك فإنك ستأتي غداً بالكردينال كما قلت .

— هو ذاك يا مولاي ، فسيكون غداً عندك وهو يخبرك بما
لقيه من قوة رولاند . أما رولاند فسيكون في قبضة يدك
بعد شهر .

— حسناً ، فإذهب يا حضرة القائد .

فارتعش ساندريجو سروراً وهو يقول في نفسه : لقد
أصبحت بيانكالي دون مزاحم .
ثم أسرع لفوره إلى قصر أمباريا . وكانت أمباريا تنتظره
بسل الجزع منذ أمس فقد مضى يوم ولية دون أن يأتي إليها كما

وعد . فلما وصل استقبلته في الحال فقال لها : هل تمنعت يا
سيدتي ؟ قالت : كل ما تمنعت فيه هو أنني كنت أنتظرك ، فإن
ابنتي في قبضتك ولك القوة الآن !
— ولكنك تأنفين من تزويج بنتك بلصّ .

فارتجفت أمباريا لأنه كان يعبر بما قاله عن أفكارها ،
ولكنها كانت تخشى أن تثير غضبه ، فقال لها : لا تخشي أنت
تقولي كل ما تفكرين به ، وفوق ذلك فإنك لم تكني نفورك
وهو نفور طبيعي ، فلو كنت في مكانك لما فعلت إلا ما تفعلين .
— ماذا تعني ؟

— لا أريد بكلامي غير ما هو ظاهر من معناه فإن بيانكا
فتاة طاهرة نقية جميلة لا يجب أن تكون امرأة لص .
فارتجفت أمباريا وخشيت أن يكون متهاكماً في مقاله .
ولكن ساندريجو تكلف هيئة الرزاة والجذب بما يوافق منصبه
الجديد فقد كان في الصباح لصاً فأصبح الآن من قواد الجندمة
وشأن الجندمة جليل في ذلك العهد .

وقد جعلت أمباريا تنظر إليه دون أن تجيب فقال لها :
أتزوجين ابنتك من رجل له منصب رسمي في فينيسيا ؟
— ماذا تعني بذلك ؟

— أعني به رجلاً له منصب في الجيش .
— نعم ، لقد لمّحت عن ذلك ولكنه بعيد التحقيق بل هو
مستحيل .

— أتمسّين حقيقة أنه يوجد أمر مستحيل في هذا الوجود

على رجل قوي الإرادة ، ولا سيما حين يستمدّ هذه القوة من
الغرام ؟

- الغرام ؟

- لا تخشي ، فإني أقسم لك أنني احترمت بنتك وذلك
لأنني أحبها حقيقة ، أنتفين بقولي ؟
- نعم .

- يسرني أن أرى منك هذه الثقة وأن لا أكون في عينيك
ذلك اللص بل ذلك الرجل الذي أحب ابنتك حباً طاهراً دعاه
إلى احترامها ، فإذا تقولين لي إذا تمكنت بالقوة والبسالة والجرأة
والحيلة من بلوغ تلك الأمنية التي تحسبونها مستحيلة ؟ قالت :
أقول إنك عملت عملاً عظيماً لأن الموانع التي تعترضك عظيمة .

فابتسم ساندريجو وقال : لقد أصبت يا سيدتي فإن الحكومة
عينت جائزة لمن يقتلني ، وإذا أراد أحد خدمك أن يشي بي
نال ثروته ، وإذا لقيني رجل في الطريق فعرفني وقتلني لا يعاقب
بذنبه بل يكافأ عنه . ولذلك لا أستطيع نيل الأمنية التي
أرجوها إلا إذا خدمت الحكومة خدمة جليلة . وقد يكون
ذلك غير كاف أيضاً فربما احتجت إلى إنقاذ الحكومة نفسها من
خطر شديد .

كان ساندريجو يقول هذه الأقوال وأمباريا تنظر إليه وهي
معجبة بما يقول . وعند ذلك ضحك اللص وأخرج من جيبه ذلك
الأمر القاضي بتعيينه فدفعه إلى أمباريا وقال : لقد تمّ المستحيل
يا سيدتي فخذني وأقرأي .

فأخذت الحظيعة الورقة وقرأت كل ما فيها فلم تدهل ولم
تتمجب فلما كانت تعتبره منذ هنية جذيراً بمثل هذه الأعمال
العظيمة . فلما أتمت القراءة أطرقت صامته ، فقال لها : ما بالك
لا تجيبين على سؤالي يا سيدتي ؟
- أي سؤال تعني ؟

- هل تريد أن تزوجي ابنتك من القائد ساندريجو ؟ فإذا
رضيت كانت ابنتك عندك بعد ساعة .
فهمت أمباريا عليه فطوّقت عنقه بذراعيها وقالت له :
نعم يا ساندريجو لقد رضيت فإنك خير كفؤ لها .

*

كان ساندريجو قد أقام بيانكا في الطابق العلوي من الحماره
كما تقدم فأقامت ثلاثة أيام وهي على أسوأ حال لا تعلم أين هي
ولا ماذا يريدون منها ولا تعرف هذا الرجل الذي ادعى أنه
موفد إليها من قبل أمها .

غير أنها وثقت في هذه الأيام الثلاثة أنهم لا يريدون بها شراً
ولكنهم كانوا أقاموها في غرفة ضيقة لا نوافذ لها تشبه غرف
السجون . وكانت تأتي إليها كل يوم امرأة صماء خرساء بسدليل
أنها لم تكن تتكلم ولا تجيب الفتاة على أسئلتها فتأتيها مرتين في
كل يوم بطعام طيب لم تكن بيانكا تأكل منه غير القليل فتقتضي
أوقات وحدتها بالبكاء .

وفي اليوم الثالث ضاق ذرعها وأيقنت أن سجنها سيطول

الذي حماني أين أنت ؟ إن نظرة واحدة منك كانت تسكن كل
الأمي !

إلتقاء وحشين

*

خرج ساندريجو من قصر أمباريا وهو يكاد يطير سروراً
فبحر فينيسيا لفوره وصار في طريق مغاور بيافا فوصل في
الساعة التاسعة إلى قرية تريفيزا ودخل إلى أحد بيوتها ولقي فيه
اثنى عشر رجلاً مجتمعين ، وكلوا مضطجعين على الأرض حول
موقد ولكنهم لم يكونوا نائمين دون شك فإنهم حين دخول
ساندريجو وقفوا جميعهم إكراماً له . وهو بعد عناء أربعة أشهر
لم يستطع أن يجمع غير هذا العدد القليل من رجال عصابته
القدماء في الجبال ولكنه حشد في فينيسيا عصابة خطيرة كان
مركزها العام مخارة مرسى الذهب كما رأينا .

فتفقد ساندريجو رجاله وقد ظهرت عليه علامات الرضى
فقال : لقد اجتمعتم كلكم هنا ، فكيف يبلغ عددهم هناك ؟ فأجابته
أحدهم وكان نائبه في غيابه ، قائلاً : إنهم ستة فقط ، أربعة عند
باب المغارة واثنان عند باب غرفة السجن . قال : إذن لا بد لنا

وأهم سيفرفون بينها وبين أمها إلى الأبد . وفيها هي على ذلك
وقد عاد اليأس يضل صواها فتح الباب ودخل منه ساندريجو
فمرفته لفورها وتراجعت خائفة مندعرة . ولكنه دنا منها وقال
لها بلهجة تكلف فيها الجنون : لقد انتهت متاعبك فإذا شئت
أن تلاقى أمك فاتبعيني .

قالت : ولكنني أخشى أن تستبدل سجنى بسجن آخر . قال :
لقد أقتك هنا أكثر مما كنت أريد ، ولكن ذلك ليس بخطئي
وستخبرك أمك بصدق ما أقول ، فتعالى يا سيدتي دون خوف
فإن القارب ينتظرنا وبعد هنية تكونين بين ذراعي أمك التي
تشرقتني بصدقها .

وعند ذلك دنا لها يده فأبت بيانكا أن تتوكأ عليها وسارت
في أثره وهي خائفة مضطربة لا تصدق ما قاله هذا الرجل عن
صداقته لأمها إذ أبت علاقة يمكن أن تكون بينها ؟

وبعد ساعة كانت بيانكا بين ذراعي أمها وهما تبكيان
سروراً بهذا اللقاء حتى إذا سكن نائثر شوقها قالت لها أمها :
أعرفك يا ابنتي بالستور ساندريجو أحد قواد الجندرية وأحد
أصدقائي المخلصين الذي ما رجعت إلي إلا بفضل فاحببه يا
بيانكا فهو جدير بحبك وبمحبتي .

فاصفر وجه بيانكا وجعلت تجيل نظرها بين أمها
وساندريجو وقد بدأت خوفها من أمها أشد من خوفها من
ساندريجو . فلما خلت بنفسها جعلت تبكي وتقول :

أين أنت يا جواتا الطيبة الشريفة ؟ وأنت أيها الرجل النبيل

من الفوز ، ولكن يجب أن نفاجئهم مسرعين . قال : نعم ، فإن
سكالابرينو قد مرّ من هنا منذ يومين ويخشى أن يعود . قال
ساندريجو : لا تخافوا سكالابرينو بعد الآن فقد سددت معه
حسابي القديم ولا تنسوا ما وعدتكم به فإن الكنز في المغارة
فيجب أن تبحثوا عنه فيها حتى تجدوه ومتى ظفرتم به يكون
النصف لكم .

فانتقدت عيونهم ببارق من السرور ، ومشى ساندريجو
أمامهم وهو يقول : إذن هلموا بنا .

فخرج الجميع من المنزل وسار كلّ منهم في جهة حسب
الأوامر التي تلقاها . وسار ساندريجو في طريق المغارة السوداء
حتى إذا وصل إلى مسافة ألف خطوة منها اختبأ وراء الأدغال
وأقام ينتظر .

وبعد ساعة سمع صغيراً فقال : لقد قضي الأمر . وأسرع إلى
المغارة فدخل إليها فوجد أربعة رجال مقبدين فقال له نائبه :
لقد كانوا ستة فاضطربوا إلى قتل اثنين . فأشار ساندريجو إشارة
تدلّ على عدم الإكترات ثم نظر إلى الأسرى وقال : فكوا
قيودهم . فكفوا قيودهم ، وعند ذلك دنا ساندريجو منهم فقال
لهم : لقد كنتم من رجال عصابتي ففترتم عليّ وخضعتم لرجل لم
يكن في شيء من قبل لا يمكن أن يكون .

وأنا الآن قادم من فينيسيا حيث لقيت كبار أهل المناصب
وعرفت منهم حقيقة هذا الرجل الغريب الذي جاء إلينا ليلقي
بذور الشقاق بين عصابتنا . أتعلمون من هو هذا الرجل الغريب

الذي وليتموه الزعامة الكبرى عليكم ؟ إنه أحد عملاء مجلس
العشرة . وخطته بسيطة واضحة وهي أنه يحاول أن يجعل
عصابات الجبل على الثقة به ثم يأتي بهم إلى فينيسيا وهناك يقبض
عليهم جميعهم مرة واحدة .

فصاح به أحد الأسرى قائلاً : لقد كذبت يا فاختد ساندريجو
غدارته فوضعها على صدغ الأسير وقال له : أنت واثق من أبي
كذبت ؟ قال : نعم ، إنك من الكاذبين . فأطلق ساندريجو
الرصاص عليه وسقط ذلك المسكين يتخبط بدمه وقد مات
شبه وفاته لرولاندي .

أما ساندريجو فلم يكثر لمّا فعل وعاد إلى مخاطبة الأسرى
فقال : أتريدون أن تكونوا معنا ؟ أتريدون أن تذهبوا إلى
رفاقكم المشردين في الجبال فتخبروهم بما قلته لكم وتظهروا لهم
ذلك الخطر العظيم الذي يتهددهم ؟ وإذا كنتم حقيقة من اللصوص
فلا بدّ لكم أن تقتلوا وأن تنقذوا إخوانكم . أما أنا فيأني أنسى
الماضي وأجعل لكم حظاً من هذا الكنز الموجود هنا . فقال
أحدهم : إني أقبل . وقال الثاني : إني رضىت .

وسكت الثالث فقال له ساندريجو : ما بالك لا تحييب ؟
ألملكتك تريد أن تقفوا أثر هذا القتل ؟ قال : نعم ، فليأني أوثر
كلّ موت على الحياة ، فما أنت إلا من الكاذبين ، فاضرب
يا ساذ...

وقبل أن يتمّ لفظ اسم ساندريجو سقط قتيلاً ، فأدار رفاقه
رأسهم كي لا يريا هذا المنظر ، فقال لها : لقد أصبحتا الآن منّا

ونسيت كل ما مضى منكما . ثم ذهب إلى نائبه وممس في أذنه قائلاً : يجب أن تبالغ في مراقبتها وإذا خفت منها الحيانة فاحذر أن تكون رحيماً . وبعد ذلك نظر إلى الجميع وقال : إسبداوا الآن التفتيش عن الكنز . فصاح الجميع صياح الفرح وتواروا عن الأنظار في تلك المغارة الكثيرة الشعاب .

أما ساندريجو فإنه ذهب إلى قلب المغارة وبيده مشعل فوصل إلى باب محكم الأقفال ووقف عنده يصغي فلم يسمع حساً فقال في نفسه : أيكون قد مات ؟ ثم فتح الباب بالمفاتيح التي أخذها من الأسرى ودخل إلى ذلك السجن فرأى في أحد زواياه رجلاً متربعاً وقد تمزقت ملابسه ورقق ونحل حتى ذهب لحمه ولم يبق فيه من دلائل الحياة غير بريق عينيه !

وكان هذا الرجل الكرديثال ببو .

فلما رأى الكرديثال ذلك الرجل داخل عليه يحمل مشعلاً بيده وفي منطقته ذلك الحنجر المصوغ بالدماء تراجع زاحفاً منذراً حتى التصق بالجدار وهو يقول :

— إنك قادم لقتلي كما أرى ، فإن رولاند كانديانو الذي انتزع الرق من قلبه لم يكفه هذا الانتقام الذي انتقمه مني فأراد أن يتمه بقتلي ! فقال له ساندريجو : إطمئن . ولكن ببو لم يسمع هذه الكلمة وقال بلهجة المنذرع :

— ألم أكفّر بعد عن ذنبي ؟ نعم إن ذنبي كان عظيماً والآن وازنت بين شقائتي وبين مساحتك رولاند من الشقاء فعلت مقدار إساهاتي إليه . ولكن لكل شيء حد حتى العقاب ، فقل

لرولاند الذي هو رجل مثلي إن العقاب الأكبر بيد الله لا بيده ، فإن الله المنتقم الجبار يغفر أيضاً لمن يتوب ويندم ندامة صادقة . وأنا نائب نادم ، فإنني أقضي جميع أوقاتي بالصلاة والاستغفار ولكن لا يسمعي أحد .

وجعل الكرديثال عند ذلك يقرع جبهته بالأرض ويلتمس ويستغفر . فنظر إليه ساندريجو نظرة ازدرأه وقال في نفسه : ويح للرجال كم يغيرهم الشقاء ! فقد كان هذا الرجل يخافه الناس وكان لا ضمير له ولا نعمة ولا رحمة ولا قلب فأصبح عند الشقاء جازعاً ضعيفاً يشبه الطفل الذي يخاف في ظلمات الليل فيستغيث بأمته . ووالله إني لو لم أتهد لفوسكاري بإحضاره إليه لتركنه يموت في هذا السجن فإنه لا يستحق الحياة .

ثم قال له : إنقض يا حضرة الكرديثال فإنك من أمراء الكنيسة ويجب أن نركع أمامك لأن تركع أمامنا فأنت الآن حرّ طليق . قلبت ببو جاثياً وقال :

— أنا ... حرّ ... طليق !؟

قال : ألم أقل لك ذلك ؟ فانقض فأنت حرّ أن تخرج من هنا وأن تعود إلى فينيسيا وإلى مقامك في الهيئة الاجتماعية وقصر الدوج الذي ينتظرك .

— أنا حرّ !؟ إذن لقد عفا عني رولاند ! إذن لم يخطيء ظني فيه ، فهو الرجل الطيب الكريم الأخلاق الذي أسأل الله أن يباركك عني !

وقد سألت الدموع الغزيرة من عينيه وحاول أن يقف ولكنه

سقط فقال : ربّاه ، ألا يكون مراده تعديبي بالرجاء الكاذب
بعد اليأس كما عدّته أنا حين زرتّه في السجن ؟
فأنفضه ساندريجو وهزّه هزاً عنيفاً وقال : لا شك أنك قد
فقدت صوابك وإلا فما معنى هذا الملع بعد أن قلت لك إنك
حرمٌ ، وليس رولاند الذي يطلق سراحك فتدعو له هذا بل أنا
الذي أنقذتك ، فتعال معي .

وعند ذلك حدّق إلى خارج المغارة بينما كان اللصوص
يشتملون بنقب جدرانها باحثين عن الكنز . فلما تشتت
الكردينال هواء الجبال النقيّ ورأى النجوم تتقد في السماء وقف
هنيهة وهو مندعش مأخوذ . فأجلسه ساندريجو على حجر وسقاه
كأساً من الخمر قشرها جرعة واحدة .

وهدأت أفكاره بعد أن كان مصاباً بما يشبه الذهول ، فنظر
إلى ما حوالبه وبدأ يعلم ما مضى فقال لساندريجو :

— من أنت ؟ أذكر لي اسمك يا منقذي كي أردّده في صلواتي

ما حبيت !

فأجابته ساندريجو قائلاً : إني أدعى ساندريجو !

— ساندريجو ؟

— نعم ، من قواد الجندرمة في فينيسيا !

— أعلّمتهم أرسلوك لإنقاذي ؟

— كلا ، بل أرسلت نفسي . وإذا كنت أنقذك فلأنّ إنقاذك

بروق لي .

— إني أباركك مهما كان قصدي !

وأخذ عند ذلك يد ساندريجو بين يديه فضغط عليها إشارة
إلى امتنانه ، ثم جعل يركض في ظلمات الليل كأنه لا يزال غير
واثق من أنه بات حراً طليقاً . وطال طوافه بضع ساعات بحيث
أنه لم يعد إلى المغارة إلا حين طلوع الشمس . وقد فكر ملياً
أثناء طوافه واطمأنّ بالله حتى عادت إليه سكينته ودهاؤه .
فلما رآه ساندريجو قال له : إني أؤثر أن أراك كما أنت الآن

على ما كنت عليه !

فقال الكردينال : هل تقبّعي ؟

— وأية فائدة لي من أن أتبعك فقد كنت واثقاً أنك ستعود .

— إذن أنا حقيقة حرمٌ ؟

— أما رأيت ذلك بالبرهان ؟

— هو ذاك ، فإلى أين تريد الذهاب بي ؟

— إلى فينيسيا حيث ينتظرونك .

— من الذي ينتظرنني ؟

— الدوج فوسكاري ، كما قلت لك .

— حسناً ، فلنذهب في الحال .

— بل يجب أن تأكل كي تتقوّى ثم تغيّر ملابسك ، ألا ترى

أنها باتت رقماً بالية ؟

وقد دلت ساندريجو عند ذلك على قاعة في المغارة كان فيها

مائدة عليها طعام وشراب وهناك ثوب تامّ من ملابس الفرسان .

فبدأ الكردينال يلبس الثوب ، ثم أكل وشرب ، وخرج الإثنان

من المغارة فركبوا جوادين وهما بالرحيل . وقبل أن يرحلا نادى

ساندريجو أحد اللصوص فقال له : ألم تعثروا على شيء ؟ فقال :
كلا . قال : عودوا إلى البحث عن الكنز فإني رائق من وجوده
في هذه المغارة . فهب اللص رأسه إشارة إلى بأسه من لئانه .

فقال ساندريجو : لا بد أن تجدوه لو نسفتم الجبال .
ثم أطلق لجواده العنان واقتدى به الكردينال فاجتازا قرية
ترفيزا وسارا في طريق تريفيزا كي يذهبا منها إلى ميستر ومن
هناك إلى بحيرات فينيسيا . وبدأ الكردينال الحديث فقال : إني
أعيد عليك ما قلته وهو أنني تمت لك إلى الأبد . فقال ساندريجو :
إني أقبل امتنانك الأبدي بالرغم من اعتقادي بأنه لا يوجد شيء
أبدي في هذا الوجود ، حتى ولا امتنان كردينال !

فلم يحبه الكردينال على تهكمه وقال : لقد قلت لي حين
أنفذتني في الليل أقوالاً لا أذكرها لأضطرابي في ذلك الحين ،
ولكني لا أزال أذكر أنني سمعت منك اسم رولاند .

- نعم ، فقد سألتني إذا كان هو الذي صفح عنك .
فانتقدت عيناه ببارق من الغضب وقال : أعمل هذا الرجل
من أصحابك ؟ قال : إن صداقتي تشبه صداقة العاصفة للثوب ،
وصداقة النمر للوعل . نعم ، إني أكره هذا الرجل بمثل
جوارحي . ولولا يقيني أنك تكرهه أشد مما أكرهه لما أنقذتك
ولتركتك تموت في سجنك . أقول هذا وأنا أرجو أن تعذرني
لحريتي .

- قل ما تشاء فإني ما سررت بجباتي بمثل ما أسمع الآن
منك .

- إذا كان ذلك فلتتكلم بجلاء ، فاعلم إذن أنك غير مدِين لي
بشيء وذلك أنني لم أنقذك لفائدتك بل لفائدتي إذ أرجو أن
تكون لي أشد سلاح على مقاتلة رولاند .

ثم ابتسم وقال : إنني ضربته ضربات شديدة ولكنني أرجو
باعتقادي عليك أن أضربه الضربة القاضية .

- إعتد علي ولكن يجب أن أعرف هذا الحليف الذي
تعاهدت وإياه على الهجوم وقد عرفت من أنا في حين أنني لم
أعرف من أنت .

- لقد قلت لك إني قائد في الجندمة تحت إمرة ألتيارى
القائد العام . ولكني لم أنل هذا المنصب إلا من عهد قريب فقد
كنت قبله من اللصوص .

فنظر إليه الكردينال نظرة إنكار ، فأجابه ساندريجو على
نظرة قائلا : إن ذلك يدهشك دون شك . ولكنك حين تصل
إلى فينيسيا تعلم عني أموراً كثيرة من رجل تثق به كل الثقة .

- من هو ؟

- هو الدوج فوسكارى .

- حسناً ، فسأصبر إلى أن أراه فأقول لك ما أريده منك .

والآن قل لي ما تريده مني .

فأطرق ساندريجو هنيهة مفكراً وقال : إني أطلب إليك
قضاء أمرين : أحدهما أن تعينني بكل قوتك على رولاند
كانديانو .

- لقد اتفقنا على هذا الطلب . فما هو الثاني ؟

- إن طلبي الثاني سيبدو لك غريباً يا حضرة الكردينال .
 فقد كنت لصاً قبل أن أكون قائداً . ولكن اللصوص يحبون ،
 كما يظهر ، كسائر الناس . وقد أحببت فتاة ...
 - أتريد أن أساعدك على رضى أهلها بزواجك ؟
 - كلا ، فإني لا أعتد على أحد في مثل هذا الشأن .
 - إذن ماذا تريد ؟
 - لقد كنت بالأمس لصاً وأصبحت اليوم قائداً فأريد أن
 يكون لي مقام بين العائلات الإيطالية ولا سيما لامراتي .
 - لماذا يكون لامراتك مقام ؟
 - الأمر سوف تعلمه ، فإن الأسرات النبيلة ستستقبلها ببرود
 وأنا أريد أن يدخل القائد ساندريلجو وامرأته إلى أرفع بيت وهما
 شاخا الرأس .
 - ماذا يجب أن أعمل لتحقيق هذه الأمنية ؟
 - يجب أن تحضر حفلة زواحي أشرف العائلات ، وأن
 تكون الحلقة باهرة ، وأن يعقد قراننا أعظم رجال الكنيسة في
 فينيسيا ، أي الكردينال بمبو بنفسه .
 - إذن أنت أنقذتني لهذه الغاية ؟
 - كلا ، بل إنني أنقذتك من المغارة السوداء لاعتقادي أنك
 تحمل من الحقد على رولاند فوق ما أحمل . ولا أنكر عليك أنني
 حين سمعتك تتوسل وتثني على كرم رولاند ندمت وعزمت على
 التخلص منك . غير أنني رأيت ولا سيما بعد هذا الابتسام الذي
 تبسمه الآن أن حقدك عظيم عليه ، وهو رجل شديد يستحق

عناء المؤامرات عليه .
 - وأنا أرى رأيك ، فلنسرع إذن فإني مازلت في هذه
 الجهات لا آمن على نفسي .
 وقد جدت الإثنان عند ذلك السير . وبعد ساعة دخلا إلى
 سراي الدوج فقال ساندريلجو لفوسكاري : أرايت يا مولاي
 كيف وقيت بوعدتي ؟
 فشكره الدوج بإشارة وجعل ينظر إلى بمبو وهو معجب
 بتغييره ، فإن سجن بضعة أيام فعل به ما لم يفعله رولاند سجن
 ستة أعوام . فأدرك بمبو سرّ نظراته وقال له : نعم ، لقد تقيّرت
 كثيراً ، فإن كل دقيقة مرت بي في ذلك السجن الهائل كانت
 بمثابة عام . ثم قال له بصوت منخفض : يجب أن نتحدث .
 قال : في هذا المساء .
 - أين يجتمع ؟
 - حسب العادة ، في جسر التهنيدات .
 - حسناً ، فسأرافيك . ولكن أعلمت أن رولاند في قيد
 الحياة ؟
 - نعم لقد علمت !
 - إنه حاقد علينا حقداً شديداً . وانتقام هذا الرجل هائل
 كما علمت بالبرهان .
 وكان فوسكاري شجاعاً بقدر ما كان بمبو جباناً ، ومع ذلك
 فإنه ارتعد فقال له بمبو : يجب أن نحذر لأنفسنا كلّ الحذر وأن
 نتخذ الوسائل السريعة فننقضّ انقضاها الصاعقة أو يقبض

علينا رولاند الواحد تنو الآخر ، فإن هذا الرجل أشدّ وأقوى
ما كنا نتوقع .

— سنجتمع في هذا المساء .

ثم التفت إلى ساندريجو وقال له : أشكرك يا حضرة القائد
لإنقاذك الكردينال فأنت من أشدّ أعواننا . ورجائي أن تستمر
على خدمة الجمهورية مثل هذه الخدمات الجليلة وأن أستمع على
ترقيتك بما ينطبق على كفاءتك !

فانحنى ساندريجو شاكرأ وهو يكاد يطير سروراً ثم استأذن
من الدوج وخرج مع الكردينال إلى قصره . وهناك قال له
الكردينال : لقد مشيت الآن أهدأ الصديق في طريق الثروة
والسعادة ، فإن فوسكاري لا يرجع عما بعد به . وأما أنا فإني
سأساعدك بله قوتي .

— وأنا معتمد عليك دون شك .

— إذن عد إليّ غداً فإني مضطربٌ هذه الليلة إلى مشاورة
رجل لا بدّ لي من استشارته وغداً نتحدث ملياً فيما يفيد .

— وأنا سأبدأ عملي منذ اليوم ولكن ألا تستطيع أن تجيبي

الآن عما سألتك إياه ونحن في طريق البحيرات ؟

— ماذا سألتني ؟

— أن يحضر حفلة زواجي جميع نبلاء فينيسيا ، ويعقد لي في
الكنيسة الكاتدرائية ، ويتولّى عقد القران الكردينال بيبو
أسقف فينيسيا .

— إنه شرف عظيم لا يُمنح عادة إلا لأكابر الناس . ولكنني

لا أستطيع أن أرفض شيئاً مما تطلبه وسيكون ما تريد ، فقل
لي ماذا تدعى تلك الفتاة .

— إنها تدعى بيانكا ، وهي ابنة المحظية أمباريا .

وعند ذلك انحنى وانصرف ، فبقي بيبو وحده دون حراك
كأنما الصاعقة قد انقضت عليه . ولم يشب إلى رشده إلا بعد حين
فجعل يقول : بيانكا ؟ إنه يريد أن يتزوج بيانكا ، وأن أتولى أنا
عقد القران ؟ فباله من أبله !

ثم ضحك ضحكاً هائلاً وقام وغيّر ملابسه وخرج من منزله
فركب قارباً وسار به إلى قصر أمباريا فصعد السلم وهو يضمُّ
قبضته منذراً متوعداً يقول في نفسه : إنني أقتل الإثنين ولا
أسمح بمثل هذا الزواج .

وفي ذلك الحين رسا قاربٌ عند باب قصر أمباريا وخرج
منه رجل .

أمّا هذا الرجل فقد كان ساندريجو .

تم الجزء الأول من هذه الرواية الشيقة

ويليه الجزء الثاني والأخير

وهو بعنوان : « عشاق فينيسيا »